

غاية الاعتبار

في أخبار من تعلّم العلم أو علّمه ولو في ساعة الاحتضار

بقلم

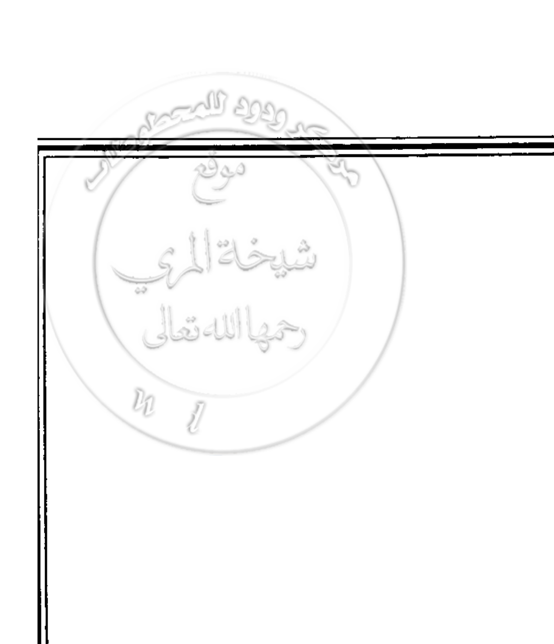
الدكتور محمد بن عزوز

مركز التراث الثقافي المغربي

دار ابن حزم

غاية الاعتبار

في أخبار من تعلم العلم أو علمه ولو في ساعة الاحتضار


موقع
شيخة المري
رحمها الله تعالى

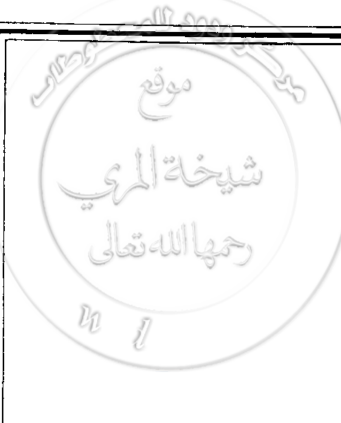

بسم الله الرحمن الرحيم

غَايَةُ الاعْتِبَارِ

فِي أَخْبَارِ مَنْ تَعَلَّمَ العِلْمَ أَوْ عَلَّمَهُ وَلَوْ فِي سَاعَةِ الاحْتِضَارِ

بقلم
الدكتور محمد بن عزوز

مركز التراث الثقافي المغربي
دار ابن حزم



الطَّبعَة الأولى

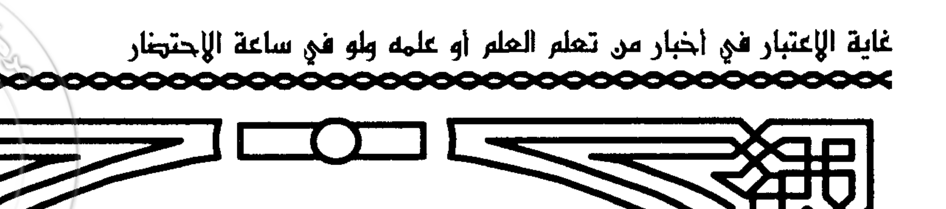
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

ISBN 978-9953-81-727-9

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

مركز التراث الثقافي المغربي
الدار البيضاء - 52 شارع القسطلاني - الأحباس
هاتف: 442931 - 022/ فاكس: 442935 - 022
المملكة المغربية

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb





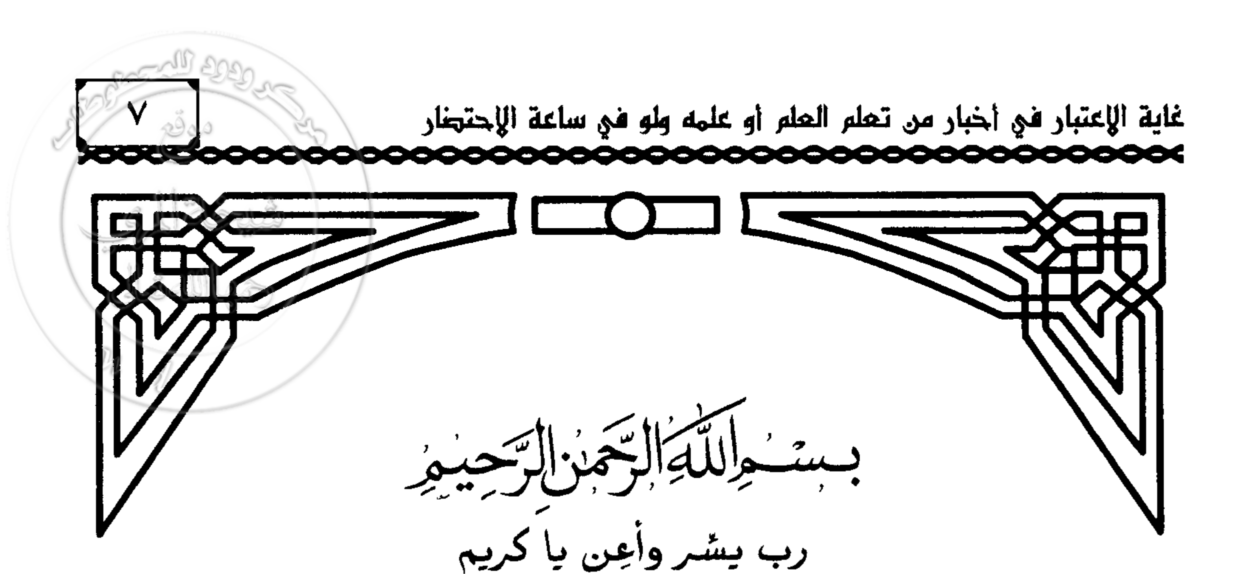
يقول محدث حلب الشهباء
العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة ـ رحمه الله تعالى ـ
في وصف مَن تعلم العلم أو علَّمه حتى عند ساعة الوفاة:

«. . . هكذا كانوا!! الموتُ جاثِمٌ على رأسِ أحدِهم بِكُرَبِه وغُصَصِه، والحشرَجَةُ تَشتَد في نفَسه وصَدْرِه. والإغمَاءُ والغَشَيانُ مُحيطٌ به، فإذا صَحَا أو أَفَاقَ مِن غَشيَتِه لحظاتٍ، تساءَلَ عن بعض مسَائِلِ العِلْم الفرعِيَّةِ أو المنْدُوبَةِ، لِيتعلَّمها أو لِيُعلِّمها وَهُو في تِلكَ الحَالَ التي أخذَ فيها الموتُ منه بالأنفَاسِ والتَّلاَبِيبِ!

يَا الله؟! ما أَغْلَى العِلْمَ عَلَى قلوبِهم، وما أشغَلَ خواطرَهم وعُقُولَهم به؟ حَتَّى في ساعة النَّزْعِ والموتِ! لم يتذكروا فيها زوجةً أو ولداً أو قريباً عزيزاً، وإنَّما تذكروا العلمَ، فَرحماتُ اللَّهِ تعالى عليهم، وبهذا صاروا أئمة في العلم والدين».

(صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل): ١٣٢


مركز ودود للمخطوطات
موقع
شبكة المرزي
رحمها الله تعالى



رب يسّر وأعِن يا كريم

مقدمة

❑ كلمة في إقبال سلف الأمة على العلم والاستزادة منه:

الحمد لله حَمْدَ الشَّاكرين، والصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى مَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أمَّا بعد، فقد كان سلف الأمة يقبلون على العلم إقبالاً مُنقطع النظير.

وكانوا لا يتوقفون عن طلبه والاستزادة منه، وإن بلغوا من السن ما بلغوا.

أو ارتقوا إلى أعلى مراتب العلم، بل هم كلما ارتقوا في درجات سُلَّم العلم شعروا بأنهم لا زال ينقصهم الكثير، فازدادوا له طلباً، وعليه حرصاً، لأنَّ العلم بحر لا قرار له، ولا شطآن له، وكلما تعمَّق طالبه فيه، تفتحت له فيه أبواب جديدة، وتبيّنت له معالم كانت خافية، وليس بعد أمر الله لرسوله بيان ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ولم يَرِد في القرآن كله أمر آخر للرسول الكريم بطلب الزيادة منه، غير العلم.

ولأجل هذا جاء عن النبيّ ﷺ: **«منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا»**[1].

---

(١) أورده الهيثمي في (مجمع الزوائد) عن ابن مسعود وقال: رواه الطبراني في «الكبير» وفيه أبو بكر الداهري وهو ضعيف، وذكره الألباني في (صحيح الجامع الصغير): (٦٦٢٤) ولعله صححه بمجموع طرقه.

قال الإمام مالك: «لا ينبغي لأحد يكون عنده العلم أن يترك التعلم».

وقيل للإمام عبدالله بن المبارك: «إلى متى تطلب العلم؟ قال: حتى الممات، ولعلَّ الكلمة التي أنتفع بها لم أكتبها بعد».

وسُئل أبو عمرو بن العلاء، فقيل له: «حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ فقال: ما دام تحسن به الحياة».

قال صالح بن أحمد بن حنبل: رأى رجل مع أبي مَحْبَرة، فقال له: يا أبا عبدالله، أنت قد بلغت هذا المبلغ، وأنت إمام المسلمين! ـ يعني: ومعك المحبرة تحملها؟! ـ فقال: **«مع المحبرة إلى المقبرة»**(١).

وقال عبدالله بن محمد البغوي: سمعت أبا عبدالله أحمد بن حنبل يقول: أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر.

وهذه طريقة العلماء والمشايخ فإنَّهم يقولون: «طلب العلم من المهد إلى اللَّحد»(٢).

ومن هذه الأقوال الرائعة ما رواه الإمام ابن عبدالبر عن أبي غسان قال: «لا تزال عالماً ما كنت متعلماً، فإذا استغنيت كنت جاهلاً»(٣).

هكذا كان أسلافنا رضي الله عنهم في عكوفهم على العلم، وطلبهم للاستزادة منه، فهذا الإمام فخر الدين الرازي، المفسر الكبير، ذو التصانيف الكثيرة، والمتفرد بالإمامة في عصره بعلم الكلام، والمعقولات، وقد أتاه الله من الشهرة العلمية، وبُعد الصيت. ما جعل العلماء يتقاطرون عليه من كل

---

(١) انظر: هذه الأقوال في (جامع بيان العلم) باب: الحض على استدامة الطلب والصبر على اللأواء والنصب: ج١/٩٥.

(٢) هذا القول ليس بحديث كما يتناقله بعض الناس، وكون هذا الكلام صحيح المعنى في ذاته لا يسوغ نسبته إلى النبيّ ﷺ. قال الحافظ المزي: «ليس لأحد أن ينسب حرفاً يستحسنه من الكلام إلى رسول الله ﷺ، وإن كان ذلك الكلام في نفسه حقاً. فإن كل ما قاله الرسول ﷺ حق، وليس كل ما هو حق قاله الرسول ﷺ» (ذيل الموضوعات) للسيوطي ص: ٢٠٢.

(٣) جامع بيان العلم: ٩٦/١.

حدب وصوب، طلب من تلميذه ـ عزيز الدين إسماعيل بن الحسن المروزي النسابة ـ أن يُعلمه علم الأنساب، ولم يجد غضاضة من التتلمذ عليه، فأجلسه مجلس الأستاذ، وجلس هو بين يديه مجلس الطالب المستفيد، فكان هذا وِسَام تواضع ورفعة[١].

وهذا الإمام الزمخشري الذي ملأت شهرته آفاق الدنيا، وكثر تلامذته والآخذون عنه أيما كثرة، ومع هذا لم يأنف أن يجلس بين يدي الإمام الجواليقي في بغداد جلسة التلميذ المستزيد، وهو ابن (٦٦) سنة قبل وفاته بخمس سنين.

وإليك خبراً آخر أعجب وأغرب.

يقول الحافظ الذهبي[٢] عند ترجمته للإمام ابن الجوزي: «كتب بخطه ما لا يوصف كثرة، وما علمت أحداً من العلماء، صنف ما صنف هذا الرجل، قرأ بواسط وهو ابن ثمانين سنة بالعشر على ابن الباقلاني».

هكذا كان غلاء العلم عند علمائنا العاملين رضي الله عنهم، بل كانوا يدعون الله تعالى أن لا يحرمهم من الاستزادة في العلم حتى في الآخرة.

جاء في «تذكرة الحفاظ»[٣] و«معجم الأدباء»[٤] و«ذيل طبقات الحنابلة»[٥] في ترجمة أبي العلاء الهمذاني ـ الحسن بن أحمد بن سهل العطار ـ المتوفَّى سنة ٥٦١هـ.

«الحافظ العلاَّمة، المقرىء، شيخ الإسلام، ولد بهمذان، وتلقى عن كبار الشيوخ فيها... وكان قد حصَّل الأصول الكثيرة، والكتب النادرة الكبار الحسان، بالخطوط المعتبرة، وأربى على أهل زمانه في كثرة السماعات، مع تحصيل أصول ما سمِع، وجودة النسخ، وإتقان ما كتبه بخطه، فإنَّه ما كان يكتب شيئاً إلاَّ مُنقَّطاً مُعْرباً.

---

(١) المجتمع المسلم كما يَبْنِيه الكتاب والسنَّة: ٣٠٦.
(٢) تذكرة الحافظ: ١٣٤٢/٤.
(٣) ١٣٢٤/١.
(٤) ٥/٨.
(٥) ٣٢٤/١.

وكان عفيفاً من حب المال، مُهيناً له. من أجل ذلك تحمّل فقدان جميع ما ورثه وأنفقه في طلب العلم، وسافر الكثير ماشياً، حتى سافر إلى بغداد وإلى أصبهان مرات ماشياً، يحمل كتبه على ظهره، وأوتي قوة عجيبة في المشي، كان يمشي في اليوم الواحد ثلاثين فرسخاً، وكان له حظ في كل علم، قال: كنت أبيت ببغداد في المساجد، وآكل خبزَ الدُّخْنِ ـ أي: الذُّرة ـ.

قال الإمام طلحة بن مظفر العلثي: بيعت كتب ابن الجواليقي في بغداد، فحضرها الحافظ أبو العلاء الهمذاني، فنادوا على قطعة منها بستين ديناراً، فاشتراها الحافظ أبو العلاء بستين ديناراً، والإنظار من يوم الخميس إلى يوم الخميس. فخرج الحافظ واستقبل طريق همذان، فوصل فنادى على دار له، فبلغت ستين ديناراً، فقال: بيعوا، قالوا: تبلغ أكثر من ذلك. قال: بيعوا، فباعوا الدار بستين ديناراً فقبضها ثم رجع إلى بغداد، فدخلها يوم الخميس فوَفَّى الثمن، ولم يشعر أحد بحاله إلاَّ بعد مدة.

قال ابن الجوزي: وبلغني أنَّه رُؤي في المنام بعد موته، في مدينة جميع جدرانها من الكتب، وحوله كتب لا تحد، وهو مشتغل بمطالعتها، فقيل له: ما هذه الكتب؟ قال: سألت الله أن يشغلني بما كنت أشتغل به في الدنيا فأعطاني.

وفي العصر الحديث كان أستاذي العلاَّمة محمد المنوني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول من شدة نهمه في الاستزادة من العلم: «**تُرى هل توجد ضمن نِعَم الله في الجنة نعمة ممارسة البحث العلمي؟**».

وقد صدق الإمام ابن حزم عندما قال في شأن غلاء العلم على طالبه الصادق[1]:

مَن لم ير العلمَ أغلى ... من كل شيء يُصاب
فليس يُفلح حتى ... يُحثى عليه التراب

---

(١) إنباه الرواة: ٢٣٧/٣.

وأعجب من هذا وأغرب ما نقلته لنا كتب التراجم والسير من أخبار أئمة كبار حافظوا على الساعات واللحظات حتى وهم في غمرات الموت ووداع الحياة، فتعلموا العلم، وعلَّموه، وتذاكروا به، وبحثوا في مسائله ومشكلاته قُبيل ساعة الممات.

وساعة الممات لا يمكن لأحد أن يصف حقيقتها أو يصل إلى كُنْهِها، إنَّها ساعة رهيبة، ولحظة مذهلة قاسية، تأخذ بمجامع النفس، وبمعاقد أطراف الجسد، ساعة يضيق فيها مجرى التنفس، حتى وكأنَّ المرء يتنفس من ثقب إبرة!... ساعة فراق في غاية الألم والحرقة، وبعد قليل ينطفىء الإنسان، وتصبح الدنيا كلها ذكريات...

هل هناك ساعة في الدنيا أرهب من هذه؟!

هل هناك ساعة أشد حرجاً وأكثر شغلاً منها؟!...

فما بالك بأناس في هذه الساعة التي تكون فيها حالة الزفير أطول من الشهيق، يتذاكرون العلم، ويروون أحاديث نبوية، ويفسرون آيات قرآنية، ويجيبون عن مسائل فقهية... ويحرصون على ذلك كله، كأقوى ما يكونون صحة، وكأشد ما يكونون نشاطاً!!

يقول العلاَّمة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة ـ رحمه الله تعالى ـ: «... هكذا كانوا!! الموت جاثم على رأس أحدهم بكُربه وغُصصِه. والحشرجة تشتد في نفسه وصدره، والإغماء والغشيان محيط به، فإذا صحا أو أفاق من غشيته لحظات، تسائل عن بعض مسائل العلم الفرعية أو المندوبة، ليتعلَّمها أو ليُعلِّمها وهو في تلك الحال التي أخذ فيها الموت منه بالأنفاس والتلابيب!

يا الله؟! ما أغلى العلم على قلوبهم، وما أشغل خواطرَهم وعقُولَهم به؟ حتى في ساعة النَّزْع والموت! لم يتذكروا فيها زوجة أو ولداً أو قريباً عزيزاً، وإنَّما تذكروا العلم، فرحمات الله عليهم، وبهذا صاروا أئمة في العلم والدين.

أُولـئِكَ آبَـائِي فَـجِئْـنِي بِـمِـثْـلِـهِـمْ إِذَا جَمعَتْنَا يَا جَرِيرُ الْـمَجَامِعُ[1]

فليس عجيباً أن يقع هذا من علمائنا الأفذاذ الذين تفرغوا للعلم حتى الممات. يجمعون أصوله، ويثبتون قواعده، ويرفعون بنيانه شامخاً ركيناً في إخلاص نادر، وصبر لا ينفد، وكان الزمن لا ينجح في إغرائهم بمباهج الحياة، وعندما يترصدهم الموت، لا يقع عليهم إلاَّ في حلقة درس، أو قاعة بحث، أو جلسة تأليف، أو ميدان مناظرة... فحرصوا رحمهم الله تعالى حتى وهم في تلك اللحظات الأخيرة من حياتهم أن يعلموا أو يتعلموا...

فحالتهم عند الإحتضار يكون على ما كانوا عليه في حياتهم.

يقول العلامة محمد خير رمضان يوسف[2]: «... وإنَّ الذي تدبرته من كلام العلماء أن حال المرء عند الموت يكون على ما كان عليه في غالب حياته، إن سعادة أو شقاءً، إن قُرباً من الصلاح والتقوى أو بُعداً عنهما، إن صلاحاً في الأرض أو فساداً.

فشارب الخمر عندما يُلقن كلمة لا إلٰه إلاَّ الله، لا يستطيع أن يلفظها، بل يقول: اشرب واسقه!

والعاق لوالديه يصيبه كرب شديد، فيرى العذاب يقترب منه قبل أن يدخل القبر!

وصاحب الثروة والمال يتلفظ بمفردات البيع والتجارة!

والشاعر ما زال يقول شعراً!

والأمير والحاكم يتمنى أن يكون راعياً وغسَّالاً ولم يلِ من أمر النَّاس شيئاً!

وأهل الإيمان والصلاح يتلفظون بالآيات القرآنية الكريمة، ويطلبون رؤية الصالحين، وينطقون بحكم ووصايا جليلة، قلَّ أن توجد بين الأحياء!

---

(١) صفحات من صبر العلماء: ١٣٣.

(٢) مقدمة تحقيق كتاب: «المحتضرين»، ص: ٨، ٩.

على أنَّ من أهل الإيمان مَن يجزع جزعاً شديداً في تلك اللحظات، وهذا الغالب ما كان في حياتهم، من خشيتهم وخشوعهم، وخوفهم الشديد من عذاب الله، وشفقة على أنفسهم من عدم رضائهم عن أعمالهم»[١].

❑ سبب تأليف الكتاب:

وقد شدَّ مني العزم على جمع أخبار مَن تعلم العلم أو علمه ولو في ساعة الاحتضار ما أورده شيخي العلاَّمة عبدالفتاح أبو غدة في كتابه الماتع المفيد: «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل»[٢]، وهو كتاب سرد فيه القصص الآسرة من حياة السلف، ودبجها بتعليقات ملهبة، ونكت عجيبة، ومَن قرأه برغبة قدح في قلبه شوقاً لا ينطفىء للعلم ورغبة ملحة للتحصيل. فقال رحمه الله تعالى مُعلِّقاً على خبر العلامة الفلكي، والمؤرخ أبي الريحان البيروني وتعلقه الشديد بالعلم حتى عند النزع وساعة الوفاة:

«قد تكرر وقوعه من غير واحد من كبار العلماء قبله وبعده، وجدير أن تجمع شواهده وواقعاته، فيكون جانباً من جانب حياتهم».

وقد يسَّر المولى عزَّ وجلَّ لهذا العبد العاجز الضعيف أن يجمع باقة متنوعة من أخبار مشاهير أئمتنا الأعلام الذين تعلموا العلم أو علموه ولو في ساعة الاحتضار من خلال كتب التراجم والسِّير، فجاء بحمد الله وعونه جامعاً لأخبارهم، مستوفياً لوقائعهم، مشتملاً على غرر الفوائد ودُرَد الفرائد.

❑ الهدف من الكتاب:

والهدف من تأليف هذا الكتاب المتواضع هو: تبصير طلاب العلم اليوم بما كان عليه سلفهم من العلماء والأئمة في تحصيل العلم حتى في ساعة الوفاة، فالحديث عنهم مجلاة للقلوب من الصدأ والكسل، ومدعاة لتحريك الهمة للجد والعمل.

---

(١) لمزيد من التوسع راجع كتابي: «مخاوف الصالحين من عدم قبول الأعمال» ـ ط: دار ابن حزم ـ في بيروت.

(٢) ص: ١٣٢.

وأخبارهم من خير الوسائل التي تغرس الفضائل في النفوس، وإشعال العزائم، وإذكاء الهمم، والتسامي إلى معالي الأمور، وسمو المقاصد، وإنارة القلوب وتدفعها إلى تحمل الشدائد والمكاره في سبيل الغايات النبيلة، والمقاصد الجليلة، وتبعثها إلى التأسي بذوي التضحيات والعزمات، لتسمو إلى أعلى الدرجات وأشرف المقامات. . .

وأردت أيضاً من هذا الكتاب أن يطّلع طلاب العلم في هذه الأيام التي فترت فيها هِمم الطالبين، وتقاعست غايات المجدين، وندر فيها وجود الطلبة المحترقين بالعلم، فمات النبوغ، وساد الكسل والخمول، وبرز من جراء ذلك الضعف والتأخر في صفوف أهل العلم وآثارهم. . .

فالله، اللّهَ، وعلينا بملاحظة سير القوم، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم، كما قال الشاعر:

فَـاتَـنِـي أَن أَرَى الـدِّيَـارَ بِـطَـرْفِـي ... فَـلَـعَـلِّـي أَرَى الـدِّيَـارَ بِـسَـمْـعِـي

وفي مطالعة سِيَر هؤلاء الأئمة الأعلام عِبرة لمن أراد أن يعتبر من بعض علماء زماننا الذين إذا أحرزوا على الشهادة أو اللقب. قلَّ طلبهم للعلم، وصار همهم الرواتب العالية والمناصب السامية، يقول العلاّمة عبدالفتاح أبو غدة ـ رحمه الله تعالى ـ[1]:

«ومن المؤسف أنَّ كثيراً من المنتمين إلى قبيل العلماء اليوم، إذا أحرز الواحد منهم شهادة، أو أدرك منصباً، أو نال وجاهة، قلَّ إقباله على العلم والازدياد منه! وتراه يكبر في منصبه، ويصغر ويضمُر منه العلم حتى يكاد يضمحل، وتراه يسعى إلى لقاء النَّاس، ولا يبالي أن يقضي معهم الساعة والساعتين والثلاث، في محادثات خاوية! وأحاديث بالية! ويصبح همه الارتقاء في الرتب والرواتب والزعامة لا في تنمية العلم وتوثيقه، وتفتيحه وتعميقه، فإنَّا لله. . .».

قلت: ما أدق هذا التشخيص وما أصدقه!

---

(١) صفحات من صبر العلماء: ٢٥٧.

ثم قال أيضاً: «وأنصف وصدق بعض المعاصرين، إذ حكى حاله عند بدء دخوله الكلية، وعند انتهاء دراسته فيها:

ودخلت فيها جاهلاً متواضعاً وخرجت منها جاهلاً دكتوراً

ولقد ظنَّ أولئك النفر الذين منحوا تلك الألقاب: شراءً أو استجداءً، أو استغلالاً لمنصب تسلقوه دون استحقاق، أنَّهم بمجرد منحها لهم قد حصلوا العلم، وخرجوا من الجهل، فاللَّقب هو المُهم، وقد فازوا به!»[١].

«فما هو إلاَّ أن حاز (اللقب) حتى أعرض عن الطلب، وقد كان يدعي العكس، يقول: دعوني أضع همَّ اللقب ثم أمعن في الطلب، فما له انقلب!!»[٢].

كما أنَّ في قراءة أخبار أصحاب التراجم المذكورين في هذا الكتاب دروساً تربوية عظيمة لمن ابتلوا بالعجب والغرور والتعالم، والزهو المنتفخ، وظنوا أنَّهم أدركوا نهاية العلم، ولله دَرُّ الإمام أبي الحسن الماوردي عندما وصف حال هؤلاء في كتابه: «أدب الدنيا والدين»[٣]:

«قلما تجد بالعلم معجباً، وبما أدركه مفتخراً، إلاَّ مَن كان فيه مُقِلاً ومقصراً، لأنَّه قد يجهل قدره، ويحسب أنَّه نال بالدخول فيه أكثرَه!

فأمَّا مَن كان فيه متوجهاً، ومنه مستكثراً، فهو يعلم من بُعد غايته، والعجز عن إدراك نهايته، ما يصده عن العجب به، وقد قال الشعبي:

والعلم ثلاثة أشبار؛ فمن نال منه شبراً شمخ بأنفه، وظن أنَّه ناله!! ومَن نال منه الشبر الثاني صغرت إليه نفسُه، وعلم أنَّه لم ينله، وأمَّا الشبر الثالث فهيهات! لا يناله أحدٌ أبداً».

---

(١) صفحات من صبر العلماء: ٣٧٦.
(٢) المشوق إلى القراءة وطلب العلم: ٧.
(٣) ص: ٨١.

وكان مجاهد بن جبر المكي، التابعي الكبير، وأعلم النَّاس في عصره بالتفسير يقول: «ذهب العلماء! فلم يبقَ إلاَّ المتعلمون، وما المجتهد فيكم اليوم، إلاَّ كاللاعب فيمن كان قبلكم».

وقيل لأيوب السختياني: «العلم اليوم أكثر أم أقل؟ قال: الكلام اليوم أكثر! والعلم كان قبل اليوم أكثر».

وما أجمل تعليق العلاَّمة عبدالفتاح أبو غدة على كلام هؤلاء الأئمة[١]:

«فإذا كان هذا قول هؤلاء الأئمة الأجلة أركان العلم والدين، وشيوخ المعرفة بعلوم المسلمين من نحو ألف وثلاثمئة عام، فماذا يقول أمثالنا اليوم بالنظر لحالنا وحالهم، وحال سلفهم الأول، الذين قالوا في علمهم وفضلهم ما قالوا؟!

فسترك اللَّهُمَّ وعفوك، وحفظك من الدعاوي العريضة المريضة، التي عليها بعض النَّاس في عصرنا أوائل القرن الخامس عشر!».

فرحمات الله تعالى على العلماء السابقين، العاملين المخلصين، الصابرين المحتسبين.

مَاتُوا وَغُيِّبَ فِي التُّرَابِ شُخُوصُهُم   فَالنَّشْرُ مِسْكٌ وَالعِظَامُ رَمِيمُ

❑ عملي في الكتاب:

هذا موضوع طريف، لم أقف على مَن دَوَّن فيه شيئاً من قبل، سوى: الإمام الحافظ ابن أبي الدنيا المتوفَّى سنة ٢٨١هـ. في كتابه: «المحتضرين»، ذكر فيه فئات مختلفة من المجتمع، جمع لنا أقوالهم عند الاحتضار لنعتبر بها ونتَّعظ، وفيه أقوال وأخبار من ناس عاديين لم يلوا شيئاً من أمر النَّاس، ولا هم عرفوا بعلم أو حرفة...

---

(١) صفحات من صبر العلماء: ٣٨١.

وسار على نهجه ومنواله: أبو سليمان محمد بن عبدالله بن أحمد بن زَبْر الرَّبَعي المتوفَّى سنة **٣٧٩**هـ في كتابه: «وصايا العلماء عند حضور الموت».

أمَّا كتابي: «غاية الاعتبار في أخبار مَن تعلَّم العلم أو علَّمه وَلو في ساعة الاحتضار» فقد قصرته على المشاهير من العلماء الكبار في معرفة جانب من جوانب حياتهم وهو: تعلم العلم أو تعليمه حتى ساعة النّزع والموت، وفيهم من المفسرين والرواة والمحدثين والفقهاء واللغويين والنحاة والأدباء والمؤرخين ممن عُرف فضلهم، واشتهر دينهم وعلمهم، ووهبوا حياتهم كلها للعلم. . .

ولم أُرد الاستيعاب فيه وبلغ عدد العلماء الكبار المترجمين فيه **(٤٤)** عالماً.

وأوردت أخبارهم مُراعياً فيها الترتيب الزمني من عهد الصحابة رضوان الله عليهم إلى أوائل القرن الخامس عشر الهجري وجعلته في ثلاثة فصول.

واقتطفت جُملاً من تراجمهم الحافلة الوارفة من خلال مصادرها الأصلية.

وقد يرى القارىء أني توسعت في بعض التراجم، وذكرت فيها الكثير من جوانب حياتهم العلمية، وآدابهم؛ لأنَّ مَعْشراً مِنَّا ـ أخصُّ طلبة العلم وأنا منهم ـ يفتقر إلى التأدب بما كانوا عليه، فأردت من ذلك الدرس والاستفادة.

وطول هذه التراجم اقتضاه طول الثناء الذي اتصف به أصحاب هذه التراجم رحمات الله عليهم.

قال أبو الطيب المتنبي في مثل هذا المقام:

وَقَدْ أَطَالَ ثَنَائِي طُولُ لاَبِسِهِ   إِنَّ الثَّنَاءَ عَلَى التِّنْبَالِ[1] تِنْبَالُ!

وختاماً، أرجو أن يكون هذا الكتاب طُرفةً وتُحفةً من طرائف التأليف

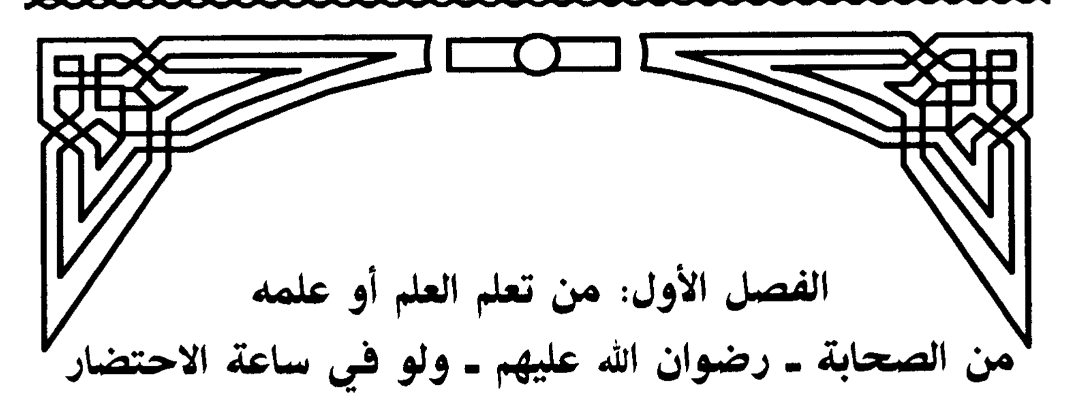
(١) التنبال: القصير.

في موضوعه ومضمونه راجياً من الله سبحانه أن يتقبل مني هذا الجهد، ويدَّخِره لي في حِرزِ القَبول عنده، وينفعَ به كل مستفيد، وأن يُغدق على هؤلاء الأئمة الأعلام، شآبيب الرحمة والرضوان، ويجمعنا معهم في مقعد الصدق لديه. إنَّه وليُّ ذلك، والقادر عليه، والمنعم به سبحانه.

والحمد لله رب العالمين
وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
وسلَّم تسليماً

وكتبه بيده الفانية
محمد بن عزوز
سلا المحروسة
حرر في ليلة القدر من شهر
رمضان المعظم ١٤٢٨هـ





الفصل الأول: من تعلم العلم أو علمه من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ولو في ساعة الاحتضار

١ ـ أبو مالك الأشعري

(ت ١٨هـ)

يحدث بحديث وهو يحتضر

صاحب رسول الله ﷺ:

والأشعري نسبة إلى الأشعر قبيلة مشهورة من اليمن، والأشعر لقب نبت بن أُدد، قيل له: الأشعر، لأنَّه ولد وعليه شعر، وإليه نسبة الأشعريين، منهم أبو مالك الأشعري هذا، وقد اختلف في اسمه، فقيل: الحارث بن عاصم، وقيل: كعب بن عاصم، وقيل: كعب بن كعب وغير ذلك.

وأكثر ما يرد في الروايات بكنيته. قال الحافظ ابن حجر في «أمالي الأذكار»: والتحقيق أنَّ أبا مالك الأشعري ثلاثة: الحارث بن الحارث، وكعب بن عاصم، وهما مشهوران باسميهما، والثالث مختلف باسمه، وأكثر ما يرد بكنيته.

روى أبو مالك الأشعري عن النبيّ ﷺ.

وروى عنه: إبراهيم بن مقسم الهُذلي، وجابر بن عبدالله وخالد بن سعيد بن أبي مريم، وربيعة بن عمرو الجُرَشي، وشريح بن عبيد الحضرمي، وشهر بن حوشب، وعبدالله بن معانق الأشعري، وعبدالرحمٰن بن غَنْم الأشعري، وعطاء بن يسار، وأم الدرداء، وآخرون.

قال شهر بن حَوْشَب عن عبدالرحمٰن بن غَنْم: طُعِن معاذ بن جبل، وأبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، وأبو مالك الأشعري في يوم واحد.

ولما حضرته الوفاة قال لأناس من الأشعريين: ليبلغ شاهدكم غائبكم، أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**حَلاَوةُ الدنيا مرارةُ الآخرة، ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة**»(١)(٢).

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) وصايا العلماء عند حضور الموت: ٧٤.

(٢) رواه أحمد في «المسند»: **٥/٣٤٢**، والحاكم في مستدركه: **٤/٣١٠** من حديث أبي المغيرة عبدالقدوس بن الحجاج الخولاني الحمصي عن صفوان بن عمرو السكسكي الحمصي، عن شريح بن عبيد الحضرمي، عن أبي مالك الأشعري.
وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.
وذكر الحديث أيضاً الحافظ السيوطي في (الجامع الكبير) وزاد نسبته للطبراني، والبيهقي في: (شعب الإيمان)، والبغوي وابن عساكر.



٢ ـ معاذ بن جبل

(ت ١٨هـ)

يُعلِّم أصحابه وهو في سياق الموت ثلاث خصال إذا فعلوها دخلوا الجنة

هو السيّد الإمام أبو عبدالرحمٰن الأنصاري الخزرجي المدني البدري، شهد العقبة شاباً أمرد، وشهد بدراً وله عشرون سنة أو إحدى وعشرون. كما شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها.

وكان طويلاً، حسناً، جميلاً، أسلم وله ثمان عشرة سنة ثم توجه إلى طلب العلم من المصطفى ﷺ، حتى ورد: أنَّ الرسول ﷺ أخبر أنَّه أعلم أمته بالحلال والحرام. وجاء في الحديث أنَّه يقود العلماء إلى الجنة ويتقدمهم، قال النبيّ ﷺ: «**يأتي معاذ يوم القيامة أمام النَّاس برتوة**»[(١)]، ومعنى قوله: «**برتوة**» أي: برمية سهم، وقيل: بميل، وقيل: مد البصر.

وفي رواية[(٢)]: قال عمر: لو أدركت معاذاً، ثم وليتُه، ثم لقيت ربي، فقال: مَن استخلفت على أمة محمد؟ لقلت: سمعت نبيك وعبدك يقول: «**يأتي معاذ بن جبل بين يدي العلماء برتوة**» وكان له مع النبيّ ﷺ مواقف، منها:

---

(١) رواه ابن سعد في (الطبقات): ٣٤٨/٢. وانظر: (السلسلة الصحيحة): ١٠٩٠.

(٢) أبو نعيم في (الحلية): ٢٢٩/١ من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن شهر بن حوشب، عن عمر. وانظر: (المجمع): ٣١١/٩.

ما جاء في (جامع الترمذي)[١] عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبيّ ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه، ونحن نسير فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار؟ قال: **«لقد سألتني عن عظيم، وإنَّه ليسير على مَن يسَّره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»** ثم قال: **«ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة. والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل** ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]» حتى بلغ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ ثم قال: **«ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه؟»** قلت: بلى يا رسول الله، قال: **«رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»** ثم قال: **«ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟»** قلت: بلى يا نبيّ الله، فأخذ بلسانه وقال: **«كُفَّ عليك هذا»**، فقلت: يا نبيّ الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به! فقال: **«ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم ـ أو على مناخرهم ـ إلاَّ حصائد ألسنتهم»**.

ويقول معاذ: بينا أنا رديف النبيّ ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل فقال: **«يا معاذ»**، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: **«يا معاذ»**، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: **«يا معاذ»**، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: **«هل تدري ما حق الله على عباده؟»** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»**، ثم سار ساعة ثم قال: **«يا معاذ بن جبل»**، قلت: لبيك رسُول الله وسعديك، فقال: **«هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه؟»**، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«حق العباد على الله أن لا يعذبهم»**[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: «الإيمان» باب ما جاء في حرمة الصلاة: (٢٦١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه (٣٩٧٣)، والطبراني في الكبير: ٢٠/٢٦٦، وأحمد في «المسند»: ٥/٢٣٥، والحاكم [illegible]

(٢) رواه البخاري: ١٠/٤٨٧، رقم (٥٩٦٧)، ومسلم (١/٥٨) رقم: (٣٠) وغيرهما.

وقال معاذ: لما بعثني النبيّ ﷺ إلى اليمن، قال لي: **«كيف تقضي إن عَرض قضاء؟»**، قلت: أقضي بما في كتاب الله، فإن لم يكن فبما قضى به رسول الله ﷺ، قال: **«فإن لم يكن فيما قضى به الرسول؟»**، قلت: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب صدري، وقال: **«الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله ﷺ لما يُرضي رسول الله»**(١).

ولما بعثه ﷺ إلى اليمن خرج يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: **«يا معاذ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي وقبري»**، فبكى معاذ جشعاً لفراق رسول الله، قال: **«لا تبكِ يا معاذ. أو إنَّ البكاء من الشيطان»**(٢).

عن معاذ قال: لقيني النبيّ ﷺ، فقال: **«يا معاذ، إني لأحبك في الله»**، قلت: وأنا والله يا رسول الله! أحبك في الله، قال: **«أفلا أعلمك كلمات تقولهنَّ دبر كل صلاة: رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**(٣).

عن عبدالرحمٰن بن كعب قال: كان معاذ شاباً جميلاً سمحاً من خير شباب قومه، لا يسأل شيئاً إلاَّ أعطاه، حتى كان عليه دَين أغلق ماله كلَّه، فسأل رسول الله ﷺ، أن يكلم له غرماءَه ففعل، فلم يضعوا له شيئاً، فلو ترك أحد لكلام أحد، لتُرك لمعاذ لكلام رسول الله ﷺ، فدعاه النبيّ ﷺ، فلم يبرح حتى باع ما له وقسمه بينهم، فقام معاذ ولا مال له، ثم بعثه على اليمن ليجبره فكان أول مَن تجر في هذا المال، فقدم على أبي بكر، فقال له عمر: هل لك يا معاذ أن تطيعني؟ تدفع هذا المال إلى أبي بكر، فإنَّه أعطاكه فاقبله، فقال: لا أدفعه إليه، وإنَّما بعثني نبيّ الله ليجبرني، فانطَلق عمر إلى أبي بكر، فقال: خذ منه ودع له، قال: ما كنت لأفعل، وإنما

---

(١) أخرجه أحمد: ٢٣٦/٥، وأبو داود: (٣٥٩٢)، والترمذي: (١٣٢٧).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند»: ٢٣٥/٥، رجاله ثقات.
والجشع: الجزع لفراق الإلف، وفي حديث جابر رضي الله عنه: ثم أقبل علينا فقال: **«أيكم يحب أن يعرض الله عنه؟»** قال: فجشعنا.

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة باب الاستغفار: (١٥٢٢)، والنسائي في السهو: ٥٣/٣.

بعثه رسول الله ﷺ ليجبره، فلما أصبح معاذ، انطلق إلى عمر، فقال: ما أراني إلاَّ فاعل الذي قلت، لقد رأيتني البارحة، أظنه قال: أُجر إلى النار، وأنت آخذ بحُجزتي، فانطلق إلى أبي بكر بكل ما جاء به، حتى جاءه بسوطه، فقال أبو بكر: هو لك لا آخذ منه شيئاً، فقال عمر: هذا حين حلَّ وطاب، وخرج معاذ عند ذلك إلى الشام(١).

عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «**نِعم الرجل أبو بكر، نِعم الرجل عمر، نِعم الرجل معاذ بن جبل**»(٢).

وكان أصحاب النبيّ ﷺ إذا تحدثوا وفيهم معاذ، نظروا إليه هيبةً له.

قال أبو سلمة الخولاني: دخلت مسجد حمص، فإذا فيه نحو من ثلاثين كهلاً من الصحابة، فإذا فيهم شاب أكحل العينين، برَّاق الثنايا ساكت، فإذا امترى القوم أقبلوا عليه، فسألوه، فقلت: مَن هذا؟ قيل: معاذ بن جبل، فوقعت محبته في قلبي(٣).

وعن أبي قلابة وغيره: أنَّ فلاناً مرَّ به أصحاب النبيّ ﷺ، فقال: أوصوني، فجعلوا يوصونه، وكان معاذ بن جبل في آخر القوم، فقال: أوصني يرحمك الله، قال: قد أوصوك فلم يألوا، وإني سأجمع لك أمرك: اعلم أنَّه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك إلى الآخرة أفقر، فابدأ بنصيبك من الآخرة، فإنَّه سيمر بك على نصيبك من الدنيا فينتظمه، ثم يزول معك أينما زلت.

وكان معاذ بن جبل يقول: ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله، قالوا: يا أبا عبدالرحمٰن، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا، إلاَّ أن يضرب بسيفه حتى ينقطع، لأنَّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥](٤).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في (الحلية): ١/٢٣١، والحاكم مختصراً في (المستدرك): ٣/٢٧٣.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ـ باب مناقب معاذ: (٣٧٩٧)، وقال: هذا حديث حسن.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١/٤٥٣.

(٤) أخرجه أحمد في الزهد: ١٨٤، وأبو نعيم: ١/٢٣٤، وسير أعلام النبلاء: ١/٤٥٦.

حضرته الوفاة في عسقلان في أرض فلسطين، وسبب ذلك: أنَّه سأل الله أن يموت شهيداً، فأتاه الطاعون، جاءته قرحة صغيرة كالدرهم في كفه، فحك هذا المكان، فقال له الصحابة: شفاك الله يا معاذ، فقال: لا، اللَّهُمَّ إنَّك تكبر الصغير، وتبارك في القليل، اللَّهُمَّ بارك في هذه القرحة، ثم قيل له: لماذا؟ قال: كرهت الحياة وسئمت العيش، وكان عمره يومئذٍ ثلاثاً وثلاثين سنة.

ولمَّا كان في سكرات الموت قبل صلاة الفجر، قال لابنته: انظري هل طلع الفجر؟ فقالت: ما طلع، فعاد فقال: اخرجي، انظري هل طلع الفجر؟ قالت: طلع، فقال: اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من صباح إلى النار، ثم التفت وقال: اللَّهُمَّ إنَّك تعلم أني لم أكن أحب الحياة لغرس الأشجار، ولا لجري الأنهار، ولا لرفع القصور، ولا لعمارة الدور، وإنَّما كنت أحب الحياة لثلاث: لمزاحمة العلماء بالركب في حلق الذكر، ولمجالسة أقوام ينتقون لي أطيب الكلام، كما ينتقى أطيب التمر، وأن أعفر وجهي ساجداً لك في التراب.

وفي رواية ذكرها الحافظ محمد بن عبدالله بن أحمد بن زبر الربعي[1] من طريق القاسم بن أبي بزّة المكي وهو ثقة قال: لما حضرت معاذاً الوفاة، ركبه الناس، فقال: أيها النَّاس، لا تركبوني، واسمعوا مني، فإنكم لو تعلمون قدر رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لاتكلتم، ولو تعلمون قدر عذابه لرأيتم أنَّه لن ينفعكم معه شيء، وما من أحد يؤمن بثلاث قبل الموت إلاَّ دخل الجنة: يؤمن بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويعلم أنَّه الحق من نفسه، ويؤمن بالبعث، ويؤمن بما جاءت به الرسل، وما من أحد يصلي أربع ركعات تطوعاً بعد صلاة مكتوبة فتكتب عليه خطيئة حتى تغرب الشمس.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) وصايا العلماء عند حضور الموت: ٤٦.



٣ ـ عمر بن الخطاب
(ت ٢٣هـ)

ينصح شاباً ويعلمه وهو في غمرات الموت

«أمير المؤمنين، أبو حفص العدوي، الفاروق، وزير رسول الله ﷺ، ومَن أيَّد الله به الإسلام، وفتح به الأمصار، وهو الصادق المحدَّث الملهم الذي جاء عن المصطفى ﷺ أنَّه قال: «**لو كان بعدي نبيّ لكان عمر، الذي فرَّ منه الشيطان، وأعلى به الإيمان، وأعلن الأذان**»[١].

سيرته طويلة، وأحسن مَن كتب في سيرته رضي الله عنه الإمام الذهبي في كتابه: «**نعم السمر في سيرة عمر**».

ولنذكر هنا بعض فضائل هذا الإمام ثم نأتي بما يتعلق بالموضوع وهو حرصه رضي الله عنه أن يعلم الناس ويفيدهم حتى وهو في ساعة الاحتضار.

ـ قال أبو عمر بن عبدالبر[٢]: «كان إسلامه عزّاً ظهر به الإسلام، بدعوة النبيّ ﷺ، وهاجر، فهو من المهاجرين الأولين، وشهد بدراً، وبيعة الرضوان، وكل مشهد شهده رسول الله ﷺ وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض، وولي الخلافة بعد أبي بكر بويع له بها يوم مات أبو بكر باستخلافه

(١) تذكرة الحفاظ: ٥/١.
(٢) الاستيعاب: ١١٤٥/٣.

ـه سنة ثلاث عشرة، فسار بأحسن سيرة، وأنزل نفسه من مال الله بمنزلة رجلٍ من النَّاس، وفتح الله له الفتوح بالشام والعراق ومصر، ودوَّن الدواوين في العطاء، ورتَّب النَّاس فيه على سوابقهم، وكان لا يخاف في الله لومة لائم، وهو الذي نوَّر شهر الصوم بصلاة الإشفاع فيه، وأرَّخ التاريخ من الهجرة الذي بأيدي النَّاس إلى اليوم، وهو أول مَن سُمي بأمير المؤمنين، وهو أول مَن اتخذ الدِّرة، وكان نقش خاتمه: «**كفى بالموت واعظاً يا عمر**». وكان آدم، شديد الأدمة، طُوالاً، كثَّ اللحية، أصلع أعسر يسر، يخضب بالحناء والكتم، وقال أنس: كان أبو بكر يخضب بالحناء بحْتاً، قال أبو عمر: الأكثر أنهما كانا يخضبان... هكذا وصفه زِر بن حبيش وغيره بأنَّه كان آدم شديد الأدمة، وهو الأكثر عند أهل العلم بأيام النَّاس وسيرهم وأخبارهم، ووصفه أبو رجاء العطاردي: كان عمر بن الخطاب طويلاً جسيماً أصلع شديد الصَّلع، أبيض شديد حمرة العينين، في عارضيه خِفة، سبلته(١) كثيرة الشعر في أطرافها صهوبة(٢).

وأصح ما في هذا الباب، والله أعلم، حديث سفيان الثوري عن عاصم بن بهدلة عن زِر بن حبيش قال: رأيت عمر بن الخطاب رجلاً آدم ضخماً كأنَّه من رجال سَدُوس في رجليه رَوَح(٣).

ومناقبه وفضائله كثيرة جداً، مشهورة مدونة في كتب العلماء من طلبها وجدها ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

❑ من هذه المناقب:

- قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه**».
- ونزل القرآن بموافقته في أسرى بدر، وفي الحجاب، وفي تحريم الخمر، وفي مقام إبراهيم.

---

(١) السَّبَلة: الدائرة في وسط الشفة العليا، وهو مجتمع الشاربين.
(٢) الصهوبة: الحمرة أو الشقرة في الشعر.
(٣) الـرَّوَح: تباعد صدر القدمين وتداني العقبين.

- عن ابـن عمر، قال رسول الله ﷺ: «**بينا أنا نائم أتيت بقدح لَبنٍ فشربت منه حتى رأيت الرِيَّ يخرج من أظفاري، ثم أعطيت فَضْلي عمر**»، قالوا: فما أَوَّلت ذلك يا رسول الله؟ قال: «**العلم**»[١].

- وعن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «**رأيتني في المنام والنَّاس يعرضون عليَّ عليهم قُمص منها إلى كذا ومنها إلى كذا، ومرَّ عليَّ عمر بـن الخطاب يَجرُ قميصه**»، فقيل: يا رسول الله، ما أَوَّلت ذلك؟ قال: «**الدين**»[٢].

قال علي بـن أبي طالب: خير النَّاس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر.

وقال أيضاً: ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر.

وقال عبدالله بـن مسعود: لو وُضع علم أحياء العرب في كفة ميزان، ووضع علم عمر في كِفّة لرجح علم عمر، ولقد كانوا يرون أنَّه ذهب بتسعة أعشار العلم، ولمجلس كنت أجلسه مع عمر أوثق في نفسي من عمل سنة.

وفي صباح السبت، قام يصلي الفجر، ولما قرأ في الركعة الأولى من سورة يوسف، وركع، فتقدم له أبو لؤلؤة المجوسي، حيث أتى بخنجر، سمَّه شهراً كاملاً حتى أصبح أزرق من السم، فطعن أمير المؤمنين في ظهره ثلاث طعنات، فوقع صريعاً على الأرض يقول: (حسبي الله لا إله إلاَّ هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) فحمل على أكتاف الرجال، فكان يفتح عينه، وهي تمتلئ بالدموع ويقول: هل أكملت الصلاة؟ قالوا: لا، قال: الله المستعان، وأوصلوه إلى بيته، ووضع على الأرض، ووضعوا مخدة تحت رأسه، فقال: انزعوا المخدة من تحت رأسي، لعلَّ الله يرحمني، ثم قال له ابـن عباس: طوبى لك يا أمير المؤمنين أسلمت، فكان

---

(١) رواه البخاري في كتاب: «فضائل أصحاب النبيّ ﷺ» باب مناقب عمر: (٣٦٨١)، ومسلم في كتاب: «فضائل الصحابة» باب من فضائل عمر: ١٨٥٩/٤ ـ ١٨٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: «فضائل أصحاب النبيّ ﷺ» باب مناقب عمر: (٣٦٩١).

إسلامك نصراً، وهاجرت، فكانت هجرتك فتحاً، وتوليت فكانت ولايتك رحمة، أسأل الله أن يحشرك مع صاحبك، قال: يا ليتني نجوت كفافاً، لا لي ولا علي.

روى البخاري في صحيحه في كتاب: «المناقب» - باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان -:

عن عمرو بن ميمون: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، وعرفوا أنَّه ميت قال: «فدخلنا عليه، وجاء النَّاس يثنون عليه، وجاء شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك... فلما أدبر الشاب إذا إزاره يَمَسُّ الأرض. قال عمر: رُدُّوا علي الغلام. قال: يا ابن أخي، ارفع ثوبك، فإنَّه أنقى لثوبك، وأتقى لربك».

علَّق على ذلك العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة - رحمه الله تعالى -[1]، فقال: **«فانظر رعاك الله إلى عمر رضي الله عنه، وهو في النَّزع يجود بنفسه؛ لم يمنعه ما كان في غمرات الموت والآلام أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وينصح ذلك الشاب بالأنقى والأتقى، رضي الله عن عمر، ورزقنا الاقتداء بسيرته»**.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) تعليق (٢) على كتاب: «رسالة المسترشدين» للحارث المحاسبي، ص: ١٦٥.



٤ ـ أبو الدرداء

(ت ٣٢هـ)

يُرَدِّدُ آية قرآنية ثم يغمى عليه ثم يفيق فيقولها حتى قبض

الإمام القدوة، قاضي دمشق، وصاحب رسول الله ﷺ، أبو الدرداء عويمر بن عامر الأنصاري الخزرجي، حكيم هذه الأمة، وسيِّد القراء بدمشق.

أسلم أبو الدرداء يوم بدر، ثم شهد أُحداً، وأمره رسول الله ﷺ يومئذٍ أن يَرُدَّ مَن على الجبل، فردهم وحده، وكان قد تأخر إسلامه قليلاً.

قال شريح بن عبيد الحمصي: لما هزم أصحاب رسول الله يومَ أُحد، كان أبو الدرداء يومئذٍ فيمن فاء إلى رسول الله في النَّاس، فلما أظلَّهم المشركون من فوقهم، قال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ، ليس لهم أن يعلونا**» فثاب إليه ناس، وانتدبوا، وفيهم عويمر أبو الدرداء، حتى أدحضوهم عن مكانهم، وكان أبو الدرداء يومئذٍ حسن البلاء، فقال رسول الله ﷺ: «**نِعم الفارس عويمر**»[1].

قال أبو الدرداء: كنت تاجراً قبل المبعث، فلما جاء إلى الإسلام

(١) حديث مرسل، فإنَّ شريح بن عبيد لم يدرك أبا الدرداء. أخرجه ابن عساكر في (تاريخ دمشق): ١٣/٣٧٠/١.

جمعت التجارة والعبادة، فلم يجتمعا، فتركت التجارة، ولزمت العبادة[١].

وكان أبو الدرداء من آخر الأنصار إسلاماً، وكان يعبد صنماً، فدخل ابن رواحة، ومحمد بن مسلمة بيتَه، فكسرا صنمه، فرجع فجعل يجمع الصنم، ويقول: ويحك! هلاً امتنعت! ألا دفعت عن نفسك، فقالت أم الدرداء: لو كان ينفع أو يدفع عن أحد، دفع عن نفسه، ونفعها!

فقال أبو الدرداء: أعدّي لي ماءً في المغتسل، فاغتسل، ولَبِس حُلَّتَه، ثم ذهب إلى النبيّ ﷺ، فنظر إليه ابن رواحة مُقبلاً، فقال: يا رسول الله، هذا أبو الدرداء، وما أراه إلاَّ جاء في طلبنا؟ فقال: «**إنَّما جاء لِيُسلم، إنَّ ربي وعدني بأبي الدرداء أنْ يُسلم**»[٢].

قال ابن إسحاق: كان الصحابة يقولون: أتبعُنا للعلم والعمل أبو الدرداء[٣].

وكان أبو الدرداء يقول للصحابة: سلُوني، فوالله لئن فقدتموني لتفقدُنَّ رجلاً عظيماً من أمة محمد ﷺ.

وقال أبو ذرّ لأبي الدرداء: ما حملت ورقاءُ، ولا أظلَّت خضراءُ، أعلمَ منك يا أبا الدرداء.

وقال مسروق: وجدت علم الصحابة انتهى إلى ستة: عمر، وعلي،

---

(١) علّق الذهبي على قوله، فقال: «الأفضل جمع الأمرين مع الجهاد، وهذا الذي قاله هو طريق جماعة من السلف الصوفية، ولا ريب أنَّ أمزجة النَّاس تختلف في ذلك، فبعضهم يقوى على الجمع؛ كالصديق وعبدالرحمٰن بن عوف، وكما كان ابن المبارك.

وبعضهم يعجز ويقتصر على العبادة.

وبعضهم يقوى في بدايته ثم يعجز وبالعكس، وكل سائغ، ولكن لا بدَّ من النهضة بحقوق الزوجة والعيال» (سير أعلام النبلاء): **٢/٣٣٦**.

(٢) أخرجه ابن عساكر في (تاريخ دمشق): **١٣/٣٦٩**.

(٣) المصدر نفسه: **١٣/٣٦٩**.

وأُبيِّ، وزيد، وأبي الدرداء، وابن مسعود، ثم انتهى علمُهم إلى علي، وعبدالله[١].

وكان ابن عمر يقول: حدثونا عن العاقِلَيْن، فيقال: مَن العاقلان؟ فيقول: معاذ، وأبو الدرداء[٢].

قال القاسم بن عبدالرحمٰن: كان أبو الدرداء من الذين أوتو العلم[٣].

وعن يزيد بن معاوية قال: إنَّ أبا الدرداء من العلماء الفقهاء الذين يشفون من الداء[٤].

وكان أبو الدرداء إذا دخل مسجد النبيّ ﷺ يكون معه من الأتباع مثل السلطان؛ فمن سائل عن فريضة، ومن سائل عن حساب، وسائل عن حديث، وسائل عن معضلة، وسائل عن شعر.

عن أم الدرداء قالت: كان أبو الدرداء لا يحدث بحديث إلاَّ تبسَّم، فقلت: إني أخاف أن يُحمِّقَك النَّاس، فقال: كان رسول الله ﷺ لا يحدث بحديث إلاَّ تبسَّم.

وكان يخاطب أهل دمشق فيقول: ما لي أرى علماءكم يذهبون، وجُهَّالكم لا يتعلمون! تعلَّموا، فإنَّ العالِم والمتعلم شريكان في الأجر.

وقال أيضاً: لن تكون عالِماً حتى تكون متعلماً، ولا تكون مُتعلماً حتى تكون بما علمت عاملاً، إنَّ أخوفَ ما أخافُ إذا وُقفت للحساب أن يقال لي: ما عملت فيما علمت[٥].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣٥١/٢.
(٢) تاريخ دمشق: ٣٨٤/١٣.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٣٤٦/٢.
(٤) تارخ دمشق: ٢٧٣/١٣.
(٥) سير أعلام النبلاء: ٣٤٧/٢.

قالت أم الدرداء: أُغمي على أبي الدرداء وبلال ابنه عنده فقال: اخرج عني، ثم قال: من يعمل لمثل مضجعي هذا؟ مَن يعمل لمثل ساعتي هذه؟ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

ثم يُغمى عليه، ثم يفيق فيقولها، حتى قُبِضَ(١).

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) كتاب: «المحتضرين»: ١١٠، حلية الأولياء: ٢١٧/١، صفة الصفوة: ٦٤٢/١.



٥ ـ عبدالله بن مسعود
(ت ٣٢هـ)

يُعلم ولده وهو يحتضر خمس خصال

الإمام الحبرُ، فقيه الأمة، أبو عبدالرحمٰن الهذلي المكي المهاجري البدري، حليف بني زهرة.

كان من السابقين الأولين، ومن النجباء العالمين، شهِد بدراً، وهاجر الهجرتين، وكان يوم اليرموك على النفل، ومناقبه غزيرة، روى علماً كثيراً[١]، وكان معدوداً من أذكياء العلماء.

قال عبدالله بن مسعود: إنَّ أول شيء علمته من أمر رسول الله ﷺ؛ قدمت مكة مع عمومة لي أو أناس من قومي، نبتاع منها شيئاً، وكان في بغيتنا شراء عطر، فأرشدونا على العباس، فانتهينا إليه، وهو جالس إلى زمزم، فجلسنا إليه، فبينا نحن عنده، إذ أقبل رجل من باب الصفا، أبيض، تعلوه حمرة، له وفرة جعدة، إلى أنصاف أذنيه، أشمُّ أقنى، أذلف، أدعج العينين، برَّاق الثنايا، دقيقُ المسْرُبة، ششن الكفين والقدمين، كثُّ اللحية، عليه ثوبان أبيضان، كأنَّه القمر ليلة البدر، يمشي على يمينه غلام حسنُ الوجه، مراهق أو محتلم، تقفوهم امرأة قد سترت محاسنها، حتى قصد نحو الحجر، فاستلم، ثم استلم الغلام، واستلمت المرأة، ثم

(١) سير أعلام النبلاء: ٤٦١/١.

طاف بالبيت سبعاً، وهما يطوفان معه، ثم استقبل الركن، فرفع يده وكبَّر، وقام ثم ركع، ثم سجد ثم قام، فرأينا شيئاً أنكرناه، لم نكن نعرفه بمكة، فأقبلنا على العباس، فقلنا: يا أبا الفضل، إنَّ هذا الدين حدث فيكم، أو أمر لم نكن نعرفه؟ قال: أجل والله ما تعرفون هذا، هذا ابن أخي محمد بن عبدالله، والغلام علي بن أبي طالب، والمرأة خديجة بنت خويلد امرأته، أما والله ما على وجه الأرض أحد نعلمه يعبد الله بهذا الدين إلاَّ هؤلاء الثلاثة[١].

وعن ابن مسعود قال: كنت أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط، فمرَّ بي رسول الله ﷺ وأبو بكر، فقال: «**يا غلام، هل من لبن؟**»، قلت: نعم، ولكني مؤتمن، قال: «**فهل من شاة لم ينزُ عليها الفحل؟**»، فأتيته بشاة، فمسح ضِرعها، فنزل لبن، فحلب في إناء، فشرب، وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: «**اقلُص**»، فقلص.

زاد أحمد قال: ثم أتيته بعد هذا، ثم اتفقا ـ فقلت: يا رسول الله، علمني من هذا القول، فمسح رأسي، وقال: «**يرحمك الله، إنَّك غُلَيِّم معلَّم**»[٢].

ورواه أبو عوانة عن عاصم بن بهدلة وفيه زيادة منها: فلقد أخذت من فيه ﷺ سبعين سورة ما نازعني فيها بشر.

عن أبي موسى الأشعري قال: قدمت أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حيناً، وما نحسب ابنَ مسعود وأمَّه إلاَّ من أهل بيت النبيِّ ﷺ لكثرة دخولهم وخروجهم عليه.

وكان ابن مسعود صاحب سِواد رسول الله ـ يعني: سرَّه ـ ووساده ـ يعني: فراشه ـ وسواكه، ونعليه، وطهوره، وهذا يكون في السفر.

وكان عبدالله يُلبس رسول الله ﷺ نعليه، ثم يمشي أمامه بالعصا، حتى

(١) شمائل الرسول لابن كثير: ٢٠.

(٢) أخرجه أحمد: ٣٧٩/١، والفسوي في (المعرفة والتاريخ): ٥٣٧/٢.

إذا أتى مجلسه، نزع نعليه، فأدخلهما في ذراعه، وأعطاه العصا، وكان يدخل الحجرة أمامه بالعصا.

قال ابن مسعود: ما نزلت آية من كتاب الله إلاّ وأنا أعلم أين نزلت، وفيما نزلت، الحديث.

مرَّ رسول الله ﷺ بابن مسعود وهو يقرأ حرفاً حرفاً. فقال: «**مَن سرَّه أن يقرأ القرآن غضّاً كما أنزل فليسمعه من ابن مسعود**»[(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «**لو كنت مؤمراً أحداً عن غير مشورة لأمَّرت عليهم، ابنَ أم عبد**».

وأمر رسول الله ﷺ ابن مسعود، فصعد شجرة يأتيه منها بشيء، فنظر أصحابه إلى ساق عبدالله، فضحكوا من حُمُوشَةِ ساقيه، فقال رسول الله ﷺ: «**ما تضحكون؟ لرِجْلُ عبدالله أثقل في الميزان يوم القيامة من أحد**».

وعن عبدالله قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ عليَّ القرآن**»، قلت: يا رسول الله، أقرأ عليكَ وعليك أُنزل؟ قال: «**إني أشتهي أن أسمعه من غيري**»، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] فغمزني برجله، فإذا عيناه تذرفان[(٢)].

عن عبدالرحمٰن بن يزيد قلنا لحذيفة: أخبرنا برجل قريب السمت والدَّلِّ برسول الله ﷺ حتى نلزمه، قال: ما أعلم أحداً أقرب سمتاً ولا هدياً ولا دلاً من رسول الله ﷺ، حتى يُواريه جدار بيته من ابن أم عبد، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد أنَّ ابن أم عبد من أقربهم إلى الله زُلفة[(٣)].

---

(١) ذكره الهيثمي في (مجمع الزوائد): ٢٨٨/٩، وقال: رواه أحمد والبزار وأبو يعلى، وفيه جرير بن أيوب البجلي وهو متروك.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب مَن أحب أن يستمع القرآن من غيره: (٤٠٤٩).

(٣) أخرجه البخاري في الفضائل باب مناقب عبدالله بن مسعود: (٣٧٦٢).

عن زيد بن وهب قال: إني لجالس مع عمر بن الخطاب، إذ جاء ابن مسعود، فكاد الجلوس يوارونه من قصره، فضحك عمر حين رآه، فجعل عمر يكلمه، ويتهلل وجهه، ويضاحكه، وهو قائم عليه، ثم ولّى فأتبعه عمرُ بصرَه حتى توارى، فقال: كُنَيْفُ مُلىء عِلماً[١].

○ **وعند احتضاره قال لولده عبدالرحمٰن:**

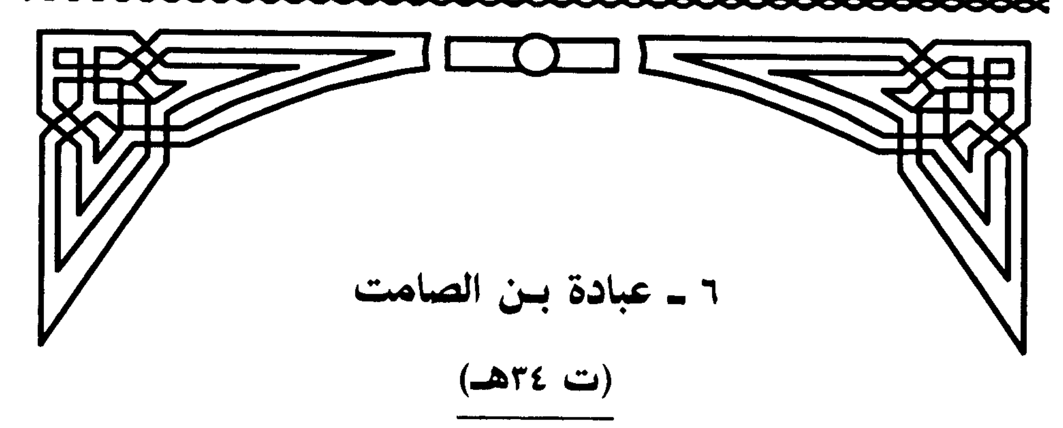
ـ إذا أنت صلَّيت فصلِّ صلاة مودع، واترك طلب كثير من الحاجات، فإنَّه فقر حاضر، واجمع اليأس مما في أيدي النَّاس فإنَّه هو الغنى، وإنظر ما يعتذر منه من القول والفعل فاجتنبه[٢].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) طبقات ابن سعد: ٣/١١٠، كُنيف تصغير كنف وهو: الوعاء، وهو تصغير تعظيم.

(٢) وقد ثبت في المرفوع من حديث عمر، أتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، حدثني حديثاً واجعله موجزاً، فقال له النبيّ ﷺ: **«صلِّ صلاة مودع، كأنَّك تراه؛ فإن كنت لا تراه فإنَّه يراك، وايأس مما في أيدي الناس تعش غنياً، وإياك وما يعتذر منه»**.

رواه الطبراني وغيره وهو حسن بشواهده. وانظر: (مجمع الزوائد): ١٠/٢٢٩.



٦ ـ عبادة بن الصامت

(ت ٣٤هـ)

يذاكر بحديث وهو يجود بنفسه

الإمام القدوة، أبو الوليد الأنصاري، أحد النقباء ليلة العقبة، ومن أعيان البدريين[١]، وشهِد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان من سادات الصحابة.

قال عبادة بن الصامت: إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ، وقال: بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل النفس التي حرم الله إلاَّ بالحق، ولا ننتهب، ولا نعصي، بالجنة إن فعلنا ذلك، فإن غَشَيْنا من ذلك شيئاً كان قضاؤه إلى الله عزَّ وجلَّ.

قال البخاري في (التاريخ الصغير) بسنده إل محمد بن كعب القُرضيّ قال: جمع القرآن في زمن النبيّ ﷺ خمسة من الأنصار؛ معاذ بن جبل، وعُبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو أيوب، وأبو الدرداء، فلما كان عمر كتب يزيد بن أبي سفيان: إنَّ أهل الشام كثير، وقد احتاجوا إلى مَن يعلمهم القرآن ويفقههم، فقال: أعينوني بثلاثة، فقالوا: هذا شيخ كبير، لأبي أيوب، وهذا سقيم لأُبي، فخرج معاذ وعبادة وأبو الدرداء، فقال:

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/٥.

ابدؤوا بحمص، فإذا رضيتم منهم فليخرج واحد إلى دمشق، وآخر إلى فلسطين، فأقام بها عبادة، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين، ومات معاذ عام طاعون عمواس، وصار عبادة بعد إلى فلسطين، فمات بها، ولم يزل أبو الدرداء بدمشق حتى مات.

عن أبي قلابة قال: حدثني الصُّنابحي: أنَّ عبادة بن الصامت حدثه، قال: خلوت برسول الله ﷺ، فقلت: أي أصحابك أحبُّ إليك حتى أحبه؟ قال: «**اكتم عليَّ حياتي؛ أبو بكر الصديق، ثم عمر، ثم علي**» ثم سكت، فقلت: ثم مَن يا رسول الله؟: «**ومَن عسى أن يكون إلاَّ الزبير، وطلحة، وسعد، وأبو عبيدة، ومعاذ، وأبو طلحة، وأبو أيوب، وأنت يا عبادة، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء، وابن مسعود، وابن عوف، وابن عفان، ثم هؤلاء الرهط من الموالي: سلمان، وصهيب، وبلال، وعمَّار**»[1].

عن عبادة بن الوليد قال: كان عبادة بن الصامت مع معاوية فأذن يوماً، فقام خطيب يمدح معاوية، ويثني عليه، فقام عبادة بتراب في يده، فحشاه في فم الخطيب، فغضب معاوية، فقال له عبادة: إنَّك لم تكن معنا حين بايعنا رسول الله ﷺ بالعقبة، على السمع والطاعة في مَنْشطِنَا ومكْرهِنا ومَكْسَلِنا، وأَثَرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم بالحق حيث كان، لا نخاف في الله لومةَ لائم، وقال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتم المداحين، فاحثوا في أفواههم التراب**».

روى إسماعيل بن عبيد بن رفاعة، عن أبيه أنَّ عبادة بن الصامت مرت عليه قِطارة[2] وهو بالشام، تحمل الخمر، فقال: ما هذه؟ أزيت؟ قيل: لا، بل خمر يباع لفلان، فأخذ شفرة من السوق، فقام إليها، فلم يذر فيها راوية إلاَّ بَقَرها ـ وأبو هريرة إذ ذاك بالشام ـ فأرسل فلان إلى

---

(١) إسناده ضعيف، لضعف موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، ضعفه ابن معين، وأبو داود، وأبو زرعة، وأبو حاتم، والدارقطني.

(٢) القطارة: أن تشد الإبل على نسق واحد خلف واحد.

أبي هريرة، فقال: ألا تمسك عنا أخاك عبادة. أمَّا بالغدوات، فيغدو إلى السوق يفسد على أهل الذمة متاجرهم، وأمَّا بالعشي، فيقعد في المسجد ليس له عمل إلاَّ شتم أعراضنا وعيبنا!

قال: فأتاه أبو هريرة، فقال: يا عبادة، ما لك ولمعاوية؟ ذره وما حُمِّل، فقال: لم تكن معنا إذ بايعنا على السمع والطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن لا يأخذنا في الله لومة لائم، فسكت أبو هريرة، وكتب فلان إلى عثمان: إنَّ عبادة قد أفسد عليَّ الشام. وكان عبادة رجلاً طُوالاً جسيماً جميلاً.

ولـمَّا حضرت عبادة الوفاة قال: أخرجوا فراشي إلى الصحن، يعني: الدار، ثم قال: اجمعوا لي موالي وخدمي وجيراني، ومَن كان يدخل عليَّ، فجمعوا له، فقال: إنَّ يومي هذا لا أراه إلاَّ آخر يوم يأتي علي من الدنيا، وأول ليلة من الآخرة، وإني لا أدري لعله قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيء، والذي نفس عبادة بيده: القصاص يوم القيامة، فأحرّج على أحد منكم في نفسه شيء من ذلك إلاَّ اقتص قبل أن تخرج نفسي، قال: فقالوا: بل كنت والداً، وكنت مؤدباً، قال: وما قال لخادم سوءاً قط. فقال: أغفرتم لي ما كان من ذلك؟ قالوا: نعم، قال: اللَّهُمَّ اشهد، ثم قال: أمَّا لا فاحفظوا وصيتي أحرّج على إنسان منكم يبكي عليّ، فإذا خرجت نفسي فتوضؤوا وأحسنوا الوضوء، ثم ليدخل كل إنسان منكم مسجداً فيصلي ثم يستغفر لعبادة ولنفسه، فإنَّ الله تبارك وتعالى قال: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ ثم أسرعوا بي إلى حفرتي...

وهو في غمرات الموت يُذاكر ولده، فقال: يا بني، اتق الله، واعلم أنك لن تتقي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولن تبلغ العلم حتى تعبد الله عزَّ وجلَّ وحده، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

قلت: يا أبة! كيف لي أن أؤمن بالقدر خيره وشره؟

قال: تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن

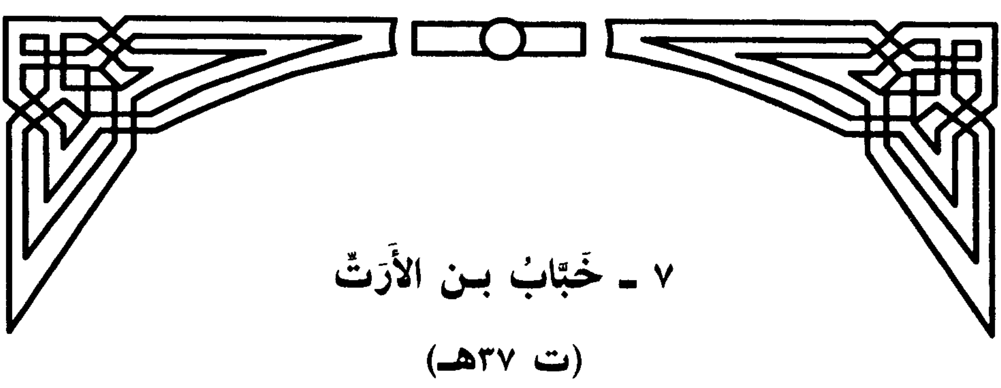
ليصيبك، فإن مِتَّ على غير هذا دخلت النار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ أول ما خلق الله القلم، فقال عزَّ وجلَّ له: اكتب! فقال: ما أكتب؟ فقال عزَّ وجلَّ: القدر، فجرى تلك الساعة بما كان وما هو كائن إلى الأبد**»[١] ثم فاضت روحه ـ رحمه الله تعالى ـ.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) رواه أحمد في المسند: ٣١٧/٥، وأبو داود في سننه رقم: (٤٧٠٠) في كتاب السنّة باب في القدر، والترمذي في القدر باب: (١٧) رقم: (٢١٥٦) و(٣٣١٦)، ورواه البيهقي في (الأسماء والصفات) ص: ٢٧١ من حديث عبدالله بن عباس، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده.

وفي الحديث دليل على أن القلم أول مخلوق، وفيه رد على مَن يقول: إنَّ النور المحمدي هو أول مخلوق ـ (نقلاً عن الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط ـ في تعليقه على كتاب: «وصايا العلماء عند حضور الموت» ص: ٥٠.





٧ ـ خَبَّابُ بن الأَرَتِّ

(ت ٣٧هـ)

يروي حديثاً عن رسول الله ﷺ وهو في غمرات الموت

من نجباء السابقين، شهد بدراً، والمشاهد[١]، أصابه سباء، فبيع بمكة واشترته أم أنمار، وأسلم خباب قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، وقيل: كان سادس ستة الإسلام.

كان خباب من المهاجرين الأولين، وكان ممن يعذب في الله عزَّ وجلَّ روى مسروق عن خباب قال: كنت قيناً بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث، فقال: إذا بعثت كان لي مال فسوف أقضيك، فقلت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ [مريم: ٧٧][٢].

وقال عمر لخباب: ادنه، فما أحدٌ أحقَّ بهذا المجلس منك إلاَّ عمَّار، قال: فجعل يريه بظهره شيئاً، يعني: من آثار تعذيب قريش له[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/٣٢٣.

(٢) أخرجه البخاري: ٨/٣٢٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة: (١٥٣)، وإسناده صحيح كما قال البوصيري في (الزوائد): ١٢.

قال خباب رحمه الله وهو في غمرات الموت ووداع الحياة:

إنَّ أصحابنا الذين مضوا لم تنقصهم الدنيا شيئاً، وإنَّا أعطينا بعدهم ما لا نجد له موضعاً إلاَّ التراب. وشكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد برداء له في ظل الكعبة، فقلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر الله لنا؟ فجلس محمراً وجهه فقال: والله لقد كان من قبلكم يؤخذ فتجعل المناشير على رأسه فيفرق فرقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب ما بين صنعاء وحضرموت لا يخاف إلاَّ الله تبارك وتعالى، والذئب على غنمه[1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) أخرجه البخاري في كتاب: «المناقب»، باب علامات النبوة في الإسلام: (٣٦١٢)، وأبو داود في كتاب: «الجهاد» باب في الأسير يكره على الكفر: (٢٦٤٩).



٨ ـ أبو أيوب الأنصاري

(ت ٥٢هـ)

يخبر أصحابه وهو يودع الحياة بحديث سمعه من رسول الله ﷺ

اسمه: خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد عمرو بن عوف بن غنم بن مالك بن النجار بن ثعلبة بن الخزرج.

«السيد الكبير، الذي خصه النبيّ ﷺ بالنزول عليه في بني النَّجار إلى أن بُنيت له حجرة أم المؤمنين سودة، وبنى المسجد الشريف»[١].

عن ابن عمر قال: قال أهل المدينة لرسول الله ﷺ: أدخل المدينة راشداً مهدياً، فدخلها، وخرج النَّاس ينظرون إليه، كلما مرَّ على قوم، قالوا: يا رسول الله، هاهنا، فقال: «دعوها، فإنها مأمورة ـ يعني: الناقة ـ حتى بركت على باب أبي أيوب».

وعن أبي رُهم: أنَّ أبا أيوب حدثه: أنَّ رسول الله ﷺ نزل في بيتنا الأسفل، وكنت في الغرفة، فأهريق ماء في الغرفة، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا نتتبع الماء، ونزلت فقلت: يا رسول الله، لا ينبغي أن نكون فوقك، انتقل إلى الغرفة، فأمر بمتاعه فنُقل ـ ومتاعه قليل ـ قلت: يا رسول الله، كنت ترسل بالطعام، فانظر، فإذا رأيت أثر أصابعك، وضعت فيه يدي.

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/٤٠٢.

وعن أبي هريرة قال: لما دخل رسول الله ﷺ بصفية، بات أبو أيوب على باب النبيّ ﷺ، فلما أصبح، فرأى رسول الله، كبَّر، ومع أبي أيوب السيف، فقال: يا رسول الله، كانت جاريةً حديثة عهد بعُرْس، وكنتَ قتلتَ أباها وأخاها وزوجها، فلم آمَنْها عليك فضحك النبيّ ﷺ، وقال له خيراً.

روى الأعمش عن أبي ظبيان، قال: أغزى أبو أيوب، فمرض، فقال: إذا متُّ فاحملوني، فإذا صافقتم العدو، فارموني تحت أقدامكم، أما إني سأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «**مَن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة**»[1].

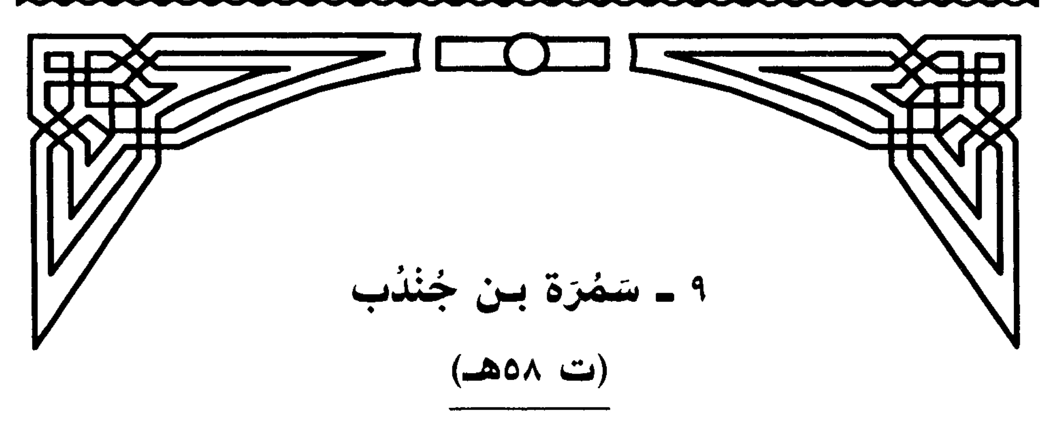
وفي رواية جرير، عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه قال: أتيت مصر، فرأيت النَّاس قد قفلوا من غزوهم، فأخبروني أنهم لما كانوا عند انقضاء مغزاهم حيث يراهم العدو، حضر أبا أيوب الموت، فدعا الصحابة والناس، فقال: إذا قبضتُ، فلتركب الخيل، ثم سيروا حتى تلقوا العدو، فيردوكم، فاحفروا لي، وادفنوني، ثم سوُّوه! فلتطأ الخيل والرجال عليه حتى لا يعرف، فإذا رجعتم فأخبروا النَّاس أنَّ رسول الله ﷺ أخبرني: أنَّه «**لا يدخل النار أحد يقول: لا إله إلاَّ الله**»[2].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) أخرجه أحمد: ٤١٩/٥، والطبراني: (٤٠٤١)، وقال عنه الذهبي: إسناده قوي.

(٢) تهذيب تاريخ دمشق: ٤٥/٥، إسناده ضعيف.



٩ ـ سَمُرَة بن جُنْدُب

(ت ٥٨هـ)

يحدث عُوَّادَهُ وهو يجود بنفسه بما كان يأمر النبيّ ﷺ أصحابه بالمحافظة على الصلاة

❑ من علماء الصحابة:

قدمت به أمه بعد موت أبيه فتزوجها رجل من الأنصار، وكان رسول الله ﷺ يعرض غلمان الأنصار، فمرَّ به غلام فأجازه في البعث، وعرض عليه سمرة بن جندب فردَّه.

فقال له سمرة: لقد أجزت هذا ورددتني، ولو صارعته لصرعته.

قال: فدونكه.

فصارعه فصرعه سمرة، فأجازه رسول الله ﷺ.

وقال سمرة: كنت غلاماً على عهد رسول الله ﷺ، فكنت أحفظ عنه، فما يمنعني من القول إلاَّ أنَّ هاهنا رجالاً هم أسن مني، وكان الحسن البصري ومحمد بن سيرين وفضلاء البصرة يثنون عليه.

قال ابن سيرين: كان سمرة عظيم الأمانة، صدوقاً.

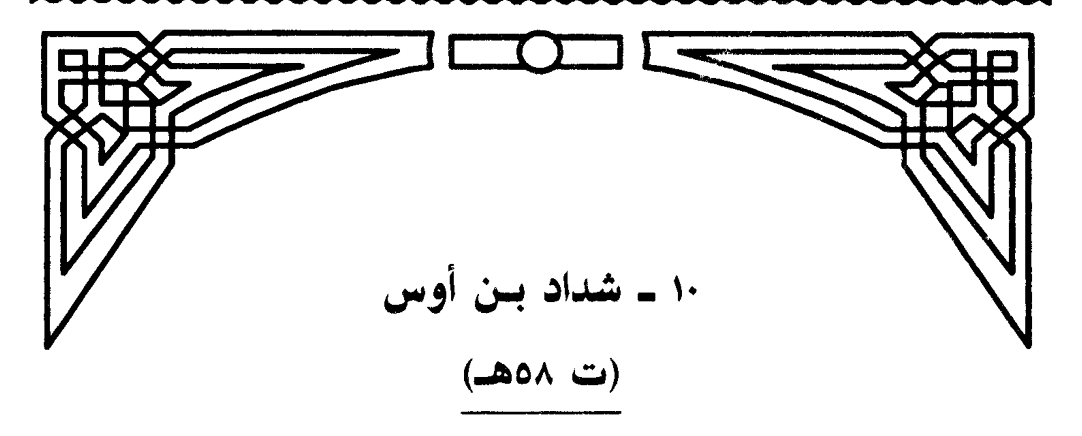
ولما حضرته الوفاة قال لأصحابه وهو في سياق الموت:

«إنَّ رسول الله ﷺ كان يأمرنا أن يصلي أحدنا كل ليلة بعد الصلاة المكتوبة ما قلَّ أو كثُر من الصلاة، ونجعلها وِتراً، وكان يأمر أن نُصلي أيَّ ساعة شئنا من الليل والنهار، غير أنَّه أمرنا أن نجتنب طلوع الشمس وغروبها وقال: «**إنَّ الشيطان يغيب معها حين تغيب، ويطلُع معها حين تطلع**»، وأمرنا أن نحافظ على الصلوات كلهنَّ، وأوصانا بالصلاة الوسطى، ونبأنا أنَّها صلاة العصر[١].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) وصايا العلماء عند حضور الموت: ٨٨، ٨٩.



١٠ ـ شداد بن أوس

(ت ٥٨هـ)

يخبر أصحابه ما سمعه من رسول الله ﷺ في الشهوة الخفية والشرك ــ والموت يُنازعه

هو ابن أخي حسان بن ثابت، شاعر رسول الله ﷺ.

من فضلاء الصحابة، وعلمائهم[1].

قال سفيان بن عيينة، قال أبو الدرداء: إنَّ شدَّاد بن أوس أوتي علماً وحِلماً.

وقال سعيد بن عبدالعزيز: فضَلَ شدَّاد بن أوس الأنصار بخصلتين: ببيان إذا نطق، وبكظم إذا غضب.

روى علي بن المديني قال: حدثنا عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن رجل عن مطرف بن الشِّخير عن رجل ـ أحسبه من بني مُجاشع ـ قال: انطلقنا نؤُمُّ البيت، فإذا نحن بأخبية بينها فسطاط، فقلت لصاحبي: عليك بصاحب الفسطاط، فإنَّه سيد القوم، فلما انتهينا إلى باب الفسطاط، سلَّمنا فردَّ السلام، ثم خرج إلينا شيخ، فلما رأيناه، هِبناه مهابة لم نَهَبْها والداً قط ولا سلطاناً. فقال: من أنتما؟ قلنا: فتية نؤم البيت، قال: وأنا قد حدثتني

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/٤٦٠.

نفسي بذلك، وسأصاحبكم، ثم نادى، فخرج إليه من تلك الأخبية شباب! فجمعهم، ثم خطبهم، وقال: إني ذكرتُ بيت ربي، ولا أراني إلاَّ زائره، فجعلوا ينتحبون عليه بكاءً، فالتفتُّ إلى شاب منهم. فقلت: مَن هذا الشيخ؟ قال: شداد بن أوس، كان أميراً، فلما أن قُتل عثمان، اعتزلهم.

قال: ثم دعا لنا بسويق، فجعل يبُسّ[1] لنا، ويطعمنا ويسقينا، ثم خرجنا معه، فلما علونا في الأرض، قال لغلام له: اصنع لنا طعاماً يقطع عنَّا الجوع ـ يُصغِّره ـ كلمه قالها، فضحكنا، فقال: ما أراني إلاَّ مفارقكما، قلنا: رحمك الله، إنَّك كنت لا تكاد تتكلم بكلمة، فلما تكلمت، لم نتمالك أن ضحكنا، فقال: أزودكما حديثاً كان رسول الله يعلمنا في السفر والحضر، فأملى علينا، وكتبناه:

«اللَّهُمَّ إني أسألك الثبات في الأمر، وأسألك عزيمة الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك يقيناً صادقاً، وقلباً سليماً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنَّك أنت علام الغيوب».

وكان شداد بن أوس إذا دخل الفراش، يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم فيقول: اللَّهُمَّ إنَّ النَّار أذهبت مني النوم، فيقوم، فيصلي حتى يصبح.

يقول رحمه الله تعالى والموت ينازعه:

«إنَّ أخوف ما أخاف عليكم أيها النَّاس، لما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في الشهوة الخفية والشرك، فقال عبادة وأبو الدرداء: اللَّهُمَّ غفراً، أوَ لم يكن رسول الله ﷺ قد حدثنا أنَّ الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب، فأمَّا الشهوة الخفية فقد عرفناها فهي شهوات الدنيا، من نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذي تخوفنا به يا شدَّاد؟

قال: أرأيتكم لو رأيتم أحداً يصلي لرجل، أو يصوم له، أو يتصدق له، أترون أنَّه قد أشرك؟

---

(١) بسّ السويق والدقيق وغيرهما يبسه بسّاً، خلطه بسمن أو زيت.

قالوا: نعم.

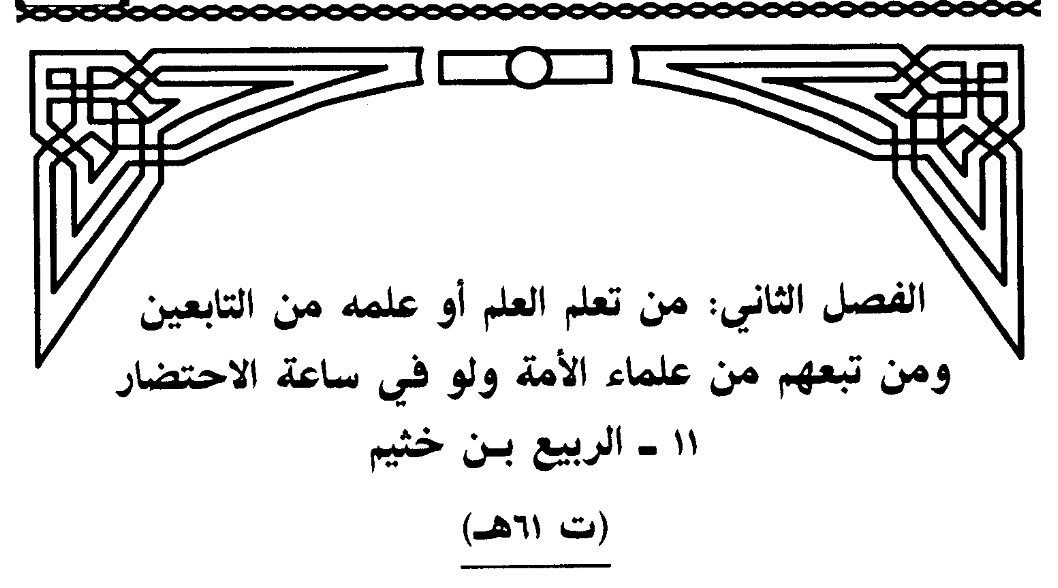
قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن صلَّى يرائي، فقد أشرك، ومَن صام يرائي، فقد أشرك، ومَن تصدق يُرائي، فقد أشرك**».

فقال عوف: أو لا يَعمد الله إلى ما ابتغي فيه وجهه من ذلك العمل كلِّه، فيقبل منه ما خلص له، ويدع ما أشرك به فيه؟

قال شدَّاد: فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول عن الله، قال: «**أنا خيرُ قسيم، فمن أشرك بي شيئاً فإنَّ جسَدَه وعمله، قليله وكثيره، لشريكه الذي أشرك به، أنا عنه غني**»[(١)].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) أخرجه الطبراني مختصراً: (٧١٣٩). انظر: (مجمع الزوائد): ٢٢١/١٠، وإسناده ضعيف لضعف شهر بن حوشب.



الفصل الثاني: من تعلم العلم أو علمه من التابعين ومن تبعهم من علماء الأمة ولو في ساعة الاحتضار

١١ - الربيع بن خثيم

(ت ٦١هـ)

يحدث بحديث رسول الله ﷺ في رعاية اليتيم وهو يحتضر

الإمام القدوة العابد، أدرك زمان النبيّ ﷺ، وأرسل عنه.

وكان يعد من عقلاء الرجال.

رُوي عن أبي عبيدة بن عبدالله بن مسعود، قال: كان الربيع بن خثيم إذا دخل على ابن مسعود لم يكن له إذن لأحد حتى يفرغ كل واحد من صاحبه، فقال له ابن مسعود: يا أبا يزيد، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك، وما رأيتك إلاّ ذكرت المخبتين[1] فهذه منقبة عظيمة للربيع بن خثيم.

وكان الربيع إذا أتاه الرجل يسأله قال: اتقِ الله فيما علمت، وما استؤثر به عليك، فكله إلى عالمه، لأنّا عليكم في العَمْد، أخوف مني عليكم في الخطأ، وما خيِّركم اليوم بخيِّر، ولكنه خير من آخر شرٌ منه، وما تتبعون الخير حق اتباعه، وما تفرون من الشر حق فراره، ولا كل ما أنزل الله على محمد ﷺ أدركتم، ولا كل ما تقرؤون تدرون ما هو، ثم يقول:

---

(١) الحلية: ١٠٦/٢ والمخبتون هم المطمئنون، وقيل: هم المتواضعون الخاشعون لربهم.

السرائر السرائر اللاتي يَخفين من الناس وهن الله بَوَادٍ، التمسوا دواءهُنَّ، وما دواؤهن إلاَّ أن يتوب ثم لا يعود[١].

روى منصور عن إبراهيم قال: قال فلان: ما أرى الربيع بن خثيم تكلم بكلام منذ عشرين سنة إلاَّ بكلمة تصعد، وعن بعضهم قال: صحبت الربيع عشرين عاماً ما سمعت منه كلمةً تعاب.

وعنه قال: كل ما لا يُراد به وجه الله يضمحل[٢].

وجاء ابن الكواء إلى الربيع بن خثيم فقال: دُلني على مَن هو خير منك، قال: نعم، مَن كان منطقه ذكراً، وصمته تفكراً، ومسيره تدبراً، فهو خير مني.

❑ فكان وهو في غمرات الموت كان يحدثهم بحديث رسول الله ﷺ عن رعاية اليتيم:

سمعت ابن مسعود يقول، قال رسول الله ﷺ: «**مَن مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليها يدُه نور يوم القيامة**»[٣].

وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب: «المحتضرين»[٤].

قيل للربيع بن خثيم: ألا ندعوا لك طبيباً؟

فقال: انظروا.

ثم تفكر فقال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان: ٣٨]، فذكر من حرصهم على الدنيا ورغبتهم فيها، كانت فيهم مرضى، وكانت فيهم أطباء، فما أرى المداوي بقي، ولا المتداوي، هلك الناعت والمنعوت.

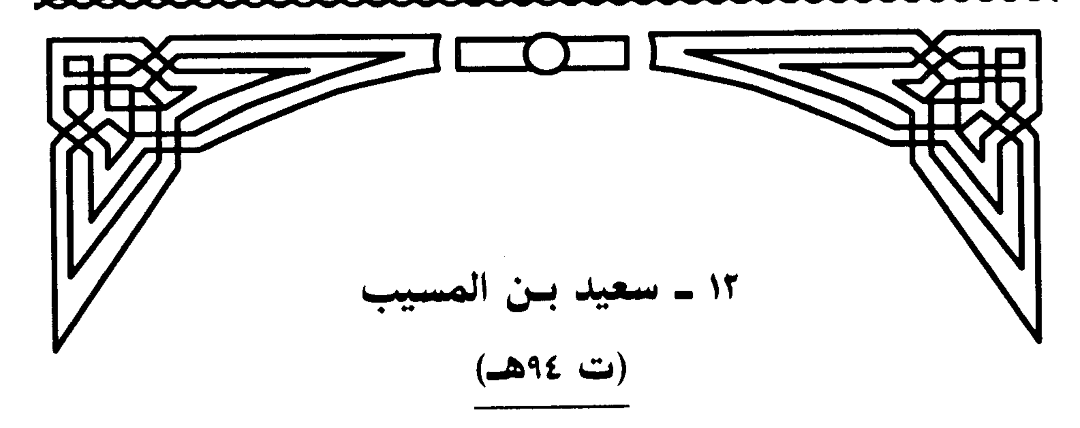
---

(١) طبقات ابن سعد: ١٨٥/٦.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٥٩/٤.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند»: ٢٥٠/٥، وإسناده ضعيف.

(٤) ص: ١٢٠، ١٢١.



١٢ ـ سعيد بن المسيب

(ت ٩٤هـ)

يُعَلِّم أصحابه، ويرشدهم إلى الصواب وهو في النزع والموت

الإمام العَلَم، أبو محمد القرشي المخزومي، عالم أهل المدينة، وسيِّد التابعين في زمانه... وكان ممَّن برَّز في العلم والعمل(١).

وكان يقول عن نفسه: ما أحد أعلم بقضاء قضاه رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عمر مِنِّي.

وقال أيضاً: إن كنت لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد.

وقال علي بن المديني: لا أعلم في التابعين أحداً أوسعَ علماً من ابن المسيب، هو عندي أجلُّ التابعين.

وكان سعيد بن المسيب يفتي والصحابة أحياء.

عن محمد بن يحيى بن حَبَّان قال: كان المقدم في الفتوى في دهره سعيد بن المسيب، ويقال له: فقيه الفقهاء.

وقال مكحول الشامي: سعيد بن المسيب عالم العلماء. وعن علي بن الحسين قال: ابن المسيب أعلم النَّاس بما تقدَّمه من الآثار، وأفقهُهم في رأيه.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/٢١٩.

عن مالك قال: كان عمر بن عبد العزيز لا يقضي بقضية - يعني: وهو أمير المدينة - حتى يسأل سعيد بن المسيب، فأرسل إليه إنساناً يسأله، فدعاه، فجاء فقال عمر له: أخطأ الرسول، إنما أرسلناه يسألك في مجلسك، وكان عمر يقول: ما كان بالمدينة عالم إلاَّ يأتيني بعلمه، وكنت أُوتى بما عند سعيد بن المسيب[1].

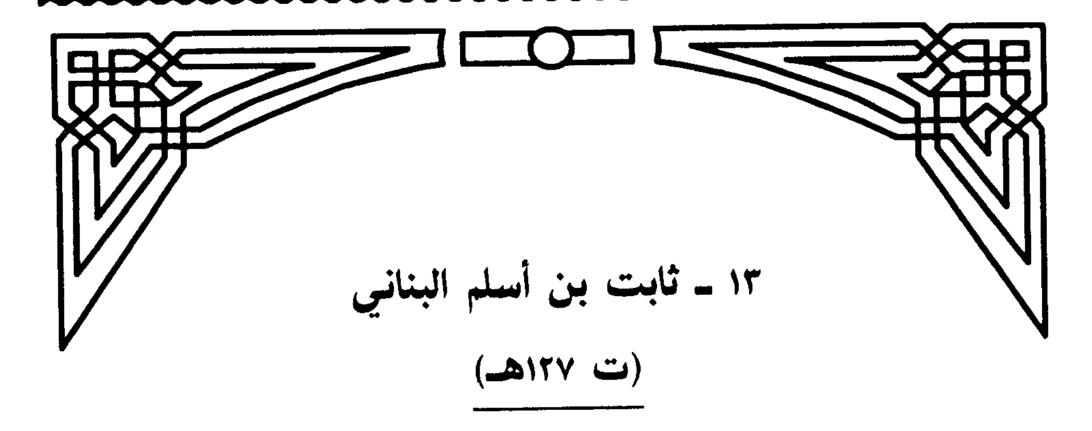
عن عبدالرحمٰن بن حرملة قال: دخلت على سعيد بن المسيب وهو شديد المرض، وهو يصلي الظهر، وهو مستلق يومىء إيماءً، فسمعته يقرأ بـ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾.

عن عبدالرحمٰن بن الحرث المخزومي قال: اشتدَّ وجعُ سعيد بن المسيب، فدخل عليه نافع بن جبير يعوده، فأغمي عليه فقال نافع: وجهوه، ففعلوا، فأفاق فقال: مَن أمركم أن تحولوا فراشي إلى القبلة، أنافع؟ قال: نعم، قال له سعيد: لئن لم أكن على القبلة والملة والله لا ينفعني توجيهكم فراشي[2].

وروى ابن أبي ذئب عن أخيه المغيرة، أنَّه دخل مع أبيه على سعيد وقد أغمي عليه، فوُجه إلى القبلة، فلما أفاق، قال: مَن صنع بي هذا، ألست امرءاً مسلماً؟ وجهي إلى الله حيث ما كنت.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) طبقات ابن سعد: ٥/١٢٢.
(٢) طبقات ابن سعد: ٥/١٤٢.



١٣ ـ ثابت بن أسلم البناني

(ت ١٢٧هـ)

كان يقرأ ونفسه تخرج

الإمام القدوة شيخ الإسلام.

قال عنه الحافظ الذهبي: وكان من أئمة العلم والعمل، رحمة الله عليه[1].

قال أبو طالب: سألت أحمد بن حنبل عن ثابت وقتادة، فقال: ثابت تثبَّت في الحديث، وكان يقص، وقتادة كان يقصُّ، وكان أذكر، وكان محدثاً من الثقات المأمونين، صحيح الحديث.

قال أحمد العجلي: ثقة رجل صالح، وقال النسائي: ثقة. وقال أبو حاتم الرازي: أثبت أصحاب أنس بن مالك: الزهري، ثم ثابت، ثم قتادة.

وقال ابن عدي: هو من تابعي أهل البصرة وزهادهم ومحدثيهم. كتب عنه الأئمة، وأروى النّاس عنه حماد بن سلمة، وأحاديثه مستقيمة، إذا روى عنه ثقة، وما وقع في حديثه من النكرة إنَّما هو من الراوي عنه، فقد روى عنه جماعة مجهولون ضعفاء.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٥/٢٢٠.

قال أنس: إنَّ للخير أهلاً، وإنَّ ثابتاً هذا من مفاتيح الخير.

وعن بكر المزني: مَن أراد أن ينظر إلى أعبد أهل زمانه فلينظر إلى ثابت البناني، فما أدركنا الذي هو أعبد منه، ومَن أراد أن ينظر إلى أحفظ أهل زمانه فلينظر إلى قتادة.

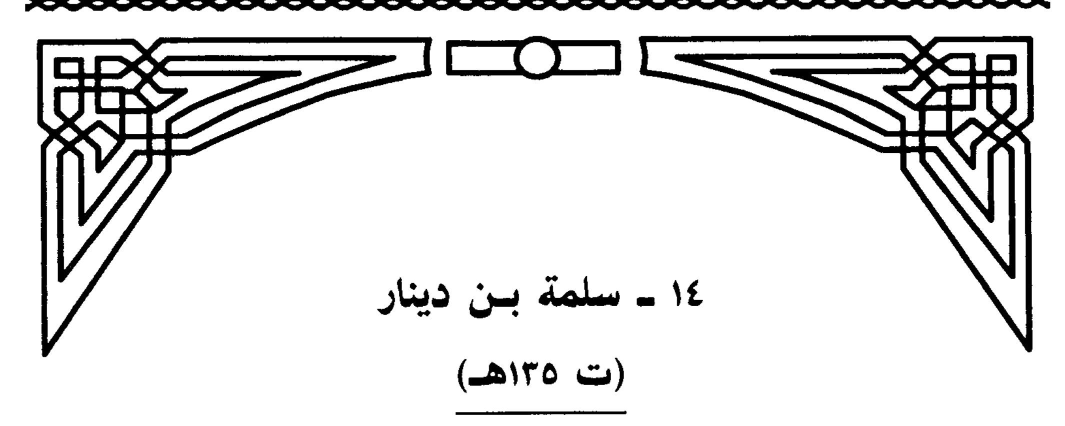
وقال شعبة: كان ثابت البناني يقرأ القرآن في كل يوم وليلة ويصوم الدهر[(١)].

عن محمد بن ثابت البناني قال: ذهبت ألقن أبي عند الموت، فقال: يا بني، خلِّ عني فإني في وردي السابع، كأنَّه يقرأ ونفسه تخرج[(٢)].



(١) وقد علَّق على هذا الكلام العلاَّمة شعيب الأرناؤوط بهامش سير أعلام النبلاء: ج٥/٢٢٤ فقال: أخرج البخاري: ١٩٥/٤ في الصوم، ومسلم: (١١٥٩) في الصوم أيضاً من حديث ابن عمر رضي الله عنه أنَّ النبيّ ﷺ قال: **«لا صام مَن صام الأبد»**، وقوله: **«لا صام مَن صام الأبد»** من الدعاء عليه، قال ابن العربي في «العارضة»: ٢٩٩/٣: فيا بؤس مَن أصابه دعاء النبيّ ﷺ، وأما مَن قال: إنَّه خبر، فيا بؤس مَن أخبر عنه النبيّ ﷺ أنَّه لم يصم، فقد علم أنَّه لا يكتب له ثواب لوجوب الصدق في خبره ﷺ وقد نفى الفضل عنه، فكيف يطلب ما نفاه النبيّ عليه الصلاة والسلام. وروى عبدالرزاق في «المصنف»: (٧٨٧١) عن أبي عمر السيباني قال: كنا عند عمر بن الخطاب فأتي بطعام له فاعتزل رجل من القوم فقال: ما له؟ قالوا: إنَّه صائم، قال: وما صومه، قالوا: الدهر، قال: فجعل يضرب رأسه بقناة معه ويقول: «كل يا دهر كل يا دهر» وإسناده صحيح. وأخرج البخاري: ١٩٥/٤ من حديث عبدالله بن عمرو أنَّ النبيّ ﷺ قال له: **«اقرأ القرآن في كل شهر»**، قال: إني أطيق أكثر، فما زال حتى قال في ثلاث، وأخرج البخاري: ٨٤/٩، ومسلم: (١١٥٩) (١٨٢) من حديث عبدالله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«اقرأ القرآن في كل شهر»**، قال: قلت إني أجد قوة، قال: **«فاقرأه في عشرين ليلة»**، قال: قلت: إني أجد قوة، قال: **«فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك»**.

(٢) كتاب: «المحتضرين»: ١٢٨.



١٤ ـ سلمة بن دينار

(ت ١٣٥هـ)

يحدث بحكمة وهو في سكرات الموت

الإمام القدوة، الواعظ، شيخ المدينة النبويَّة[١].

وثقه ابن معين، وأحمد، وأبو حاتم، وقال ابن خزيمة: ثقة، لم يكن في زمانه مثله.

قال عبدالرحمٰن بن زيد بن أَسْلَم: ما رأيت أحداً، الحكمة أقرب إلى فيه من أبي حازم.

ومن حِكمه رضي الله عنه:

ما رواه عبيدالله بن عمر عن أبي حازم قال: لا تكون عالماً حتى يكون فيك ثلاث خصال: لا تبغ على مَن فوقك، ولا تحقر مَن دونك، ولا تأخذ على علمك دنيا.

وقال: انظر كل عمل كرهت الموت من أجله، فاتركه ثم لا يضرك متى مت.

وقال: شيئان إذا عملت بهما، أصبت خير الدنيا والآخرة، لا أطول عليك، قيل: ما هما؟ قال: تحملُ ما تكره إذا أحبَّه الله، وتركُ ما تحبُّ إذا كرهه الله.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٩٦/٦.

وعنه: لا تعادين رجلاً، ولا تُناصبنَّه حتى تنظر إلى سريرته بينه وبين الله، فإن يكن له سريرة حسنة فإنَّ الله لم يكن ليخذله بعداوتك، وإن كانت له سريرة رديئة، فقد كفاك مساوئه، ولو أردت أنْ تعمل به أكثر من معاصي الله، لم تقدر.

وعن عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم، قلت لأبي حازم: إني لأجد شيئاً يحزنني، قال: وما هو يا ابن أخي؟ قلت: حبي للدنيا، قال: اعلم أنَّ هذا لشيء ما أعاتب نفسي على بعض شيء حببه الله إليَّ لأنَّ الله قد حبَّب هذه الدنيا إلينا؛ لتكن معاتبتنا أنفسنا في غير هذا؛ ألا يدعونا حبها إلى أن نأخذ شيئاً من شيء يكرهه الله، ولا أن نمنع شيئاً من شيء أحبه الله، فإذا نحن فعلنا ذلك لم يضرنا حبُّنا إياها.

وعنه: ما الدنيا؟ ما مضى منها فحلم، وما بقي منها فأماني.

وعنه: السيِّىء الخلق أشقى النَّاس به نفسُه التي بين جنبيه، هي منه في بلاء، ثم زوجته، ثم ولده، حتى إنَّه ليدخل بيته، وإنَّهم لفي سرور، فيسمعون صوته فينفرون عنه، فرقاً منه، وحتى إنَّ دابته تحيد مما يرميها بالحجارة، وإنَّ كلبه ليراه فينزو على الجدار، حتى إن قِطَّه ليفر منه.

وعنه: اكتم حسناتك، كما تكتم سيئاتك.

جاء في «صفة الصفوة»(١):

«عن عبدالجبار بن عبدالعزيز بن أبي حازم قال: حدثني أبي قال: بعث سليمان بن عبدالملك إلى أبي حازم فجاءه، فقال: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنَّكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب، قال: صدقت، فكيف القدوم على الله عزَّ وجلَّ؟ قال: أمَّا المحسن فالكغائب يقدم على أهله، وأمَّا المسيء فكالآبق يقدم على مولاه، فبكى سليمان وقال: ليت شعري ما لنا عند الله

---

(١) ج١/٣٨٨.

يا أبا حازم؟ قال: اعرض نفسك على كتاب الله عزَّ وجلَّ فإنَّك تعلم ما لك عند الله، قال: يا أبا حازم، وأين أصيب ذلك؟ قال عند قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، فقال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، قال: ما تقول فيما نحن فيه؟ قال: اعفني عن هذا، قال سليمان: نصيحة تلقيها، قال أبو حازم: إنَّ أناساً أخذوا هذا الأمر عنوة من غير مشاورة من المسلمين ولا اجتماع من رأيهم فسفكوا فيه الدماء على طلب الدنيا ثم ارتحلوا عنها فليت شعري ما قالوا؟ وما قيل لهم؟ فقال بعض جلسائه: بئس ما قلت يا شيخ، قال أبو حازم: كذبتَ، إنَّ الله تعالى أخذ على العلماء ليبيننه للنَّاس ولا يكتمونه، قال سليمان: أصبحنا يا أبا حازم تصب منا ونصب منك، قال: أعوذ بالله من ذلك، قال: ولِمَ؟ قال: أخاف أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذيقني ضعف الحياة وضعف الممات، قال: فأشر علي، قال: اتقِ الله أن يراك حيث نهاك، وأن يفقدك حيث أمرك، قال: يا أبا حازم، ادع لنا بخير، قال: اللَّهُمَّ إن كان سليمان وليك فيسره للخير، وإن كان عدوك فخذه إلى الخير بناصيته، فقال: يا غلام، هات مائة دينار، ثم قال: خذها يا أبا حازم، فقال: لا حاجة لي فيها، إني أخاف أن يكون لما سمعت من كلامي.

فكأنَّ سليمان أعجب بأبي حازم، فقال الزهري: إنَّه لجاري منذ ثلاثين سنة ما كلمته قط، قال أبو حازم: إنَّك نسيت الله فنسيتني ولو أحببت الله لأحببتني، قال الزهري: أتشتمني؟ قال سليمان: بل أنت شتمت نفسك، أما علمت أنَّ للجار على جاره حقاً؟ قال أبو حازم: إنَّ بني إسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء، وكانت العلماء تفر بدينها من الأمراء، فلما رأى ذلك قوم من أذلة النَّاس تعلموا ذلك العلم وأتوا به إلى الأمراء فاستغنت به عن العلماء واجتمع القوم على المعصية فسقطوا وانتكسوا، ولو كان علماؤنا يصونون علمهم لم تزل الأمراء تهابهم، قال الزهري: كأنَّك إياي تريد وبي تعرض، قال: هو ما تسمع».

❏ وكان يحدث بالحكمة حتى وهو في سكرات الموت:

عن محمد بن مطرف قال: دخلنا على أبي حازم الأعرج ـ يعني: سلمة بن دينار ـ لما حضره الموت.

فقلنا: يا أبا حازم، كيف تجدك؟

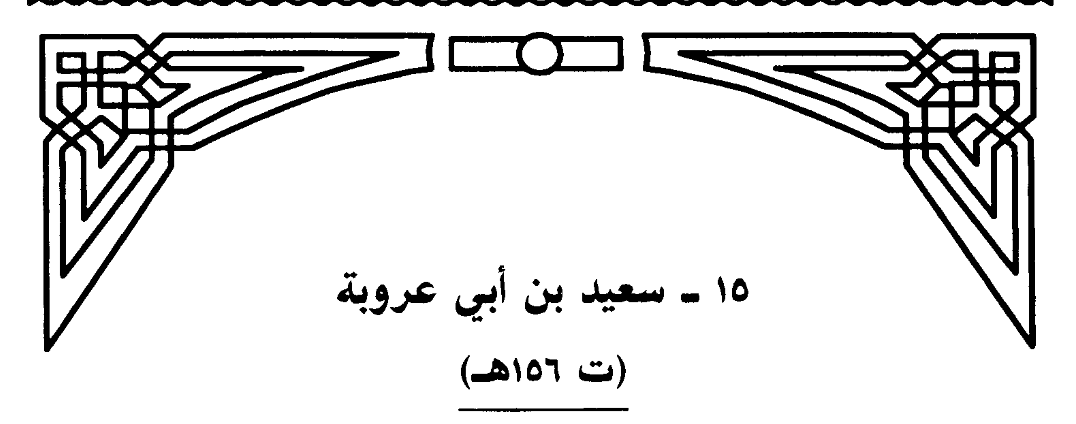
قال: أجدني بخير، قال: أجدني راجياً لله، حسن الظن به.

ثم قال: «إنّه والله ما يستوي مَن غدا وراح يعمُر عُقد الآخرة لنفسه فيقدّمَها أمامه قبل أن ينزل به الموتُ حتى يقدمَ عليها فيقوم لها، وتقوم له، ومَن غدا وراح في عُقد الدنيا يعمُرها لغيره ويرجع إلى الآخرة لا حظَّ له فيها ولا نصيب»[1].

وقال أيضاً ونفسه تخرج: ما أتينا على شيء من الدنيا إلاَّ على ذكر الله، وإن كان هذا الليل والنهار لا يأتيان على شيء إلاَّ أخلقاه، وفي الموت راحة للمؤمنين، ثم قرأ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨][2].

❏ ❏ ❏ ❏ ❏ ❏

(١) كتاب: «المحتضرين»: ١٢٤، حلية الأولياء: ٢٤١/٣، سير أعلام النبلاء: ٩٩/٦.
(٢) كتاب: «المحتضرين»: ١٢٤.



١٥ ـ سعيد بن أبي عروبة

(ت ١٥٦هـ)

سمع منه شعيب بن أبي إسحاق بآخر رمق

الإمام، الحافظ، عالم أهل البصرة، وأول مَن صنَّف السنن النبوية(١).

قال أبو حاتم الرازي: سمعت أحمد بن حنبل يقول: لم يكن لسعيد بن أبي عروبة كتاب، إنَّما كان يحفظ ذلك كلَّه، وزعموا أنَّ سعيداً قال: لم أكتب إلاَّ تفسير قتادة، وذلك أنَّ أبا معشر كتب إليَّ أن أكتُبه.

وقال إسحاق بن منصور عن يحيى بن معين، وأبو زرعة والنسائي: ثقة.

زاد أبو زرعة: مأمون.

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن معين: أثبت النَّاس في قتادة: سعيد بن أبي عروبة، وهشام الدستوائي، وشعبة، فمن حدثك من هؤلاء الثلاثة بحديث ـ يعني: عن قتادة ـ فلا تبالي أن لا تسمعه من غيره.

(١) سير أعلام النبلاء: ٤١٣/٦.

وقال المعلى بن مهدي، عن أبي عوانة: ما كان عندنا في ذلك الزمان أحد أحفظ من سعيد بن أبي عروبة(١).

وقال عبدالرحمٰن بن أبي حاتم، عن أبيه: سعيد بن أبي عروبة قبل أن يختلط ثقة، وكان أعلمَ النَّاس بحديث قتادة.

وقال أيضاً: قلت لأبي زرعة: سعيد بن أبي عروبة أحفظ، أو أبان العطار؟ فقال: سعيد أحفظ، وأثبت أصحاب قتادة: هشام وسعيد.

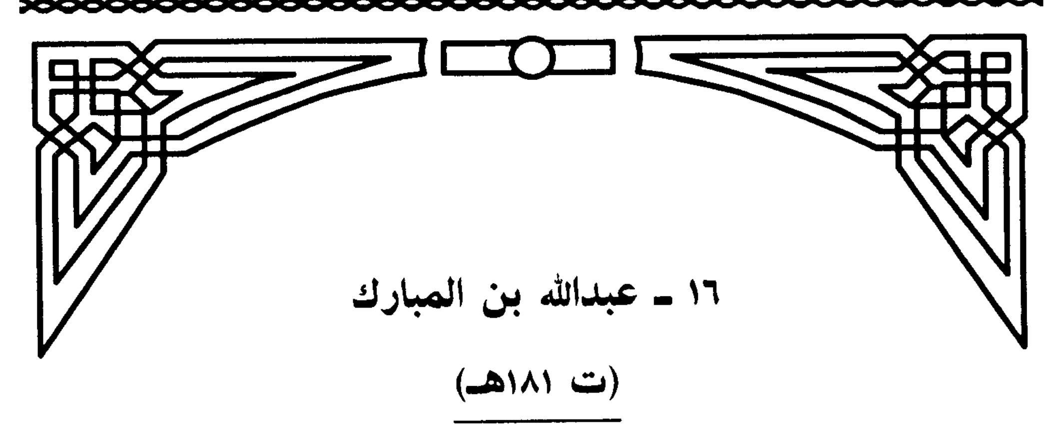
وسمع شعيب بن إسحاق من سعيد بن أبي عروبة بآخر رمق(٢).

قال أبو حاتم بن حبان: كان سماع شعيب بن إسحاق منه سنة أربع وأربعين ومئة، قبل أن يختلط بسنة(٣).

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) الجرح والتعديل: ٤، الترجمة: ٢٧٦.
(٢) تهذيب الكمال: ١٢/٥٠٣.
(٣) تهذيب الكمال: ١١/١٠.



١٦ ـ عبدالله بن المبارك

(ت ١٨١هـ)

لما وقع في الاحتضار جعل رجل يلقنه فاكثر عليه، فعلمه كيفية التلقين وهو يعاني آلام الموت

«هو الإمام المجمع على إمامته وجلالته في كل شيء، والذي تستنزل الرحمة بذكره، وتُرتجى المغفرة بحبه».

نشأ ابن المبارك وفي نفسه من هوى الشباب ورغائبهم، ما يوجد لدى سائر أترابه، وكان طروباً يهوى العزف على العود ويتقنه، ثم أضرب عن ذلك كله وتوجه إلى طلب العلم(١).

قال عن نفسه، يروي أول عهده بالانصراف عن ملهيات الدنيا، وبالإقبال على الله: «كنت يوماً في بستان وأنا شاب مع جماعة من أترابي، وذلك في الصيف وقد نضجت الفواكه، فأكلنا وشربنا، وكنت مولعاً بالعزف على العود، فنمت بعض الليل، ثم استيقظت وإذا غصن يتحرك عند رأسي، فاستهواني الحال، وأخذت العود لأعزف عليه، فإذا العود ينطق قائلاً: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي: ٢٨٥/١.

فضربت بالعود الأرض فكسرته، وصرفت ما عندي من جميع الأمور التي كنت عليها مما يشغل عن الله، وجاء التوفيق من عند الله عزَّ وجلَّ»(١).

يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: «أقول: لله هذه الآية من كتاب الله عزَّ وجلَّ، كم أيقظت سادرين، ونبهت غافلين، وأرشدت تائهين... عرفنا منهم قلة، ولعلَّ الكثرة الكبرى تلك التي لم نسمع عنها ولم نُحِط علماً بها!»(٢).

كان عمره عشرين عاماً، عندما توجه بكليته إلى دراسة العلم وطلبه، فأخذ عن سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وروى عنه «الموطأ»، وارتحل في طلب العلم إلىٰ أمصار وبلدان كثيرة متباعدة، وأخذ عن كثير من التابعين.

وأقدم شيخ لقيه الربيع بن أنس الخراساني، رحل إليه، وبحث عنه، فعلم أنَّه سجين!... وكان قد سجن في عهد أبي جعفر المنصور بتهمة التشيع، فتحايل حتى دخل عليه السجن، وأخذ منه نحواً من أربعين حديثاً.

وسمع بالإمام الأوزاعي، وكانت إليه الصدارة في عصره، فقدم عليه وأخذ منه.

يقول ابن المبارك، وهو يروي خبر رحلته إليه: قدمت الشام على الأوزاعي إلى قريته ببيروت، فقال لي: يا خراساني، مَن هذا الذي خرج بالكوفة؟ يعني: أبا حنيفة، فرجعت إلى بيتي، فأقبلت على كتب أبي حنيفة، فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل، وبقيت في ذلك ثلاثة أيام، فجئته في اليوم الثالث، وكان مؤذن مسجدهم وإمامهم، والكتاب في يدي، فقال: أي شيء هذا الكتاب؟ فناولته إياه، فنظر في مسألة منها وُقِّعت عليها،

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر: ١٥/١٤.

(٢) شخصيات استوقفتني: ٥١.

فقال: النعمان بن ثابت! فما زال قائماً بعدما أذن، حتى قرأ صدراً من الكتاب، ثم وضع الكتاب في كمه، ثم أقام فصلّى، ثم عاد فأخرج الكتاب حتى أتى على المسائل كلها... فقال لي: يا خراساني!... مَن النعمان بن ثابت هذا؟!... قلت: شيخ لقيته بالعراق، قال: هذا نبيل من المشايخ، اذهب فاستكثر منه... قلت له: فهذا هو أبو حنيفة الذي نهيت عنه.

ولم ينقطع ابن المبارك عن طلبه العلم إلى أن مات، سأله بعض أصحابه، إلى متى تطلب العلم؟ فقال له: **لعلَّ الكلمة التي فيها نجاتي لم أسمعها بعد!...**

ثم قال: **أرجو أن تروني كذلك، أي: أطلب العلم، إلى أن أموت.**

وقد جمع رحمه الله إلى الحديث الذي حفظ منه ما لا يقل عن عشرين ألف حديث؛ الفقه والأدب والنحو واللغة والشعر، ونزه علمه ومعارفه عن البدع بأنواعها وعن المبتدعين بأصنافهم.

وكان إذا فتح معه باب من أبواب العلم، استرسل في مذاكرته، وتتبع دقائقه إلى ما شاء الله، وربما نسي نفسه والعمل الذي كان مقبلاً عليه، والوقت الذي يمرُّ به.

قال علي بن الحسن بن شقيق: قمت لأخرج مع ابن المبارك في ليلة باردة من المسجد، فذاكرني عند الباب في حديث أو ذاكرته فيه، فما زلنا نتذاكر حتى جاء المؤذن لصلاة الصبح[١].

روى ابن عساكر في (تاريخ دمشق): أنَّه لما حضرت ابن المبارك الوفاة، قال لنصر، مولاه: اجعل رأسي على التراب فبكى نصر... فقال له: ما يبكيك؟ قال: أذكر ما كنت فيه من النعيم، وأنت ذا تموت فقيراً غريباً!... فقال له: اسكت، فإني سألت الله تبارك وتعالى أن يجنبني جباه الأغنياء، وأن يميتني ميتة الفقراء.

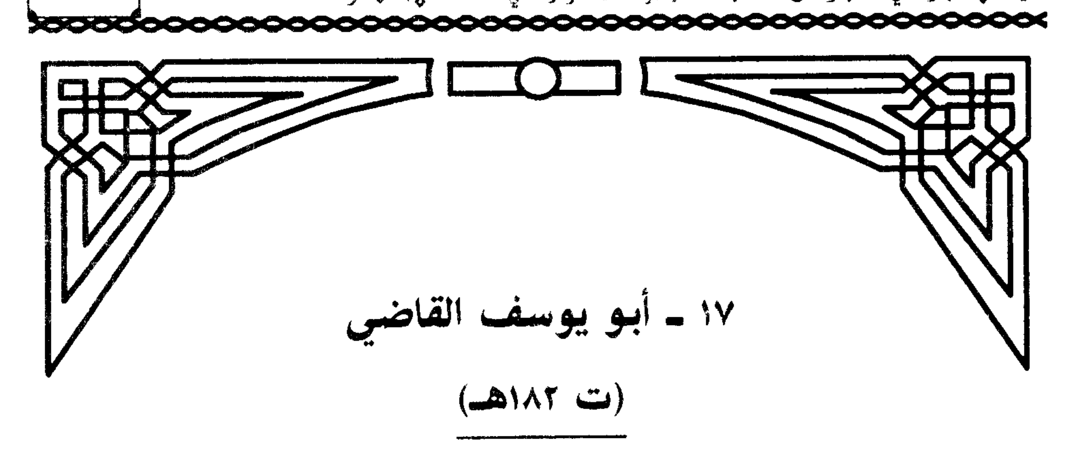
(١) سير أعلام النبلاء ٤٠٤/٨.

ثم قال له: لقني، أي: الشهادة، ولا تُعد عليّ إلاَّ أن أتكلم بكلام ثانٍ.

قال ابن عساكر: فلما وقع ابن المبارك في الاحتضار، جعل رجل يلقنه: قل: لا إله إلاَّ الله، فأكثر عليه، فقال له: إنَّك لست تحسن، وأخاف أن تؤذي بها رجلاً مسلماً بعدي، إذا لقنتني، فقلت: لا إله إلاَّ الله، ثم لم أحدث كلاماً بعدها فدعني، فإذا أحدثت كلاماً بعدها فلقني حتى تكون آخر كلامي.

ولمَّا كان في سياق الموت فتح عينيه وضحك قائلاً: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١].





١٧ ـ أبو يوسف القاضي

(ت ١٨٢هـ)

ساعة موته يباحث في مسألة فقهية

الإمام المجتهد[١]، العلاّمة المحدِّث، قاضي القضاة، أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي[٢].

كان أبوه فقيراً، له حانوت ضعيف، فكان أبو حنيفة يتعاهد أبا يوسف بالدراهم، مئة بعد مئة.

فروى علي بن حرملة التيمي عنه قال: كنتُ أطلب العلم وأنا مقلّ، فجاء أبي فقال: يا بني، لا تمدَّن رجلك مع أبي حنيفة، فأنت محتاج،

---

(١) يقول العلاّمة شعيب الأرناؤوط بهامش سير أعلام النبلاء: ٨/٥٣٣:
«أي مجتهداً مطلقاً صاحب ملكة كاملة في الفقه والنباهة وفرط البصر، والتمكن من الاستنباط المستقل به من أدلته؛ كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والثوري والأوزاعي، لا كما زعم أحمد بن سليمان الرومي المعروف بابن كمال باشا المتوفّى سنة ٩٤٠هـ، وتابعه عليه غير واحد من علماء الحنفية منهم: ابن عابدين صاحب: «رد المحتار» من كونه مجتهداً في المذهب، خالف إمامه في بعض الأحكام، ولكن قلّده في قواعد الأصول، فقد ردَّ عليه هذه الدعوى، وأبان عن بطلانها العالم الفاضل الشهاب المرجاني المتوفّى سنة (١٣٩٦هـ) في كتابه: «ناظورة الحق» ونقله عنه العلاّمة الكوثري في «حسن التقاضي» ص:١٠٢ ـ ١١٦، فانظره فإنّه غاية في النفاسة».

(٢) سير أعلام النبلاء: ٨/٥٣٥.

فآثرت طاعة أبي، فأعطاني أبو حنيفة مئة درهم، وقال: الزم الحَلْقة، فإذا نفذت هذه، فأعلمني ثم بعد أيام أعطاني مئة.

ويقال: إنَّه رُبِّي يتيماً، فأسلمته أمه قصاراً.

وعن محمد بن الحسن قال: مرض أبو يوسف، فعاده أبو حنيفة فلما خرج، قال: إن يمت هذا الفتى، فهو أعلمُ مَن عليها.

قال أحمد بن حنبل: أول ما كتبتُ الحديث اختلفت إلى أبي يوسف، وكان أميَل إلى المحدثين من أبي حنيفة ومحمد.

وكان يحيى بن معين يقول: ما رأيت في أصحاب الرأي أثبت في الحديث، ولا أحفظَ، ولا أصح روايةً من أبي يوسف.

قال أبو يوسف: صحبت أبا حنيفة سبع عشرة سنة.

عن بكّار بن قتيبة: سمعت أبا الوليد قال: لما قدم أبو يوسف البصرة مع الرشيد، اجتمع الفقهاء والمحدثون على بابه، فأشرف عليهم، وقال: أنا من الفريقين جميعاً، ولا أقدم فرقة على فرقة، قال: وكان قاضي الآفاق، ووزير الرشيد، وزميله في حجه.

قال الحافظ الذهبي: بلغ أبو يوسف من رئاسة العلم ما لا مزيد عليه، وكان الرشيد يبالغ في إجلاله.

يقول العلاّمة عبدالفتاح أبو غدة في كتابه: «قيمة الزمن عند العلماء»(١):

«وهذا الإمام أبو يوسف القاضي... صاحب الإمام أبي حنيفة، وتلميذه، وناشر علمه ومذهبه، وقاضي الملوك الخلفاء العباسيين الثلاثة: المهدي والهادي والرشيد، وأول مَن دعي: قاضي القضاة، وكان يقال له: قاضي قضاة الدنيا.

---

(١) ص: ٢٨، ٢٩.

يباحث ـ وهو في النَّزْع والذَّماء: النفس الأخير من الحياة ـ بعض عُوَّاده في مسألة فقهية، رجاء النفع بها لمستفيد أو متعلم، ولا يُخلي اللحظة الأخيرة من لحظات حياته من كَسْبِها في مذاكرة علم وإفادة واستفادة.

«قال تلميذه القاضي إبراهيم بن الجراح الكوفي ثم المصري: مرض أبو يوسف، فأتيته أعودُه، فوجدته مُغمًى عليه، فلما أفاق قال لي:

ـ يا إبراهيم، ما تقول في مسألة؟

قلت: في مثل هذه الحالة؟!

قال: ولا بأس بذلك، ندرس لعله ينجو به ناج؟ ثم قال: يا إبراهيم، أيما أفضلُ في رمي الجمار ـ أي: في مناسك الحجّ ـ أن يرميها ماشياً أو راكباً؟

قلت: راكباً.

قال: أخطأت.

قلت: ماشياً.

قال: أخطأت.

قلت: قل فيها، يرضى الله عنك.

أمَّا ما كان يوقفُ عنده للدعاء، فالأفضل أن يَرمِيَه ماشياً، وأمَّا ما كان لا يوقف عنده فالأفضل أن يرميه راكباً.

ثم قمت من عنده، فما بلغت باب داره حتى سمعت الصُّراخَ عليه، وإذا هو قد مات ـ رحمة الله عليه ـ[1].

وقد علَّق العلاَّمة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة[2] ـ رحمه الله تعالى ـ بعد ذكره لهذه الواقعة النادرة العجيبة بقوله:

---

(١) مناقب أبي حنيفة للموفق المكي: ٤٨١/١، ومناقب أبي حنيفة للكَرْدَري: ٤٠٥/٢.

(٢) قيمة الزمن عند العلماء: ٢٩.

«وهذه طريقة العلماء والمشايخ، فإنَّهم يقولون: ـ طلب العلم من المهد إلى اللحد ـ.

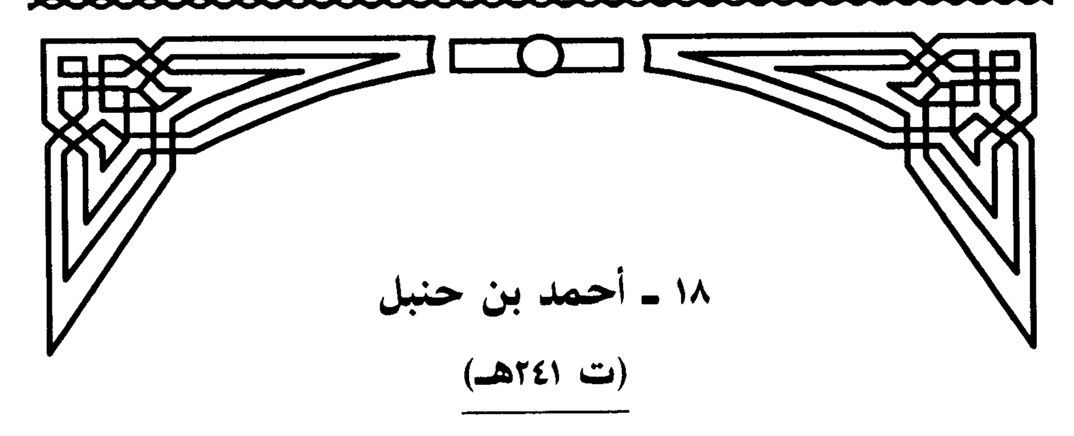
وقال أيضاً: «هكذا غلاء العلم عند السلف، يتذاكرون به ويبحثون في مسائله ومشكلاته حتى عند الموت ووداع الحياة! فللّه درهم ما أحبَّ العلم إلى قلوبهم؟».

وجاء في «توالي التأنيس بمعالي محمد بن إدريس»[1] للحافظ ابن حجر: «قال ابن أبي حاتم: سمعت المزني يقول: قيل للشافعي: كيف شهوتك للعلم؟ قال: أسمع بالحرف ـ أي: بالكلمة ـ مما لم أسمعه، فتود أعضائي أنَّ لها أسماعاً تتنعم به مثل ما تنعمت به الأذنان، فقيل له: كيف حرصك عليه؟ قال: حرص الجَمُوع المنوع في بلوغ لذته للمال، فقيل له: فكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المُضلة ولدها ليس لها غيره»، وبمثل هذا الشغف والعشق للعلم يتكون النبوغ والإمامة فيه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) ص: ١٠٥.



١٨ ـ أحمد بن حنبل

(ت ٢٤١هـ)

يقرأ عليه ولده صالح حديث كراهة الأنين وهو يحتضر

هو الإمام حقاً، وشيخ الإسلام صدقاً.

طلب العلم وهو ابـن خمس عشرة سنة، في العام الذي مات فيه مالك، وحماد بـن زيد.

قال صالح بـن أحمد سمعت أبي يقول: مات هُشيم فخرجت إلى الكوفة سنة ثلاث وثمانين، وأول رحلاتي إلى البصرة سنة ست، وخرجت إلى سفيان سنة سبع فقدمنا، وقد مات الفضيل بـن عياض. وحججت خمس حجج؛ منها ثلاث راجلاً، أنفقت في إحداها ثلاثين درهماً، وقدم ابـن المبارك في سنة تسع وسبعين، وفيها أول سماعي من هُشيم، فذهبت إلى مجلس ابـن المبارك، فقالوا: قد خرج إلى طَرَسوس، وكتبت عن هشيم أكثر من ثلاثة آلاف، ولو كان عندي خمسون درهماً، لخرجت إلى جرير إلى الري.

عن محمد بـن عباس النحوي قال: رأيت أحمد بـن حنبل حسن الوجه، ربعة، يخضب بالحناء خضاباً ليس بالقاني، في لحيته شعرات سود، ورأيت ثيابه غلاظاً بيضاً، ورأيته معتماً وعليه إزار.

وكان أحمد بـن حنبل يقول: مات هشيم ولي عشرون سنة، فخرجت أنا والأعرابي ـ رفيق كان لأبي عبدالله ـ قال: فخرجنا مشاة، فوصلنا

الكوفة، يعني: في سنة ثلاث وثمانين، فأتينا أبا معاوية وعنده الخلق، فأعطى الأعرابي حجَّة بستين درهماً، فخرج وتركني في بيت وحدي، فاستوحشت، وليس معي إلاَّ جراب فيه كتبي، كنت أضعه فوق لبنة، وأضع رأسي عليه، وكنت أذاكر وكيعاً بحديث الثوري، وذكر مرة شيئاً، فقال: هذا عند هشيم؟ فقلت: لا. وكان ربما ذكر العشر أحاديث فأحفظها، فإذا قام، قالوا لي، فأمليها عليهم.

وقال أحمد بن حنبل لولده عبدالله: خذ أي كتاب شئت من كتب وكيع من المصنف، فإن شئت أن تسألني عن الكلام حتى أخبرك بالإسناد، وإن شئت بالإسناد حتى أخبرك أنا بالكلام.

عن ابن نُمير، قال: كنت عند وكيع فجاءه رجل، أو قال: جماعة من أصحاب أبي حنيفة، فقالوا له: هاهنا رجل بغدادي يتكلم في بعض الكوفيين، فلم يعرفه وكيع، فبينا نحن إذ طلع أحمد بن حنبل، فقالوا: هذا هو، فقال وكيع: هاهنا يا أبا عبدالله، فأفرجوا له، فجعلوا يذكرون عن أبي عبدالله الذي ينكرون، وجعل أبو عبدالله يحتج بالأحاديث عن النبيّ ﷺ، فقالوا لوكيع: هذا بحضرتك ترى ما يقول؟ فقال: رجل يقول: قال رسول الله، أيش أقول له؟ ثم قال: ليس القول إلاَّ كما قلت: يا أبا عبدالله، فقال القوم لوكيع: خدعك والله البغدادي.

وكان أحمد بن حنبل يقول: نحن كتبنا الحديث من ستة وجوه وسبعة لم نضبطه، فكيف يضبطه من كتبه من وجه واحد؟! قال عبدالله بن أحمد: قال لي أبو زرعة: أبوك يحفظ ألف ألف حديث، فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب.

علَّق على ذلك الحافظ الذهبي فقال: فهذه حكاية صحيحة في سعة علم أبي عبدالله، وكانوا يَعدُّون في ذلك المكرر، والأثر، وفتوى التابعي، وما فُسِّر، ونحو ذلك، وإلاَّ فالمتون المرفوعة القوية لا تبلغ عشر معشار ذلك[1].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٨٧/١١.

قال ابن أبي حاتم: قال سعيد بن عمرو: يا أبا زرعة، أأنت أحفظ أم أحمد؟ قال: بل أحمد، قلت: كيف علمت؟ قال: وجدت كتبه ليس في أوائل الأجزاء أسماء الذين حدثوه، فكان يحفظ كل جزء ممن سمعه، وأنا لا أقدر على هذا.

وعن أبي زرعة قال: حُزِرَتْ كتب أحمد يوم مات، فبلغت اثني عشر حِملاً وعِدلاً، ما كان على ظهر كتاب منها حديث فلان، ولا في بطنه حدثنا فلان، كل ذلك كان يحفظه.

قال إبراهيم الحربي: رأيت أبا عبدالله، كأنَّ الله جمع له علم الأولين والآخرين.

عن عباس الدوري: سمعت أبا عاصم يقول لرجل بغدادي: مَن تعدون عندكم اليوم من أصحاب الحديث؟

قال: عندنا أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وأبو خيثمة، والمعيطي، والسويدي، حتى عدَّ له جماعة بالكوفة أيضاً وبالبصرة.

فقال أبو عاصم: قد رأيت جميع مَن ذكرت، وجاؤوا إليَّ، لم أر مثل ذلك الفتى، يعني: أحمد بن حنبل.

عن عبدالله بن أحمد قال: سمعت أبي يقول: قدمت صنعاء، أنا ويحيى بن معين. فمضيت إلى عبدالرزاق في قريته، وتخلف يحيى، فلما ذهبت أدق الباب، قال لي بقال تجاه داره: مه، لا تدق، فإنَّ الشيخ يهاب، فجلست حتى إذا كان قبل المغرب، خرج فوثبت إليه، وفي يدي أحاديث انتقيتها، فسلمت، وقلت: حدثني بهذه رحمك الله، فإني رجل غريب، قال: ومَن أنت؟ وزبرني، قلت: أنا أحمد بن حنبل، قال: فتقاصر؟ وضمني إليه، قال: بالله أنت أبو عبدالله؟ ثم أخذ الأحاديث، وجعل يقرؤها حتى أظلم، فقال للبقال: هلم المصباح حتى خرج وقت المغرب، وكان عبدالرزاق يؤخر صلاة المغرب.

قال المروذي: قال لي أبو عبدالله: كنا عند يزيد بن هارون، فوهم

في شيء، فكلمته، فأخرج كتابه، فوجده كما قلت، فغيره فكان إذا جلس يقول: يا ابن حنبل، ادن، يا ابن حنبل، ادن هاهنا، ومرضت فعادني. فنطحه الباب.

قال أحمد بن سنان القطان: ما رأيت يزيد لأحد أشدَّ تعظيماً منه لأحمد بن حنبل، ولا أكرم أحداً مثله، كان يقعده إلى جنبه، ويوقره، ولا يُمازحه.

وقال قتيبة: خير أهل زماننا ابن المبارك، ثم هذا الشاب، يعني: أحمد بن حنبل، وإذا رأيت رجلاً يحب أحمد، فاعلم أنَّه صاحب سنَّة، ولو أدرك عصر الثوري، والأوزاعي، والليث، لكان هو المقدم عليهم، فقيل لقتيبة: يضم أحمد إلى التابعين؟ قال: إلى كبار التابعين.

وكان الإمام الشافعي يقول: خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلاً أفضل، ولا أعلم، ولا أفقه، ولا أتقى من أحمد بن حنبل.

عن محمد بن أبي بشر: أتيت أحمد بن حنبل في مسألة، فقال: ائت أبا عبيد، فإنَّ له بياناً لا تسمعه من غيره، فأتيته فشفاني جوابُه، فأخبرته بقول أحمد، فقال: ذاك رجل من عمال الله، نشر الله رداء عمله، وذخر له عنده الزلفى، أما تراه محبباً مألوفاً، ما رأت عيني بالعراق رجلاً اجتمعت فيه خصال هي فيه، فبارك الله له فيما أعطاه من الحلم والعلم والفهم، فإنَّه لكما قيل:

يَزِينُكَ إمَّا غابَ عنك فإن دَنا ... رأيتَ لهُ وجهاً يسرُّكَ مُقْبِلا
يُعلِّمُ هذا الخلقَ ما شذَّ عنهم ... من الأدبِ المجهولِ كهفًا ومعقِلا
وبحسُن في ذاتِ الإلـهِ إذا رأى ... مضيماً لأهل الحق لا يَسْأَمُ البَلاَ
وإخوانُه الأدنون كلُّ مُوفقٍ ... بصيرٍ بأمر الله يسمو على العُلاَ

قال محمد بن نصر المروزي: صرت إلى دار أحمد بن حنبل مراراً، وسألته عن مسائل، فقيل له: أكان أكثر حديثاً أم إسحاق؟ قال: بل أحمد أكثر حديثاً وأورع، أحمد فاق أهل زمانه.

قال الحافظ الذهبي: قلت: كان أحمد عظيم الشأن، رأساً في الحديث، وفي الفقه، وفي التأله، أثنى عليه خلق من خصومه، فما الظن بإخوانه وأقرانه؟! وكان مهيباً في ذات الله، حتى قال أبو عبيد: ما هبت أحداً في مسألة، ما هِبت أحمد بن حنبل(١).

هذا وقد صبر الإمام أحمد بن حنبل على طلب العلم وتحصيله، فكان يسهر الليل كله في المذاكرة مع أصحاب الحديث.

جاء في (مناقب الإمام أحمد) لابن الجوزي(٢): «قال قتيبة بن سعيد، كان وكيع بن الجراح إذا صلَّى العتَمة ينصرف معه أحمد بن حنبل، فيقف على الباب فيذاكره وكيع.

فأخذ وكيع ليلة بعِضَادَتي الباب، ثم قال: يا أبا عبدالله، أريد أن ألقي عليك حديث سفيان، قال: هات، قال: تحفظ عن سفيان، عن سلمة بن كهيل كذا وكذا؟ قال: نعم، حدثني يحيى... فيقول ـ أي: وكيع ـ: تحفظ عن سلمة: كذا وكذا؟ فيقول: حدثنا عبدالرحمٰن... فيقول: ـ أي: وكيع ـ: عن سلمة كذا وكذا؟ فيقول: أنت حدثتنا، حتى يفرغ عن سلمة.

ثم يقول أحمد: فتحفظ عن سلمة كذا وكذا؟ فيقول وكيع: لا، فلا يزال يلقي عليه ويقول وكيع: لا، ثم يأخذ في حديث شيخ شيخ.

قال: فلم يزل قائماً حتى جاءت الجارية، فقالت: قد طلع الكوكب، أو قالت: الزُّهَرَة».

وقال عبدالرحمٰن بن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: حضرتُ قتيبة بن سعيد ببغداد، وقد جاءه أحمد بن حنبل فسأله عن أحاديث، فحدثه بها، ثم جاءه أبو بكر بن أبي شيبة وابن نُمير بالكوفة ليلةً، وحضرتُ معهما، فلم يزالا ينتخبان عليه وأنتخب معهما إلى الصبح.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١١/٢٠٢، ٢٠٣.
(٢) ص: ٢٦.

وجاء في (مناقب الإمام أحمد) لابن الجوزي[١]: «قال عبدالله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: كنت ربما أردت البكورَ في الحديث، فتأخذ أمي بثيابي وتقول: حتى يؤذن النَّاس أو حتى يصبحوا. وكنت ربما بكَّرتُ إلى مجلس أبي بكر بن عياش وغيره».

ومرَّ أحمد بن حنبل جائياً من الكوفة، وبيده خريطة - هي الكيس له خيط يحيط بفمه يشدُّ فيُغلَق - فيها كتب، فأخذت بيده فقلتُ: مرةً إلى الكوفة! ومرَّةً إلى البصرة!

إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث لم يكفه؟ فسكت، ثم قلت: ستين ألفاً؟ فسكت، فقلت: مئة ألف؟ فقال: حينئذٍ يعرف شيئاً، قال أحمد بن منيع: فنظرنا فإذا أحمد كتب ثلاث مئة ألف، عن بهز بن أسد، وعفان بن مسلم، وأظنه قال: «وروح بن عبادة».

وقال صالح بن أحمد بن حنبل: رأى رجل مع أبي مَحْبَرة، فقال له: يا أبا عبدالله، أنت قد بلغت هذا المبلغ، وأنت إمام المسلمين! - يعني: ومعك المحبرة تحملها؟! - فقال: **مع المحبرة إلى المقبرة**.

وقال عبدالله بن محمد البغوي سمعت أبا عبدالله أحمد بن حنبل يقول: **أنا أطلب العلمَ إلى أن أُدخل القبر**.

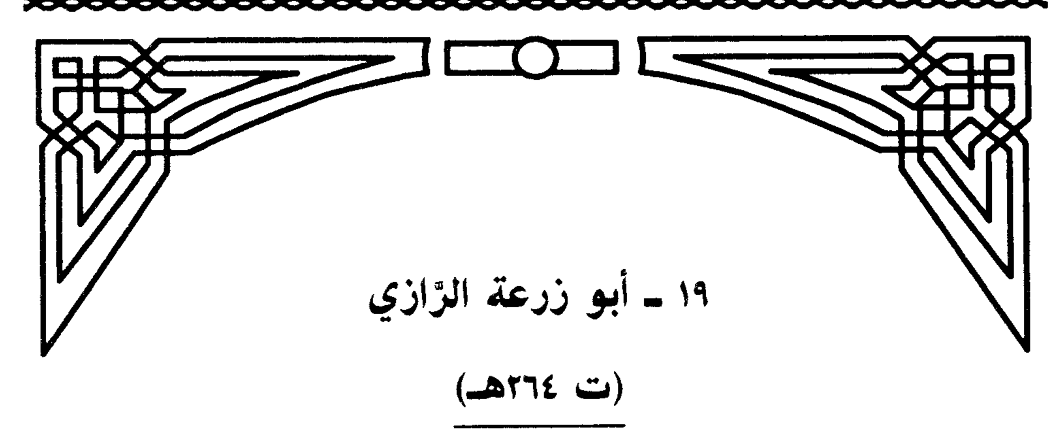
وقال محمد بن إسماعيل الصائغ: كنت في إحدى سفراتي ببغداد، فمرَّ بنا أحمد بن حنبل وهو يَعْدُو، ونعلاه في يده، فأخذ أبي هكذا بمجامع ثوبه، فقال: يا أبا عبدالله، ألا تستحي؟ إلى متى تعدو مع هؤلاء الصبيان؟! قال: **إلى الموت**.

ولم يترك الإمام أحمد بن حنبل تعلم العلم حتى وهو في غمرات الموت وكربته وشدته. قال ولده صالح بن أحمد: قال لي أبي: جئني بالكتاب الذي فيه حديث ابن إدريس عن ليث عن طاوس: أنَّه كان يكره الأنين، فقرأته عليه[٢].

---

(١) ص: ٢٦.

(٢) صفة الصفوة: ١/٤٨٨.



١٩ ـ أبو زرعة الرّازي

(ت ٢٦٤هـ)

حتى وهو في النزع بلغ حديثاً من حفظه لما توقف أقرانه من الحفاظ في إسناده

الإمام، سيِّد الحفاظ، عبيدالله بن عبدالكريم بن يزيد بن فَرُّوخ مُحدِّث الرَّي(١).

ابتدأ أبو زرعة بطلب الحديث في سن مبكرة، واهتمَّ والده به، وربَّاه على نهج المحدثين، فكان يأخذه إلى مجالس العلماء كي يعتاد عليها، ويتعرف على روادها، وهو لا يزال غلاماً صغيراً، فيحدثنا أبو زرعة عن نفسه حينما بدأ يدخل مجالس أهل العلم، فيقول: ذهب بي أبي إلى عبدالرحمٰن بن عبدالله بن سعد الدشتكي(٢)، فلما رأيته نفرت من هيبته، فتقدم أبي إليه فسلم عليه، وقعد بجنبه فلم أزل أدنو، وأنظر إليه، ولا أجسر من الهيبة أن أدنو

(١) سير أعلام النبلاء: ٦٥/١٣. وانظر أيضاً الدراسة المفيدة التي أعدها الدكتور سعدي الهاشمي عن أبي زرعة الرازي في الجزء الأول من كتابه (أبو زرعة الرازي وجهوده في السنة النبوية).

(٢) عبدالرحمٰن بن عبدالله بن سعد بن عثمان الدشتكي، أبو محمد الرازي المقرئ، روى عن أبيه، وأبي خيثمة، وجرير بن عبدالحميد وغيرهم.
قال عنه أبو حاتم: صدوق كان رجلاً صالحاً.
وقال ابن معين، لا بأس به. (تهذيب التهذيب) ٢٠٧/٦.

منه، فلما رآني أتقدم قال لأبي: مَن هذا؟ فقال: هذا ابني، قال: أدعه. فدعاني فجئت حتى دنوت من أبي فقال لي: عبدالرحمٰن أدن مني، وأنا أدنو شيئاً بعد شيء، فلم يزل يقول: أدن، حتى دنوت فأظن أقعدني على فخذه أو أقعدني بجنبه... ثم قال: أبو زرعة فتفرس في، فقال لأبي: إنَّ ابنك هذا سيكون له شأن ويحفظ القرآن، والعلم، وذكر أشياء(١).

كان أبو زرعة الرازي صاحب همة عالية، طلابة للعلم حريصاً على مجالسه يقول عن نفسه: «كنا نبكر بالأسحار إلى مجلس الحديث نسمع من الشيوخ، فبينما أنا يوماً من الأيام قد بكرت، وكنت حدثاً إذ لقيني في بعض طرق الري مَن سماه أبي ونسيته أنا، شيخ مخضوب بالحناء فيما وقع لي، فسلَّم عليَّ فرددت السلام فقال لي: يا أبا زرعة، سيكون لك شأن وذكر...». وكان يتتبع العلماء في مجالسهم، ولقد كان علماء بلده يعرفون فضله وحفظه للحديث منذ نعومة أظفاره، ويفتخرون به أمام مَن يقدم عليهم من الحفاظ. فقد روى الخطيب بسنده إلى أبي العباس محمد بن إسحاق الثقفي أنَّه قال: «لما انصرف قتيبة بن سعيد إلى الري سألوه أن يحدثهم فامتنع وقال: أحدثكم بعد أن حضر مجالسي أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، وأبو بكر بن أبي شيبة، وأبو خيثمة؟

قالوا له: فإن عندنا غلاماً يسرد كل ما حدثت به مجلساً مجلساً، قم يا أبا زرعة، فقام أبو زرعة فسرد كل ما حدث به قتيبة، فحدثهم قتيبة»(٢).

وممَّا يدل على تبكيره في طلب العلم وتقييد الحديث قوله عن نفسه: «إنَّ في بيتي ما كتبته منذ خمسين سنة، ولم أطالعه منذ كتبته»(٣).

وكان يقول: «أنا أحفظ ستمئة ألف حديث صحيح وأربعة عشر ألف إسناد في التفسير والقراءات، وعشرة آلاف حديث مزورة، قيل له: ما بال المزورة تحفظ؟ قال: إذا مرَّ بي منها حديث عرفته»(٤).

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل: ٣/ ق ١/٣٥٤.
(٢) تاريخ بغداد: ١٠/٣٣٢.
(٣) طبقات الحنابلة: ١/٢٠١.
(٤) شرح علل الترمذي لابن رجب: ١٩٢.

وكان رحمه الله تعالى يكثر من ملازمة الأئمة الأفذاذ، ويستزيد منهم كتابة الحديث مِثل: أحمد بن حنبل، وابن أبي شيبة.

روى الخطيب البغدادي بسنده إلى أبي زرعة أنَّه قال: كتبت عن رجلين مئتي ألف حديث، كتبت عن إبراهيم الفراء مئة ألف حديث، وعن ابن أبي شيبة عبدالله مئة ألف حديث[١]، وكتبت عن أبي سلمة التبوذكي عشرة آلاف حديث، وعن حماد بن سلمة عشرة آلاف حديث أيضاً.

وكان إلى جانب تلقيه العلم وروايته للحديث، وتقييده بنشر السنَّة النبويَّة، ويعلمها للناس، ويدافع عنها.

وكان تقبل عليه جموع الطلبة فيروي لهم ويسمع منهم الحديث، ويصوب الصحيح، ويعلل الضعيف.

يقول عنه ابن أبي حاتم: «كان أبو زرعة قلَّ يوم ألاَّ يخرج معه إلى المسجد كتابين أو ثلاثة كتب، لكل قوم كتابهم الذي سألوه فيه، فيقرأ على كل قوم ما يتفق له القراءة من كتاب، ثم يقرأ للآخر كتابه الذي قد سأل فيه أوراقاً، ثم يقرأ للثالث كمثل ذلك، فإذا رجعوا أولئك في يومهم يكون قد أخرج معه كتابهم فجيء إلى الموضع الذي كان قرأ عليهم إلى ذلك المكان، فيقرأ من غير أن يسألهم: إلى أين بلغتم؟ وما أول مجلسكم؟ فكان ذلك دأبه كل يوم لا يستفهم من أحد منهم أول مجلسه، وهذا بالغداة وبالعشي كمثل، ولا أعلم أحداً من المحدثين قدر على هذا»[٢].

وارتحل أبو زرعة الرازي في طلب العلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة بصحبة مجموعة من أهل الري يطلبون الحديث، وأقام أبو زرعة في رحلته الأولى هذه عشرة أشهر.

ثم رحل مرة ثانية وهي من أطول الرحلات مدة. فقد ابتدأ بها من سنة **٢٢٧هـ** إلى أول سنة **٢٣٢هـ**. يقول أبو زرعة عن هذه الرحلة:

---

(١) تاريخ بغداد: ٣٢٧/١٠.

(٢) تقدمة الجرح والتعديل: ٣٣٢.

وكان رحمه الله تعالى يكثر من ملازمة الأئمة الأفذاذ، ويستزيد منهم كتابة الحديث مِثل: أحمد بن حنبل، وابن أبي شيبة.

روى الخطيب البغدادي بسنده إلى أبي زرعة أنَّه قال: كتبت عن رجلين مئتي ألف حديث، كتبت عن إبراهيم الفراء مئة ألف حديث، وعن ابن أبي شيبة عبدالله مئة ألف حديث[١]، وكتبت عن أبي سلمة التبوذكي عشرة آلاف حديث، وعن حماد بن سلمة عشرة آلاف حديث أيضاً.

وكان إلى جانب تلقيه العلم وروايته للحديث، وتقييده بنشر السنَّة النبويَّة، ويعلمها للناس، ويدافع عنها.

وكان تقبل عليه جموع الطلبة فيروي لهم ويسمع منهم الحديث، ويصوب الصحيح، ويعلل الضعيف.

يقول عنه ابن أبي حاتم: «كان أبو زرعة قلَّ يوم ألاَّ يخرج معه إلى المسجد كتابين أو ثلاثة كتب، لكل قوم كتابهم الذي سألوه فيه، فيقرأ على كل قوم ما يتفق له القراءة من كتاب، ثم يقرأ للآخر كتابه الذي قد سأل فيه أوراقاً، ثم يقرأ للثالث كمثل ذلك، فإذا رجعوا أولئك في يومهم يكون قد أخرج معه كتابهم فجيء إلى الموضع الذي كان قرأ عليهم إلى ذلك المكان، فيقرأ من غير أن يسألهم: إلى أين بلغتم؟ وما أول مجلسكم؟ فكان ذلك دأبه كل يوم لا يستفهم من أحد منهم أول مجلسه، وهذا بالغداة وبالعشي كمثل، ولا أعلم أحداً من المحدثين قدر على هذا»[٢].

وارتحل أبو زرعة الرازي في طلب العلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة بصحبة مجموعة من أهل الري يطلبون الحديث، وأقام أبو زرعة في رحلته الأولى هذه عشرة أشهر.

ثم رحل مرة ثانية وهي من أطول الرحلات مدة. فقد ابتدأ بها من سنة **٢٢٧هـ** إلى أول سنة **٢٣٢هـ**. يقول أبو زرعة عن هذه الرحلة:

---

(١) تاريخ بغداد: **٣٢٧/١٠**.

(٢) تقدمة الجرح والتعديل: **٣٣٢**.

«خرجت من الري المرة الثانية سنة سبع وعشرين ومئتين، ورجعت سنة اثنتين وثلاثين في أولها، بدأت فحججت ثم خرجت إلى مصر فأقمت بمصر خمسة عشر شهراً، وكنت عزمت في بدو قدومي مصر أني أقِل المقام بها، فلما رأيت كثرة العلم بها، وكثرة الاستفادة عزمت على المقام، ولم أكن عزمت على سماع كتب الشافعي، فلما عزمت على المقام وجهت إلى أعرف رجل بمصر بكتب الشافعي فقبلتها منه بثمانين درهماً أن يكتبها كلها وأعطيته الكاغد، وكنت حملت معي ثوبين دبيقيين لأقطعهما لنفسي فلما عزمت على كتابتها أمرت ببيعها فبيعا بستين درهماً واشتريت مئة ورقة كاغد بعشرة دراهم كتبت فيها كتب الشافعي...».

ويحدثنا أبو زرعة عن رحلته الثالثة فيقول: «أقمت في خرجتي الثالثة بالشام، والعراق، ومصر أربع سنين وستة أشهر فما أعلم أني طبخت فيها قدراً بيد نفسي».

وكان رحمه الله تعالى حريصاً على السماع في كل بلد من بلاد المسلمين حتى أنَّه كان يذهب إلى ثغور المسلمين فيسمع من العلماء المرابطين المجاهدين، فقد روى الخليلي بسنده إلى البرذعي أنَّه قال: «سمعت أبا زرعة الرازي يقول: لم أعرف لنفسي رباطاً خالصاً في ثغر، قصدت قزوين مرابطاً ومن همتي أن أسمع الحديث من الطنافسي، ومحمد بن سعيد بن سابق، ودخلت بيروت مرابطاً ومن همتي أن أسمع عن العباس ابن الوليد، ودخلت رهَا[1] مرابطاً ومن نيتي أن أسمع عن أبي فروة الرَّهاوي، فلا أعرف لنفسي رباطاً خلصت نيتي فيه، ثم بكى»[2].

قال عبدالله بن أحمد بن حنبل: «لما ورد علينا أبو زرعة نزل عندنا، فقال لي أبي: يا بني، قد اعتضت بنوافلي مذاكرة هذا الشيخ».

---

(١) الرهاء مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، وتسمى في الوقت الحاضر بـ: (أورفا) (معجم البلدان) مادة: (رها).

(٢) الإرشاد في تاريخ علماء الحديث: ٤.

ولقد استفاد الإمام أحمد بن حنبل على غزارة علمه من تلميذه أبي زرعة، وصحح له بعض الأحاديث التي توقف في تصحيحها.

فقد روى الخطيب البغدادي بسنده إلى محمد بن صالح البغدادي أنَّه قال: «رأيت أبا زرعة دخل على أحمد بن حنبل وحدثه، ورأيته قد مجمج[(١)] على حديث كان حدثه عبدالرزاق، عن معمر، عن منصور، عن جابر: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا سجد جافى بين جنبيه. وقد مجمج عليه أحمد، فقال له أبو زرعة: أي شيء خبر هذا الحديث؟ فقال: أخاف أن يكون غلطاً على رسول الله ﷺ، وذلك أنَّ سفيان قد حدَّث عن منصور عن إبراهيم: أنَّه كان إذا سجد جافى بين جنبيه، فقال له أبو زرعة: يا أبا عبدالله، الحديث صحيح، فنظر إليه فقال أبو زرعة: يا أبا عبدالله، الحديث صحيح. فنظر إليه فقال أبو زرعة: حدثنا أبو عبدالله البخاري محمد بن إسماعيل، حدثنا رضوان البخاري قال: حدثنا فضيل بن عياض عن منصور، عن سالم عن جابر: إنَّ رسول الله ﷺ كان إذا سجد جافى بين جنبيه. وحدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف الصنعاني، أخبرنا معمر، عن سالم، عن جابر: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا سجد جافى بين جنبيه. فقال أحمد: **هات القلم إليَّ فكتب: صح، صح، صح، ثلاث مرات**[(٢)].

ولقد كان يجتمع عليه الحفاظ لامتحانه ومذاكرته. قال أحمد بن خالد الحروري: «دخل أبو زرعة بغداد متوجهاً إلى الحج فاجتمع إليه الحفاظ يذاكرونه وهو يجيب ويغلبهم في المذاكرة حتى عجزوا عن مذاكرته، فقام واحد منهم فقال في أذنه: (يا داماما)، وشتمه بأقبح شتيمة فتبسم أبو زرعة وقال له: يا هذا، اشتغل بالعلم فإنَّ هذا بعيد مما نحن فيه»[(٣)].

---

(١) المجمجة: تغير الكتاب وإفساده عما كتب.
(٢) تاريخ بغداد: ٣٢٦/١٠.
(٣) تاريخ دمشق: ج ٣٤٥/١٠..

❑ عقده مجالس المناظرة مع كبار حفاظ الحديث:

روى الخطيب بسنده إلى أبي زرعة أنَّه قال: (دخلت البصرة فصرت إلى سليمان الشاذكوني يوم الجمعة وهو يحدث، وهو أول مجلس جلست إليه فقال: حدثنا يزيد بن زريع، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر عن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن جابر، عن النبيّ ﷺ: «**ما من رجل يموت له ثلاثة من الولد فتمسه النَّار إلاَّ تحلَّة القسم**»، فقلت للمستملي: ليس هذا من حديث عاصم بن عمر، إنَّما هذا رواه محمد بن إبراهيم، فقال له فرجع إلى محمد بن إبراهيم، قال: وذكر في هذا المجلس أيضاً فقال: حدثنا ابن أبي غنية، عن أبيه، عن سعد بن إبراهيم، عن نافع بن جبير، عن أبيه أنه قال: لا حلف في الإسلام، قال: فقلت هذا وهم، وهم فيه إسحاق بن سليمان، وإنَّما هو سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جبير، قال: مَن يقول هذا؟ قلت: حدثنا إبراهيم بن موسى الفراء، حدثنا ابن أبي غنية، عن أبيه، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جبير، قال: فغضب ثم قال لي: ما تقول فيمن جعل الآذان مكان الإقامة؟ قلت: حدثنا قبيصة، عن سفيان، عن جابر، عن الشعبي، قال: ومن غير هذا؟ قلت: إبراهيم، قال: من عن إبراهيم؟ قلت: حدثنا أبو نعيم، حدثنا منصور بن أبي الأسود، عن مغيرة، عن إبراهيم، قال: أخطأت، قلت: حدثنا أبو نعيم، حدثنا جعفر الأحمر عن مغيرة، عن إبراهيم، قال: أخطأت، قلت: حدثنا أبو نعيم، حدثنا أبو كدينة عن مغيرة، عن إبراهيم. قال: أصبت، قال أبو زرعة: كتبت هذه الأحاديث الثلاثة عن أبي نعيم فما طالعتها منذ كتبتها فاشتبه علي ثم قال: وأي شيء غير هذا؟ قلت: معاذ بن هشام، عن أشعث، عن الحسن، قال: هذا سرقته مني ـ وصدق ـ كان ذاكرني به رجل ببغداد فحفظته عنه).

ولقد كان بعض الأئمة يعكف على مصنفاته ومصنفات غيره استعداداً لمذاكرته بها، نقل إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني عن سليمان بن عبدالرحمٰن أبي أيوب الدمشقي أنه قال: (بلغني ورود هذا الغلام الرازي،

يعني: أبا زرعة، فدرست للقائه ثلاثمائة ألف حديث). وحتى كان بعض المتشددين في الرواية ومَن فيه الجفاء يعرف حقه وينزله منزلته.

يقول أبو زرعة: «لما أتيت محمد بن عائذ وكان رجلاً جافياً ومعي جماعة فرفع صوته فقال: من أين أنتم؟ قلنا: من بلدان مختلفة من خراسان، من الريّ، من كذا وكذا، قال: أنتم أمثل من أهل العراق، قال ما تريدون؟ ورفع صوته، قلنا: شيئاً من حديث يحيى بن حمزة فلم أزل أرفق به وأداريه حتى حدثني بما معي ثم قال: خذ الكتاب فاذهب به معك، قال أبو زرعة: فدعوت له وشكرته على ما فعل، قلت: أنا أجل كتابك عن حمله وأنا أصيب نسخة هذا عند أصحابنا فذهبت فأخذت من بعض أصحاب الحديث فنسخته على الوجه، وسألته كتاب الهيثم بن حميد فأخرج إليّ جزءاً عن الهيثم بن حميد وكان عند هشام بن عمار، عن الهيثم بن حميد شيء يسير فأخرج هو جزءاً عن الهيثم فاستغنمته وكتبته على الوجه، وسألته كتاب: «الفتن» عن الوليد بن مسلم فأجابني، وتعجب الدمشقيون مما يفعل بي، ونسخت كتاب: «الفتن» فأتيته مع رفقائي فقال: إنما أجبتك ولم أجب هؤلاء، فلم أزل أرفق به وأداريه حتى حدثنا به وسمعوا معي».

ولقد درس حديث ابن وهب واعتنى به أثناء إقامته بمصر وأتقنه، وذلك لوجود مظانه، يقول محدثاً: (نظرت في نحو من ثمانين ألف حديث من حديث ابن وهب بمصر، وفي غير مصر ما أعلم أني رأيت له حديثاً لا أصل له)، ولقد حفظ لنا ابن أبي حاتم نصاً لطيفاً يدل على اهتمام العلماء والمحدثين بكتب الشافعي، وحرص المصريين على روايتها فيقول: (سمعت أبا زرعة وقلت له: أخبرت أنَّه قرأ عليك الربيع بالليل، فقال: ما أعلم أني سمعت منه بالليل إلاَّ مجلساً واحداً رافقني رجل فلما تهيأ خروجي امتنع عن الخروج، قلت: ما لك؟ قال: قد بقي عليّ شيء من كتب الشافعي وكان قد سمع كتب الشافعي من حرملة، فقلت لرفيقي: ترضى أن يقرأ عليك الربيع؟ قال: نعم، قال أبو زرعة: فلقيت الربيع فأخبرته بالقصة وسألته أن يجيئنا ليلاً فيقرأ على رفيقي ما بقي عليه فجاءنا ليلاً فقرأ علينا،

قلت: أخبرت أنَّ الربيع قرأها عليك في أربعين يوماً؟ قال: لا يا بني، إنَّما كنت أسمع منه في وقت أتفرغ فيه إليه، وكنت آخذ ميعاده في مسجد الجامع فربما أبطأت عليه، وربما لم أجيء فلا ينصرف فيقول: إذا لم يمكنك المجيء فأكتب على الإسطوانة حتى أَمْضي).

وبعد أن قضى هذه الفترة بين السماع من الشيوخ وبين التدوين عزم على الرحيل، فجاء ليودع يحيى بن عبدالله بن بكير ـ وهو أحد الشيوخ الذين أكثر عنهم ـ فيقول: (أردت الخروج من مصر، فجئت لأودع يحيى بن عبدالله بن بكير فقلت: تأمر بشيء؟ فقال: أخلف الله علينا بخير)، وهذا يدل على الحب العميق الذي تركه في قلوب محدثي مصر وعلمائها فهذا الربيع بن سليمان صاحب الشافعي يقول: (لم نلق مثل أبي زرعة وأبي حاتم ممن ورد علينا من العلماء)، وقال عنه حافظ مصر يونس بن عبدالأعلى: (أبا زرعة أشهر في الدنيا من الدنيا).

وأبو زرعة يعد من الحفاظ القلائل الذين حفظوا هذا القدر العظيم من كلام النبوة، كابن أبي شيبة، والبخاري، وإبراهيم بن موسى الرازي، وغيرهم حتى إنَّ الإمام أحمد صرح بحفظه وسرده للأحاديث من بين أقرانه فقد سأله ابنه عبدالله: (يا أبت، مَن الحفاظ؟ قال: يا بني، شباب كانوا عندنا من أهل خراسان، وقد تفرقوا، قلت: مَن هم يا أبت؟ قال: محمد بن إسماعيل ذاك البخاري، وعبيدالله بن عبدالكريم ذاك الرازي، وعبدالله بن عبدالرحمٰن ذاك السمرقندي، والحسن بن شجاع ذاك البلخي)، ثم قال له: (يا أبت، فمن أحفظهم؟ قال: أسردهم أبو زرعة، وأعرفهم محمد بن إسماعيل، وأتقنهم عبدالله، وأجمعهم للأبواب الحسن).

وإذا أردنا أن نعرف الوسائل التي اتبعها محدثنا حتى وصل إلى هذه المنزلة الرفيعة في الحفظ فهي بلا شك تقوى الله، والتقرب إليه بالنوافل والطاعات. قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، ودعاء المخلصين من شيوخه، والصالحين الذين صحبهم، ولما كان الجزاء من جنس العمل، فكان يترك الرذائل، ويصون سمعه عن الباطل أكرمه الله بالحفظ المتواصل، فقد ذكر الخطيب البغدادي عنه إذ قال: (ما سمعت أذني شيئاً من العلم إلاّ

وعاه قلبي، وإني كنت أمشي في سوق بغداد فأسمع من الغرف صوت المغنيات، فأضع أصبعي في أذني مخافة أن يعيه قلبي). ولقد كان شديد التعاهد لمذاكرة تراث المصطفى ﷺ. يقول أبو زرعة لأحد أصحابه: (إذا مَرضتُ شهراً أو شهرين تَبيَّنَ عَلَيّ في حفظ القرآن، وأمَّا الحديثُ فإذا تركته أياماً تبيّن عليّ، ثم قال أبو زرعة: نَرى قوماً من أصحابنا كتبوا الحديثَ تركُوا المجالسةَ مُنْذُ عشرين سنة أو أقل إذا جلسوا اليومَ مع الأحداث كأنَّهم لا يعرفون ولا يُحسنون الحديثَ، ثم قال: الحديثُ مثلُ: الشّمس إذا حُبس من الشرق خمسةَ أيام لا يعرف السَّفر فهذا الشأنُ يَحتاجُ أن تتعاهده أبداً). ولقد كان من حرصه على الحفظ أن ترك أكل الجبن والخل لما كان يشيع في عصره من سوء أثرهما على الحفظ. يقول ابن أبي حاتم: وكان أبو زرعة لا يأكل الجبن ولا الخل، ولقد استطاع ـ رحمه الله ـ ملازمة هذا المنهج حتى بقي حافظاً متمتعاً بذاكرة قوية حتى إنَّه كان يقول: (إنَّ في بيتي ما كتبته منذ خمسين سنة، ولم أطالعه منذ كتبته، وإني أعلم في أي كتاب هو، في أي ورقة هو، في أي صفحة هو، في أي سطر هو).

ولقد تمتع أبو زرعة بمكانة مرموقة بين علماء عصره، حازت السبق والتفوق على أقرانه، وانتشر ذكره وذاع صيته في كل مركز علمي يدخله، وما من حافظ كبير وإمام جليل يلتقي به إلاَّ ترجم حبه له وإعجابه به، بآيات من الثناء العاطر والشكر المتواصل، وأخذ حبهم وتقديرهم لأبي زرعة يزداد كلما ازداد طلباً للحديث وتمسكاً به والذب عنه، وأهلته إحاطته بعلوم السنَّة الشريفة، ومعرفته بدقائق رواياتها لأن يكون حكماً بين المحدثين إذا اختلفوا، وأقواله في الرواة أساساً إذا جرحوا أو عدلوا. ولم يقتصر هذا على تلاميذه بل عمَّ أقرانه وشيوخه، وليس هذا في حدود الريّ بل في البلاد الأخرى أيضاً حتى إنَّ إمام السنَّة أحمد بن حنبل كان يقتصر على أداء الفرائض حينما ينزل عنده أبو زرعة في زياراته لبغداد حرصاً على مذاكرته، وصحح أحاديث كان متردداً في ثبوتها بمعرفته، وكثيراً ما كان يحتكم أقرانه إليه ليميّز لهم الأحاديث المعللة من الصحيحة، حتى إنَّ الحافظ محمد بن مسلم بن وارة كان يسأله عن بعض ما يخفى عليه من فقه الحديث وغريبه،

من ذلك ما ذكر عنه أنَّه قال: (ما زلت أستجفي عائشة رضي الله عنها في قولها لرسول الله ﷺ: وبمنة الله لا بمنتك، حتى سألت أبا زرعة الرازي فقال: وآت الحمد أهله). ولقد كان العلماء يطمئنون للأثر أو الخبر بمجرد إقرار أبي زرعة له، فقد أورد ابن الصلاح في مقدمته خبراً يتعلق بتحديد مفهوم الصحبة والصحابي، ثم قال: (إسناده جيد حدث به مسلم بحضرة أبي زرعة).

يرجع الفضل إليه في خلو صحيح مسلم من الأحاديث المنتقدة. يقول ابن الصلاح: (وممَّا جاء في فضل صحيح مسلم ما بلغنا عن مكي بن عبدان أحد حفاظ نيسابور أنَّه قال: سمعت مسلماً يقول: عرضت كتابي هذا على أبي زرعة الرازي فكل ما أشار أنَّ له علة تركته، وكل ما قال: إنَّه صحيح وليس له علة خرجته).

وكان الحب والتقدير يعبر عنه أحياناً بالدعاء. فقد ذكر ابن أبي حاتم عن الحسن بن أحمد بن الليث أنَّه قال: «سمعت أحمد بن حنبل، وسأله رجل، فقال: بالري شاب يقال له: أبو زرعة، فغضب أحمد وقال: تقول: شاب؟ كالمنكر عليه، ثم رفع يديه وجعل يدعو الله عزَّ وجلَّ لأبي زرعة ويقول: **اللَّهُمَّ انصره على من بغى عليه، الله عافه، اللَّهُمَّ ادفع البلاء. اللَّهُمَّ** - في دعاء كثير.

قال الحسن: فلما قدمت حكيت ذلك لأبي زرعة، وحملت إليه دعاء أحمد بن حنبل له، وكنت كتبته عنه، فكتبه أبو زرعة، وقال لي أبو زرعة: ما وقعت في بلية فذكرت دعاء أحمد إلاَّ ظننت أنَّ الله عزَّ وجلَّ يفرج بدعائه عني».

وكان محمد بن مسلم بن وارة يدعو له في صلاته بعد موته.

وبعد هذه الحياة المليئة بالأسفار، وطلب الحديث ونشره وروايته وحض طلاب العلم على التمسك بسنَّة الرسول الكريم أدركه الأجل على أثر مرض ظَلَّ ينتابه مدة، ولقد وصفه أبو حاتم بقوله: (مات أبو زرعة مطعوناً مبطوناً يعرق جبينه في النزع)، وكان لسانه يردد ذكر الله، ذكر المطمئن

المشتاق إلى لقاء ربه ويقول: (اللَّهُمَّ إني أشتاق إلى رؤيتك فإن قال لي: بأي عمل اشتقت إليَّ؟ قلت: برحمتك يا رب)[1].

ولقد ضرب أبو زرعة مثلاً عظيماً في المحبة للسنَّة النبويَّة، والحرص على تبليغها أمام أقرانه وتلاميذه من المحدثين حينما توقفوا في روايتهم حديث التلقين، ولنستمع للخبر كما يرويه أبو جعفر التستري فيقول: (حضرنا أبا زرعة ـ يعني: الرازي ـ بماشهران[2]، وكان في السوق، وعنده أبو حاتم، ومحمد بن مسلم، والمنذر بن شاذان، وجماعة من العلماء فذكروا حديث التلقين وقوله ﷺ: «**لقنوا موتاكم لا إلـه إلاَّ الله**»، قال: فاستحيوا من أبي زرعة، وهابوه أن يلقنوه فقالوا: تعالوا نذكر الحديث، فقال محمد بن مسلم: حدثنا الضحاك بن مخلد عن عبدالحميد بن جعفر، عن صالح وجعل يقول ولم يجاوز، وقال أبو حاتم: حدثنا بندار، حدثنا أبو عاصم، عن عبدالحميد بن جعفر، عن صالح، ولم يجاوز، والباقون سكتوا، فقال أبو زرعة ـ وهو في السوق ـ: حدثنا بندار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبدالحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي غريب، عن كثير بن مرة الحضرمي، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن كان آخر كلامه: لا إلـه إلاَّ الله دخل الجنة**»[3]. وتوفي رحمه الله، وزاد أبو حاتم: (فصار البيت ضجة ببكاء مَن حضر)[4].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) أبو زرعة الرازي وجهوده في السنة النبوية ج٢٣٩/١. للدكتور سعدي الهاشمي.

(٢) ماشهران: إحدى ـ قُرى الريّ ـ (معجم البلدان): مادة (ماشهران).

(٣) رواه أبو داود في سننه في كتاب الجنائز ـ باب التلقين ـ ٧٩/٤ بالسند نفسه. ورواه الحاكم في «المستدرك» ٥٠٠/١. وقال عنه: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٤) انظر الحادثة في: «تقدمة الجرح والتعديل»: ٣٤٥. و«تاريخ بغداد» ٣٣٥/١٠. و«الإرشاد» للخليلي. و«المنتظم» لابن الجوزي ٤٨/٥. و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٦٤/١.



٢٠ ـ أبو حاتم الرازي
(ت ٢٧٧هـ)

سأله ولده عبدالرحمن عن عقبة بن عبدالغافر، هل له صحبة؟ فأجابه وهو في النزع بأنَّه تابعي

الإمام، الحافظ، الناقد، شيخ المحدثين، محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران.

كان من بحور العلم، طوف البلاد، وبرع في المتن والإسناد، وجمع وصنَّف، وجرَّح وعدَّل، وصحَّح وعلَّل.

وأول كتابته للحديث كان في سنة تسع ومئتين، وهو من نظراء البخاري، ومن طبقته، ولكنه عُمِّر بعده أزيد من عشرين عاماً[(١)].

قال الخليلي: قال لي أبو حاتم اللبان الحافظ: قد جمعت مَن روى عنه أبو حاتم الرازي، فبلغوا قريباً من ثلاثة آلاف.

وقد حدَّث في رحلاته بأماكن، وارتحل بابنه، ولقي به أصحاب ابن عيينة ووكيع.

قال الخليلي: كان أبو حاتم عالماً باختلاف الصحابة، وفقه التابعين، ومَن بعدهم، سمعت جدي وجماعةً سمعوا علي بن إبراهيم القطان يقول:

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٣/٢٤٧.

ما رأيت مثل أبي حاتم! فقلنا له: قد رأيت إبراهيم الحربي، وإسماعيل القاضي؟ قال: ما رأيت أجمع من أبي حاتم، ولا أفضل منه.

عن أحمد بن علي الرقام سمعت الحسن بن الحسين الدارستيني قال: سمعت أبا حاتم الرازي، قال لي أبو زرعة: ما رأيت أحرص على طلب الحديث منك، فقلت له: إنَّ عبدالرحمٰن ابني لحريص، فقال: «مَن أشبه أباه فما ظلم».

قال الحافظ عبدالرحمٰن بن خراش: كان أبو حاتم من أهْل الأمانة والمعرفة.

وقال هِبَة اللَّهِ اللالِكائي: كان أبو حاتم إماماً حافظاً متثبتاً. ودكره اللالكائي في شُيوخ البُخاري.

وقال النَّسائي: ثقـةٌ.

قال ابن أبي حاتم: سمعتُ أبي يقول: جرى بَيني وبَين أبي زُرْعَة يوماً تمييزُ الحديثِ ومعرِفته، فَجَعَل يذكر أحاديثَ وعلَّلَها، وكذلك كنتُ أذكر أحاديث خطأ وعللها، وخطأ الشُّيُوخ، فقال لي: يا أبا حاتم، قلَّ مَن يَفْهَم هذا، ما أعز هذا! إذا رفعتَ هذا من واحد واثنين فما أقلَّ مَن [تجد مَن] يُحسن هذا! وربَّما أشُكُّ في شيءٍ، أو يَتَخالَجُني في حَديث، فإلى أن ألتقي مَعك لا أحدُ مَن يَشْفِيني منه، قال أبي: وكذلك كان أمري.

قال صالح بن أحمد الحافظ: حدثنا القاسم بن أبي صالح، سمعت أبا حاتم يقول: قال لي أبو زُرْعَة: ترفع يَدَيْك في القُنوت؟ قلت: لا، فتَرْفَعُ أنت؟ قال: نَعم، قلت: فما حُجَّتُك؟ قال: حديث ابن مَسْعود، قلتُ: رَواه لَيث بن أبي سُلَيم، قال: فحديث أبي هُرَيْرة؟ قلتُ: رواه ابنُ لَهِيْعَةِ، قال: حديث ابن عبَّاس؟ قلتُ: رواه عَوْف، قال: فما حُجَّتُك في تركه؟ قلت: حديث أَنَس بن مالك: أنَّ رسول الله ﷺ كان لا يَرْفَعُ يَدَيْهِ في شيءٍ مِنَ الدُّعَاءِ، إلاَّ في الاسْتِسْقَاء، فسكت.

وقال ابن أبي حاتم في أول كتاب: «الجَرْح والتَّعديل» له: سمعت

أبي يقول: جاءني رجلٌ من جِلَّة أصحاب الرَّأي، من أهل الفَهْم منهم، ومَعَه دفتر، فعرضه عليَّ، فقلتُ في بعضِه: هذا حدِيثٌ خطأ، قد دَخَل لصاحبِه حديثٌ في حديث، وهذا باطلٌ، وهذا مُنْكر، وسائرُ ذلك صِحاح، فقال: من أين علمتَ أنَّ ذاك خطأ، وذاك باطلٌ، وذاك كَذِبٌ؟ أأخبرك راوي هذا الكتاب بأنّي غَلِطْتُ، أو بأني كَذَبْتُ في حديث كذا؟ قلتُ: لا، ما أدري هذا الجُزء مَن راويه، غير أنّي أعلم أنَّ هذا الحديث خطأ، وأنَّ هذا باطل، فقال: تَدَّعي الغَيْبَ؟ قلتُ: ما هذا ادعاء غَيْبٍ، قال: فما الدَّليلُ على ما قلتَ؟ قلت: سَلْ عمَّا قلتُ، مَن يُحسِن مثل ما أُحسن، فإن اتفقْنا علمتَ أنَّا لم نُجازِف، ولم نقله إلاَّ بفهم، قال: ويقول أبو زُرْعة كقولك؟ قلتُ: نعم، قالَ: هذا عجبٌ، قال: فكتبَ في كاغَد ألفاظي في تلك الأحاديث، ثُم رَجَع إليَّ، وقد كتَب ألفاظَ ما تكلم به أبو زُرعة في تلك الأحاديث، فقالَ: ما قلتَ إنَّه كَذِب، قال أبو زُرْعة: هو باطلٌ، قلتُ: الكذبُ والباطلُ واحدٌ، قال: وما قلتَ: إنَّه منكرٌ، قال: هو منكرٌ، كما قلتَ، وما قلتَ: إنَّه صحيحٌ، قال: هو صحيح، ثم قال: ما أعجبَ هذا! تتفقان من غير مُواطأةٍ فيما بَينكما. قلت: فعند ذلك علمتَ أنَّا لم نُجازِف، وأنَّا قُلنا بعلْم ومعرفةٍ قد أُوتيناه، والدَّليلُ على صِحةِ ما نقولهُ: أنَّ ديناراً بَهْرَجاً يُحْمل إلى النَّاقد، فيقول: هذا بَهْرَج، فإنْ قيلَ لهُ: مِنْ أينَ؟ قلتَ: إنَّ هذا بَهْرَج؟ هل كنتَ حاضِراً حين بُهْرِجَ هذا الدِّينار؟ قال: لا، وإنْ قيل: أخبركَ الذي بَهْرَجَه؟ قال: لا، قيل: فَمِنْ أين قلتَ؟ قال: عِلْماً رُزِقْتُه، وكذلك نحنُ رُزِقنا مَعرفةَ ذلك، وكذلك إذا حُمِل إلى جَوْهَري فَصُّ ياقوتٍ وَفُصّ زُجاج، يَعرِف ذا من ذا، ويقول كذلك، وكذلك نحن رُزِقْنا عِلماً، لا يتهيأ لهُ أن نُخبِرَك كيفَ عَلِمْنا بأنَّ هَذا كذبٌ، أو هذا منكرٌ، فنعلم صِحة الحديث بعدالة ناقِلِيه، وأنْ يكونَ كلاماً يصلُح أن يكون كلامَ النُّبُوَّةِ، ونعرف سقمه وإنكارَه بتفرد مَن لم تصح عدالته.

قال: وسمعتُ أبي يقول: قلتُ على باب أبي الوليد الطَّيالِسِي: مَن أغْرَبَ عليَّ حَدِيثاً غريباً مسنداً لم أسمع به صَحيحاً، فله عليَّ دِرْهم يتصدَّقُ به، وكان ثَمَّ خَلْقٌ: أبو زُرْعَة، فَمَن دونه، وإنما كان مُرادي أن يُلْقَى عَلَيَّ

ما لم أسمع به، فيقولون: هو عندَ فلان، فأذهب وأسْمَعه، فلم يتهيأ لأحد أن يُغْرِبَ عليَّ حديثاً.

وسمعتُ أبي يقول: كان محمَّد بن يَزيد الأَسْفَاطِي قد وَلِعَ بالتَّفْسير وَتَحَفُّظِه، فقالَ يوماً: ما تحفظون في قوله تعالى: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [ق: ٣٦]، فبقي أصحابُ الحديثِ ينظُرُ بعضُهم إلى بعضٍ، فقلتُ: حدثنا أبو صالح، عن مُعاوية بن صالح، عن علي بن أبي طَلْحَة، عن ابن عَبَّاس، قال: ضَرَبُوا في البِلاد فاستحسن.

سمعتُ أبي يقول: قدِم محمَّد بن يحيى النَّيْسابُوري الرَّيَّ، فألقيتُ عليه ثَلاثَة عشرَ حَديثاً، من حديث الزُّهري، فلم يَعرِفْ منها إلاَّ ثلاثةَ أحاديث، وسائرُ ذلك لم تكنْ عندَه، ولم يعرِفْها.

سمعتُ أبي يقولُ: أول سنةٍ خرجْتُ في طَلَبِ الحديث، أقمْتُ سَبْعَ سِنين، أحصيتُ ما مشيت على قَدَمَيَّ زِيادةً على ألفِ فَرْسَخٍ.

قال الحافظ الذهبي: قلتُ: مسافةُ ذلك نَحْوُ أربعةِ أشْهرٍ، سيرَ الجادَّة.

قال: ثم تركتُ العَدَدَ بَعد ذلك، وخرجْتُ من البَحْرَين إلى مِصر ماشِياً، ثم إلى الرَّمْلَة ماشِياً، ثم إلى دِمَشْق، ثم أَنْطاكِية وطَرَسُوْس، ثم رَجَعْتُ إلى حِمْصَ، ثم إلى الرَّقَّة، ثم ركبتُ إلى العِراق، كل هذا في سَفَرِي الأول وأنا ابن عِشرين سَنةً، خرجت من الرَّي، فدخلتُ الكوفَةَ في رمضان سَنَة ثلاثَ عشرةَ، وجاءنا نَعِيُّ المقرِئ وأنا بالكوفة، ثم رحلْتُ ثانياً سَنة اثنتَين وأربعين، ثم رَجَعْتُ إلى الرَّي سَنة خمسٍ وأربعين، وحججْتُ رابعَ حجةٍ في سَنة خمسٍ وخمسين. وحَجَّ فيها عبدالرَّحمٰن ابنه.

قال عبدالرحمٰن بن أبي حاتم:

«سمعت أبي يقول: بقيتُ في سَنةِ أربعَ عشرةَ ثمانيةَ أشهرٍ بالبصْرة، وكانَ في نفسي أن أُقِيم سَنةً، فانقطَعَتْ نَفَقتي، فجعلتُ أبيعُ ثيابي حتى نَفِدتْ، وبقيتُ بلا نفقةٍ، ومضيتُ أطوفُ معَ صَديقٍ لي إلى المَشْيَخة، وأسمَعُ إلى المساء، فانصرفَ رفيقي، ورجَعْتُ إلى بيتي، فجعلتُ أشربُ

الماءَ من الجُوْع، ثُمَّ أصبحتُ، فغدا عليَّ رفيقي، فجعلتُ أطوف معه في سماع الحديث على جُوعٍ شَديدٍ، وانصرفْتُ جائعاً، فلمَّا كانَ من الغد، غدا عليَّ، فقال: مُرَّ بِنا إلى المشايخ، قلتُ: أنا ضعيفٌ لا يمكنُني، قال: ما ضعفُك؟ قلتُ: لا أكتُمك أمري قد مضى يومان ما طَعِمتُ فيهما شيئاً، فقال: قد بقي معي دِينارٌ، فنصفُه لك، ونجعلُ النِّصْفَ الآخر في الكِراء، فَخَرَجْنَا من البصرة، وأخذتُ منه النِّصفَ دينار.

وسمعتُ أبي يقول: خرجْنا من المدينةِ، من عند داود الجَعْفَري، وصِرْنا إلى الجَار وركبْنا البحرَ، فكانتِ الرِّيحُ في وجُوهِنا، فبقينا في البحرِ ثلاثةَ أشهر، وضاقتْ صُدورُنا، وفَنِيَ ما كانَ معنا، وخرجْنا إلى البَرِّ نَمْشِي أياماً، حتى فني ما تبقى معنا من الزَّاد والماء، فمَشَيْنا يوماً لم نأكلْ ولم نشربْ، ويوم الثَّاني كمثل، ويوم الثَّالث، فلمَّا كانَ يكونُ المساء صَلَّيْنا، وكنَّا نُلقي بأنفسِنا حيث كُنَّا، فلمَّا أصبحْنا في اليَومِ الثَّالث، جَعَلنا نَمشِي على قَدْر طاقَتِنا، وكنَّا ثلاثةَ أَنْفُس: شَيْخٌ نَيْسَابُوري، وأبو زُهَيْر المرْوَرُّوْذِي، فَسَقَطَ الشَّيْخ مَغْشِيّاً عليهِ، فَجِئْنا نُحَرِّكُه وهو لا يَعْقِل، فَتَركْناه، ومَشَيْنا قَدرَ فَرْسَخ، فَضَعُفْتُ، وسقطتُ مَغْشِيّاً عَليَّ، ومَضى صاحِبِي يَمشي، فَبَصُرَ مِن بُعْد قوماً، قَرَّبُوا سَفِينَتهم من البَرِّ، ونَزَلوا على بِئْر موسى، فلما عايَنَهُم، لَوَّحَ بِثَوْبِه إليهم، فجاؤوه معهم ماءً في إداوة، فَسَقَوه وأخذوا بِيَده، فقال لهم: الحقوا رَفِيقَيْنِ لي، فما شعرتُ إلاَّ برَجُل يصبُّ الماءَ على وَجْهي، فَفَتَحْتُ عينَيَّ، فقلتُ: اسقِني، فصبَّ من الماءِ في مَشْربة قليلاً، فشرِبْتُ، وَرَجَعَتْ إليَّ نَفسي، ثم سَقاني قليلاً، وأخذ بيدي، فقلت: ورائي شَيْخٌ مُلْقى، فذهَبَ جَماعَةٌ إليه، وأخَذ بيدي، وأنا أمشي وأجُرُّ رِجلَيَّ، حتى إذا بلغْتُ إلى عند سَفِينتهم، وأَتَوا بالشَّيْخ، وأَحْسَنُوا إلينا، فبقِينا أياماً حتى رَجَعَتْ إلينا أنفسُنا، ثم كَتَبُوا لنا كِتاباً إلى مدينة يقالُ لها: رَاية، إلى واليهم، وزَوَّدُونا من الكَعْك والسَّوِيْق والماء. فلم نَزَل نمشي حتَّى نَفِدَ ما كانَ مَعَنا من الماء والقُوت، فَجَعلْنا نمشي جِياعاً على شَطِّ البحر، حتى دفعنا إلى سُلَحْفَاةٍ مثلِ التُّرس، فَعَمَدْنا إلى حَجَرٍ كبير، فضربْنا على ظهرِها، فانفَلَق، فإذا فيها مثلُ صُفرةِ البَيْضِ، فَتحسَّيْناه حتَّى سَكن عنَّا الجُوع، ثم

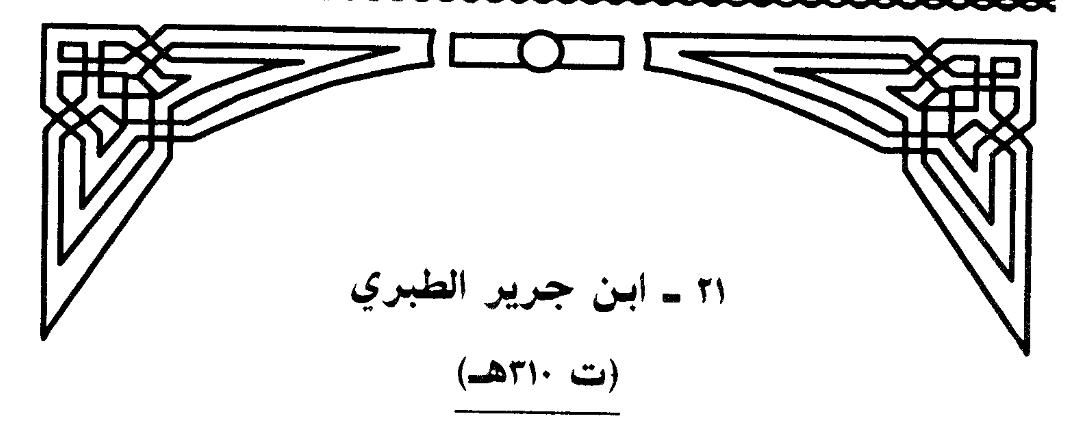
وَصَلْنا إلى مدينة الرَّاية، وأوصَلْنا الكتابَ إلى عامِلِها فأنزَلنا في داره، فكان يُقَدِّم لنا كلَّ يوم القَرْعَ، ويقول لخادمته: هاتي لهم اليَقْطين المبارك. فيُقَدِّمُه معَ الخُبز أياماً، فقال واحدٌ مِنَّا: ألا تدعو باللَّحْم المشؤوم؟! فَسَمِعَ صاحبُ الدَّار، فقالَ: أنا أُحسن بالفارسية، فإنَّ جَدَّتي كانت هَرَوِيَّة، وأتانا بعد ذلك باللَّحم، ثم زَوَّدَنا إلى مِصر.

قال ابنه عبدالرحمٰن في «تقدمة الجرح والتعديل»[1]: «حضرت أبي ـ رحمه الله ـ وكان في النزع وأنا لا أعلم، فسألته عن عقبة بـن عبدالغافر، يروي عن النبيّ ﷺ له صحبة؟ فقال برأسه: لا، فلم أقنع منه.

فقلت: فهِمتَ عني؟ له صحبة؟ قال: هو تابعي».

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) ص: ٣٦٧.



٢١ ـ ابن جرير الطبري

(ت ٣١٠هـ)

يكتبُ معلومةً قُبيل وفاته بساعة

أبو جعفر محمد بن جرير الطبري[١] أحد أئمة الدنيا علماً وديناً وحفظاً، وكثرة تآليف جياد، وقد طبقت شهرته الآفاق، وصار اسمُه: (العلَم المفرد) عند الإطلاق.

ولد في بلدة آمُل من بلاد طبرستان، وحفظ القرآن وعمره سبع سنين. وكتب الحديث وعمره سبع سنين، ورحل في طلب العلم يافعاً وعمره اثنتا عشرة سنة.

ودخل بغداد بعد وفاة أحمد بن حنبل سنة ٢٤١ فلم يلقه.

وقد حاز مقام الإمامة في العلم وهو في مقتبل شبابه، ثم غدا إماماً فذاً، مشهوداً له، مرجوعاً إليه في كل العصور، وعلى مرِّ الدهور.

قال الإمام الحافظ أبو بكر الخطيب في «تاريخ بغداد»، في ترجمته: كان أحَدَ أئمة العلماء، يُحكَمُ بقوله، ويُرجَعُ إلى رأيه، لمعرفتِه وفضلِه، وكان قد جَمَع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحدٌ من أهل عصره، وكان

(١) هذه الترجمة مقتطفة من: (معجم الأدباء): ١٨/٤٠ ـ ٩٦، و(تاريخ بغداد): ٢/١٦٢، و(العلماء العزاب): ٥٦ ـ ٧٤.

حافظاً لكتاب الله عزَّ وجلَّ، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسُّنَن وطُرُقها، وصحيحِها وسقيمِها، وناسِخها ومنسوخِها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومَن بعدَهم من الخَالِفِين، في الأحكامِ ومسائلِ الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارِهم.

وله التفسيرُ المشهورُ الذي لم يُصنِّف أحدٌ مثلَه: «جامع البيان عن وجوه تأويل آي القرآن»، وله الكتاب المشهور في التاريخ: «تاريخ الرسل والأنبياء والملوك والأُمَم»، و«تهذيبُ الآثار وتفصيلُ الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار» لم أرَ سواه في معناه، إلاَّ أنَّه لم يُتمَّه! وله في أصول الفقه وفروعه كتبٌ كثيرة، واختيارٌ من أقاويل الفقهاء. وتفرَّدَ بمسائل حُفِظَتْ عنه.

قال الإمام أبو حامدٌ أحمد بن محمد الإِسْفِراييني الفقيه: لو سافر رجلٌ إلى الصِّين، حتى يَحْصُلَ له «تفسيرُ ابن جرير»، لم يكن ذلك كثيراً. وقال الإمام أبو بكر بن خُزَيمة بعد أن وَقَف عليه: نظرتُ فيه من أوَّلِه إلى آخره، وما أعلمُ على أديم الأرض أعلمَ من ابن جرير.

وحدَّث علي بن عُبَيدالله اللغوي السِّمْسِمي، عن القاضي أبي عمر عبيدالله بن أحمد السِّمْسَار وأبي القاسم بن عقيل الورَّاق: أنَّ أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قَدْرُه؟ قال: ثلاثون ألفَ ورقة، فقالوا: هذا مما تَفنَى الأعمارُ قبلَ تمامِه! فاختَصَره في نحوِ ثلاثةِ آلافِ ورقة، وأملاه في سبع سنين، من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين.

ثم قال لهم: أتنشطون لتاريخ العالَم من آدم إلى وقتِنا هذا؟ قالوا: كم قَدْرُه؟ فَذَكَر نحواً مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثلِ ذلك! فقال: إنَّا لله! ماتَتْ الهِمَم! فاختَصَره في نحوِ مما اختَصَر التفسير، وفَرَغ من تصنيفه ومن عَرْضِه ـ أي: قراءتِه ـ عليه يومَ الأربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثِ مئة، وقَطَعَه على آخِرِ سنةِ اثنتين وثلاثِ مئة.

قال الخطيب: وسمعتُ السِّمْسِميَّ يحكي أنَّ ابن جرير مكث أربعين سنة، يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة، وحدَّث تلميذُه أبو محمد

عبدالله بن أحمد بن جعفر الفَرْغاني، في كتابه المعروف بكتاب «الصِّلَة»، وهو كتاب وَصَل به «تاريخ ابن جرير»: أنَّ قوماً من تلاميذ ابن جرير، حَصَّلوا أيامَ حياتِه، منذ بَلَغ الحُلم إلى أن تُوفي وهو ابنُ ستٍّ وثمانين سنة، ثم قَسَموا عليها أوراقَ مصنَّفاته، فصار منها على كل يوم أربعَ عشرةَ ورقة، وهذا شيء لا يتهيأ لمخلوقٍ إلاَّ بحُسنِ عنايةِ الخالِق.

وحكى تلميذُه أبو بكر بن كامل ـ أحمد بن كاملٍ الشَّجَريُّ القاضي صاحبُ ابن جرير ـ قال: قال لي أبو جعفر: حَفِظتُ القرآنَ ولي سبعُ سنين، وصلَّيتُ بالنَّاس وأنا ابنُ ثماني سنين، وكتبتُ الحديث وأنا ابنُ تسع سنين. ورأى لي أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله ﷺ، وكان معي مِخلاةٌ مملوءةٌ حجارةً، وأنا أرمي بين يديه فقال له المعبِّر: إنَّه إن كَبِرَ نَصَح في دينه وذَبَّ عن شريعته، فحَرَص أبي على معونتي على طلب العلم وأنا حينئذٍ صغير.

وكنا نكتبُ عند محمد بن حُمَيد الرازي، فيَخرُجُ إلينا في الليل مرات، ويَسأَلُ عما كتبناه، ويقرؤه علينا. وكنا نمضي إلى أحمد بن حَمَّاد الدُّولاَبي، وكان في قرية من قرى الرِّيّ، بينها وبين الريّ قطعة، ثم نَعْدُو كالمجانين! حتى نَصِيرَ إلى ابن حُمَيد فنلحقَ مجلسَه. ويقال: إنَّه كتَبَ عن ابن حُمَيد فوقَ مئةِ ألفِ حديث.

وصَارَ في رحلته إلى الكوفة، فكتَبَ فيها عن عدد من المحدِّثين، ومنهم أبو كُرَيب محمد بن العلاء الهَمْدَاني، وكان هذا شَرِسَ الخُلُق ومن كبار أصحاب الحديث.

قال أبو جعفر: حضرتُ بابَ داره مع أصحاب الحديث، فاطَّلع من باب خَوْخَة له ـ الخَوْخةُ: البابُ الصغير على باب الكبير ـ، وأصحابُ الحديث يلتمسون الدخولَ ويَضِجُّون، فقال: أيكم يَحفظُ ما كَتَب عني؟ فالتَفَتَ بعضُهم إلى بعض، ثم نظروا إليَّ وقالوا: أنت تحفظُ ما كتبتَ عنه؟ قلتُ: نعم، فقالوا: هذا فسَلْهُ، فقلتُ: حدَّثْتَنَا في يومِ كذا بكذا، وفي يومِ كذا بكذا.

قال: وأَخَذ أبو كُرَيب في مسألة، إلى أن عَظُمَ في نفسه، فقال له: ادخُلْ إليَّ، فدَخَلَ إليه وعَرَف قدرَه على حداثته، ومكّنه من حديثه، وكان النَّاسُ يَسمون به ـ أي: بسببه ـ، فيقال: إنَّه سَمِعَ من أبي كُرَيب أكثَرَ من مئةِ ألفِ حديث. ثم عاد إلى مدينة السلام: بغداد فكتب بها ولَزِمَ المُقامَ بها مدةً، وتفقَّه بها وأَخَذ في علوم القرآن، ورَوَى الشعر عن ثعلب، قال أبو عُمَر محمد بن عبدالواحد الزاهد: سمعتُ ثعلباً يقول: قرأ عليَّ أبو جعفر الطبري شعر الشعراء، قبل أن يكثر الناسُ عندي بمدة طويلة.

ثم غرَّب فخرج إلى مصر، وكتب في طريقه عن المشايخ بأجناد الشام والسواحل والثغور، وأكثَرَ منها، ثم صار إلى الفُسطاط في سنة ثلاث وخمسين ومئتين، وكان بها بقيَّةٌ من الشيوخ وأهلِ العلم، فأكثَرَ الكتابة عنهم من علوم مالك والشافعي وابنِ وهب وغيرِهم، ثم عاد إلى الشام.

ثم رجع إلى مصر في سنة ست وخمسين ومئتين، قال أبو جعفر: لما دخلتُ مصر لم يَبقَ أحدٌ من أهل العلم إلاَّ لَقِيَني وامتَحنني في العلم الذي يَتحقَّقُ به.

فجاءني يوماً رجل، فسألني عن شيء من العَرُوض، ولم أكن نشطتُ له قبلَ ذلك، فقلتُ له: عليَّ قولٌ أن لا أتكلَّم اليومَ في شيء من العروض، فإذا كان في غدٍ فصِرْ إليَّ، وطلبتُ من صديق لي «العَرُوض» للخليل بن أحمد، فجاء به، فنظرتُ فيه ليلتي، فأمسيتُ غيرَ عروضي، وأصبحتُ عَرُوضيّاً.

وفي خلال تَطوافه في البلدان، وارتحالِه لتلقي العلوم من كبار العلماء، لقي الألاقيَّ والشدائد، ومَسَّه الجُوعُ والعُدمُ والإملاقُ غيرَ مرة! حتى فَتَق كُمَّيْ قميصِه وباعَهمَا، ليقتاتَ بثمنهما! حين أبطأَتْ عليه نفقةُ والده! وأملَق وجاع حينما كان بمصر في حدود سنة **٢٥٦**هـ.

قال أبو محمد عبدالعزيز بن محمد الطبري: كان أبو جعفر من الفضل والعلم والذكاء والحفظ، على ما لا يجهله أحدٌ عَرَفه، لجمعِهِ من

علوم الإسلام ما لم نعلمه اجتمع لأحد من هذه الأمة، لا ظَهَر من كُتُب المصنِّفين، وانتشر من كُتُب المؤلِّفين ما انتَشَر له.

وكان راجحاً في علوم القرآن والقراءاتِ والتاريخ من الرسل والخلفاء والملوك، واختلافِ الفقهاء، مع الرواية كذلك، على ما في كتاب: «البسيط» و«التهذيب» و«أحكام القراءات»، من غير تعويل على المناولات والإجازات، ولا على ما قيل في الأقوال، بل يَذكُر ذلك بالأسانيد المشهورة.

وقد بان فضلُه في علم اللغة والنحو، على ما ذكره في كتاب: «التفسير» وكتاب: «التهذيب» مخبِراً عن حاله فيه. وقد كان له قَدَمٌ في علم الجدل، يدل على ذلك مناقضاتُه في كتبه على المُعارِضين لمعاني ما أَتَى به. وكان يحفظ من الشعر للجاهلية والإسلام، ما لا يَجهله إلاَّ جاهل به. وكان قد نَظَر في المنطِق والحساب والجبر والمقابلة، وكثيرٍ من فنون أبواب الحساب، وفي الطب، وأَخَذَ منه قسطاً وافراً يَدلُّ عليه كلامُه في الوصايا.

وكان فيه من الزهد، والورع، والخشوع، والأمانة، وتصفية الأعمال، وصدقِ النية، وحقائقِ الأفعال: ما دَلَّ عليه كتابُه: «أدبُ النفوس الجيِّدة والأخلاقِ النفسية». وكان شديدَ التوقي والحذر والنزاهة والورع. ومع ما كان فيه من الاشتغال بالتصانيف والحديث والإملاء: لا بُدَّ له مع ذلك من حِزبه من القرآن، ويقال: إنَّه كان يقرأ كلَّ ليلة رُبعاً أو حظّاً وافراً.

وكان أبو جعفر مجوِّداً في القراءة موصوفاً بذلك، يَقصِدُه القُرَّاءُ البُعَداءُ والناسُ للصلاة خلفَه يَسمعون قراءتَه وتجويدَه، قال أبو بكر بن مجاهد ـ أحمد بن موسى البغدادي ـ شيخُ القراء في عصره: ما سمعتُ في المِحراب أقرأَ من أبي جعفر بنِ جرير.

وقال أبو علي الطُّوماري: كنتُ أحمل القنديل في شهر رمضان بين يدي أبي بكر بن مجاهد إلى صلاة التراويح، فخَرَج ليلةً من ليالي العشر الأواخر من داره، واجتاز على مسجد فلم يدخله وأنا معه، وسار حتى انتهى إلى آخر سوق العَطَش فوق بباب مسجد محمد بن جرير، ومحمد

يقرأ سورة الرحمٰن، فاستمع قراءتَه طويلاً ثم انصرف، فقلتُ له: يا أستاذ، تركتَ النَّاس ينتظرونك وجئت تسمعُ قراءةَ هذا؟! فقال: يا أبا علي، دَعْ هذا عنك، ما ظننتُ أنَّ الله تعالى خَلَقَ بَشَراً يُحسِنُ يَقرأُ هذه القراءة.

وكان أبو جعفر يَكره أن يَخُصَّ أحداً من الطلبة بشيء من العلم دون سائر الجماعة، فحرَصَ أبو بكر بن مجاهد ـ مع موضعه في نفسِه وعند أبي جعفر ـ أن يَسمع منه منفرداً قراءةَ وَرْش عن نافع، عن يونس بن عبدالأعلى، عنه، وكان يُقصَدُ فيها، فأبَى إلاَّ أن يَسمعها مع النَّاس، مما أثَّر ذلك في نفس أبي بكر بن مجاهد. وكان إذا قرأ عليه جماعةٌ كتاباً، ولم يَحضَره أحدُهم لا يأذَنُ لبعضهم أن يقرأ دون بعض، وإذا سأله إنسانٌ في قراءةِ كتاب وغاب لم يُقرِئه حتى يَحضُر.

وكان عازفاً عن الدنيا تاركاً لها ولأهلها، يَرفَعُ نفسَه عن التماسها، وكان القارىء الذي لا يعرف إلاَّ القرآن، وكالمحدِّثِ الذي لا يَعرف إلاَّ الحديث، وكالحاسِبِ الذي لا يَعرف إلاَّ الحساب، وكان عالماً بالعبادات، جامعاً للعلوم، وإذا جَمعتَ بين كتبِه وكتبِ غيره، وَجدت لكتبه فضلاً على غيرها.

وكان أبو جعفر ظريفاً في ظاهره، نظيفاً في باطنه، حَسنَ العِشرةِ لمجالسيه، متفقِّداً لأحوال أصحابه، مُهذَّباً في جميع أحواله، جميلَ الأدب في مأكلِه، وملبسِه، وما يَخُصُّه في أحوالِ نفسه، منبسِطَ مع إخوانه، حتى ربما داعَبَهم أحسنَ مُداعبة، وربما جِيءَ بين يديه بشيء من الفاكهة، فيُجرِي في ذلك المعنى ما لا يَخرُجُ عن العلم والفقه والمسائل، حتى يكون كأجَدِّ جِدٍّ وأحسَنِ عِلم.

وقد كان يمضي إلى الدعوة يُدعى إليها، وإلى الوليمة يُسأل فيها، ويكون ذلك يوماً مشهوداً من أجله، وشريفاً بحضوره، وكان يَخرج مع بعضهم إلى الصحراء فيأكل معهم. وكان إذا دخل منزلَه بعد المجلس، لا يكادُ يَدخُلُ إليه أحدٌ، لتشاغُلِهِ بالتصنيف، إلاَّ في أمرٍ مهم.

وكان إذا أَهدى إليه مُهدٍ هديةً مما يمكنه المكافأةُ عليه، قَبِلَها وكافأه،

وإن كانت مما لا يمكنه المكافأةُ عليها رَدَّها واعتَذَر إلى مُهديها. ووجَّه إليه أبو الهيجاء بنُ حمدان ـ الأميرُ عمُّ سيفِ الدولة ـ ثلاثة آلاف دينار، فلما نَظَر إليها عَجِبَ منها، ثم قال: لا أقبلُ ما لا أقدِرُ على المكافأة عنه، ومن أين لي ما أُكافىءُ به عن هذا؟ فقيل: ما لهذا مكافأة، إنَّما أراد التقرب إلى الله عزَّ وجلَّ، فأبى أن يَقبَله وردَّه إليه. وأهدى إليه أبو المحسن المحرَّرُ جارُه فَرْخَين، فأهدى إليه ثوباً.

وكان يختلفُ إليه أبو الفرج الأَصْبَهاني، الكاتب، يَقرأ عليه كتبه، فأخمَس أبو جعفر حَصِيراً لصُفَّةٍ له صغيرة، فدخل أبو الفرج الأصبهاني وأخَذَ مقدارَ الصُفَّة، واستَعملَ له الحَصير ـ أي: أوصى أن تُعملَ له ـ متقرِّباً بذلك له، وجاءَهُ به وقد وَقَع موقعَه، فلما خَرَج دعا ابنَه ـ أي: ابنَ أبي الفرج ـ ودَفَعَ إليه أربعة دنانير، فأبى أن يأخذها، وأبى أبو جعفر أن يأخذ الحصيرَ إلاَّ بها.

وقال أبو بكر بن كامل: كان أبو جعفر مَلِيّاً بما نَهَض فيه، من أيّ علم كان، وكان متوقِّفاً عن الأخلاق التي لا تليقُ بأهل العلم، ولا يُؤثِرُها إلى أن مات، وكان يُحِبُّ الجِدَّ في كلِّ أحوالِه. وقال لنا أبو جعفر: ما حَلَلْتُ سَرَاويلي على حرام ولا حلال قط. وسأله يوماً سائل عن نَسَبِه، فقال: محمدُ بن جرير، فقال السائل: زِدنا في النَّسَب، فأَنشَده لرُؤْبَة:

قد رَفَعَ العَجَّاجُ ذِكري فادْعُني ... بأسْمِي إذا الأنسابُ طالَتْ يَكْفِني

وحضرتُه حين حَضَرَتَهُ الوفاةُ، فسألته أن يَجعل كلَّ مَن عاداه في حِلّ، وكنتُ سألتُه ذلك لأجل أبي عليٍّ الحسنِ بن الحُسَين الصوَّاف، لأني كنتُ قرأتُ عليه القرآن، فقال: كلُّ مَن عاداني وتكلَّم فيَّ في حِلّ، إلاَّ رجلاً رماني ببدعة.

وكان الصَّوَّافُ من أصحاب أبي جعفر، وكانت فيه سلامة، ولم يكن فيه ضبطُ رَوِيَّة العَقْل، فلما أملى أبو جعفر «ذَيْلَ المذيَّل»، ذَكَرَ أبا حنيفة وأطراه، وقال: كان فقيهاً ورعاً، فتكلَّم الصوافُ في ذلك الوقت في

أبي جعفر؛ لأجل مدحِهِ لأبي حنيفة، وانقطع عن أبي جعفر، وبَسَطَ لسانَه فيه!

قال أبو بكر بن كامل: قال لي أبو علي محمد بن إدريس الجَمَّال ـ وكان من وجوه الشهود بمدينة بغداد ـ: حضرنا يوماً مع أبي جعفر الطبري وليمةً، فجلستُ معه على المائدة، فكان أجملَ الجماعة أكلاً، وأظرفَهم عِشرة، ما رأيتُ أطرفَ أكلاً منه، كان يُدخِلُ يدَه في الغَضَارة ـ هي: القصعة الكبيرة ـ، فيأخذ منها لقمةً، فإذا عاد بأُخرى، كَسَح ـ أي: مَسَح ـ باللقمة ما التَطَخ من الغَضَارة باللقمةِ الأولى، فكان لا يَلتطِخُ من الغَضَارة إلاَّ جانبٌ واحد.

وكان إذا تناول اللقمة ليأكل سَمَّى، ووضَعَ يدَه اليسرى على لحيته ليُوقِّيها من الزُّهومة ـ يعني: من أثر الذَّفَر ـ، فإذا حَصَلَتْ اللقمةُ في فيه أزالَ يدَه، وكان إذا جَلَس لا يكاد يَمسح له تَنَحُّمٌ ولا تَبصُّق، ولا يُرى له نُخامة، وإذا أراد أن يَمسح رِيقَه، أَخَذَ ذُؤابةَ مِنديلِه ومَسَح جانبَيْ فيه.

قال أبو بكر بن كامل: ولقد حَرَصتُ مِراراً أن يَستويَ لي مثلُ ما يفعلُه، فيتعذَّرُ عليَّ اعتيادُه! وما سمعتُه قطُّ لاحِناً، ولا حالفاً بالله عزَّ وجلَّ. وكان حسَنَ القيامِ على نفسه.

وكان لا يَعدَمُ في الصيف الحَيْسَ ـ هو التَّمْر يُخلَطُ بالسَّمْن والأقِطِ ويُعجَنُ شديداً، وربما جُعل فيه السَّوِيق ـ، والرَّيحانَ واللَّيْنَوفَر ـ ضَرْبٌ من الرياحين يَنبُتُ في المياه الراكدة ـ، فإذا أكل نام في الخَيش ـ ثيابٌ في نسجها رِقَّة، وخُيوطُها غلاظ، تُتَّخذُ من مُشَاقَةِ الكَتَّان، تُلبَس في الحرّ عند النوم ـ في قميص قصير الأكمام، مصبوغ بالصَّنْدَلِ وماءِ الوَرد.

ثم يقوم فيصلي الظهرَ في بيته، ويكتُب في تصنيفه إلى العصر، ثم يَخرُج فيصلي العصر، ويَجلِسُ للناس يُقرِىءُ ويُقرأ عليه إلى المغرب، ثم يَجلِسُ للفقه والدَّرْس بين يديه إلى العِشاءِ الآخِرة، ثم يَدخُلُ منزلَه. وقد قَسَم ليلَه ونهارَه في مصلحة نفسه، ودِينِه، والخَلْق، كما وفَّقه الله عزَّ وجلَّ.

وكان أسمَرَ إلى الأُدْمَة، أعينَ، نحيفَ الجسم مَديدَ القامة، فصيحَ

اللسان، كبيرَ اللحية، ولم يُغيِّر شَيْبَه، وكان السَّوادُ في شَعْرِ رأسه ولحيته كثيراً.

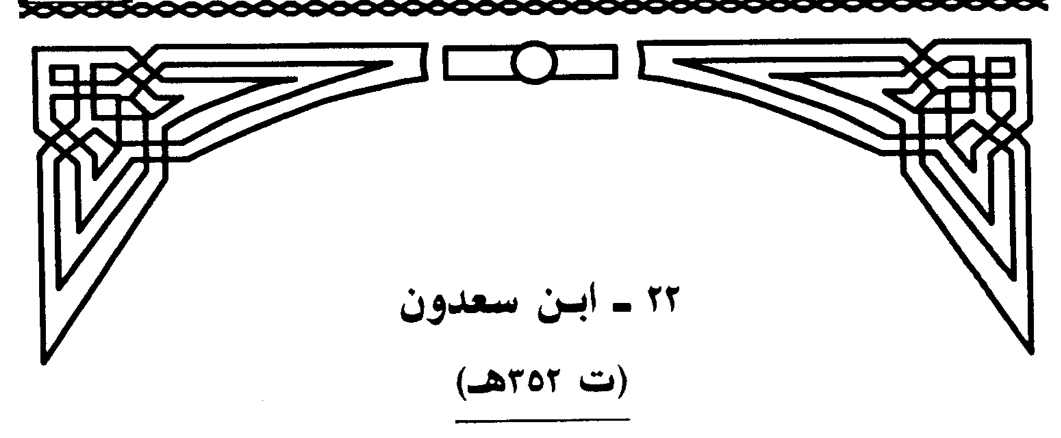
قال الأستاذ محمد كُرْدعلي في «كنوز الأجداد»، في ترجمة الإمام ابن جرير الطبري: «وما أُثِرَ عنه أنَّه أضاع دقيقةً من حياته في غير الإفادة والاستفادة، رَوَى المُعَافَى بن زكريا عن بعض الثقات، أنَّه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله تعالى قبلَ موته، وتوفي بعدَ ساعةٍ أو أقلَّ منها، فذُكِرَ له هذا الدُّعاءُ عن جعفر بن محمد، فاستدعَى محبرةً وصحيفةً فكتبه، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال: ينبغي للإِنسان أن لا يدَعَ اقتباس العلم حتى الممات». انتهى.

وعلَّق على ذلك العلاَّمة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة بقوله:

«قلتُ: رحمك الله تعالى يا أبا جعفر، لقد استنفدت الجهد والدقائق والثواني في خدمة العلم وتحصيله، ونشره وتدوينه، فكنتَ إماماً وقُدوةً في حياتك وبعد مماتك، ويَصدق عليك قولُ القائل:

سَعِدَتْ أعينٌ رأتك وقَرَّتْ ... والعُيونُ التي رأتْ مَن رآكا»

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



٢٢ ـ ابن سعدون
(ت ٣٥٢هـ)

يذكر أسباب نزول آية من القرآن، وهو في النزع

هو أبو بكر محمد بن وسيم بن سعدون الطليطلي، سمع من أبيه وغيره من شيوخ بلده، وبقرطبة من ابن خالد، وابن أيمن، وقاسم بن أصبغ[١].

وكان أعمى، بصيراً بالحديث، حافظاً للفقه، ديّناً، ذا حظ من علم اللغة والنحو والشعر، والتفسير، والفرائض، والحساب، والعبارة، شاعراً ذكياً.

وكانوا يرون ما فيه من الذكاء ببركة دعاء أبيه، وكان صالحاً.

وقيل: لما عمي بعد مولده بيسير، جمع أبوه أهل الصلاح والزهد، وصلوا الليل كله، فلما أصبح أحضر هذا المولود، ودعوا له أن يجعل الله نور بصره في قلبه، فأجيبت دعوتهم.

وكان رأساً في كل فن، متقدماً فيه، من أهل الظرف والأدب، وعلا ذكره، وتقدم في الفتيا، وكان رأساً فيها. ومن شعره:

خذ من شبابك قبل الموت والهرم   وبادر التوب قبل الفوت والندم

(١) تاريخ علماء الأندلس: ٦٦/٢، ترتيب المدارك: ١٧٥/٦.

واعلم بأنك مجزي ومرتهن ... وراقب الله واحذر زلة القدم
فليس بعد حلول الموت معتبة ... إلاً الرجاء وعفو الله ذي الكرم
فإنَّ ربك ذو عفو ومغفرة ... وذو عقاب شديد مؤلم الألم
فاضرع إلى الله وارغب في تجاوزه ... عما ارتكبت من الآثام والجرم
فإن عفا فبإفضال ومرحمة ... وإن يعاقب فمن عدل ومن نقم
فاغفر إلٰهي زلاتي وما اجترحت ... كفاي يا منتهى الإفضال والكرم

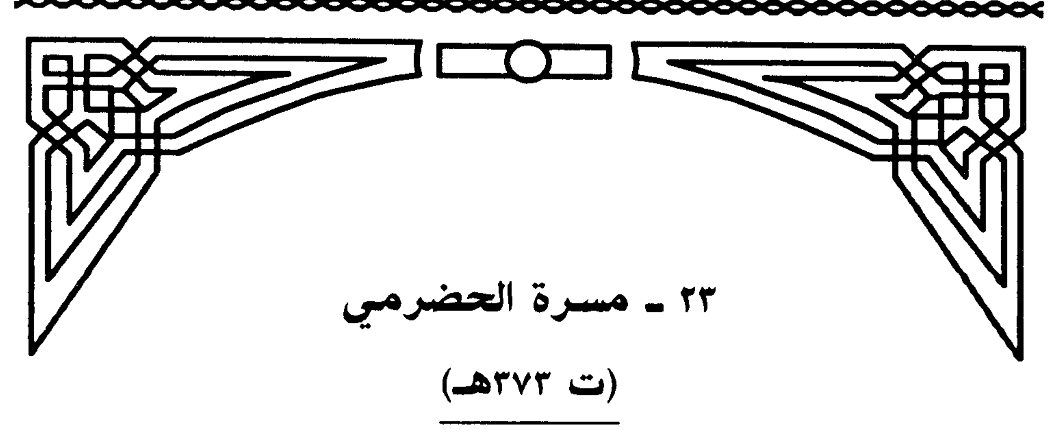
قال القاضي عياض[(١)]:

«ودخل عليه ـ وهو في النزع ـ بعض أصحابه، فناداه، فلم يجبه، فقال الآخر: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

فقال له أبو بكر ـ حين ذلك ـ نزلت في الكفار، وفيها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) ترتيب المدارك: ١٧٦/٦.



٢٣ ـ مسرة الحضرمي

(ت ٣٧٣هـ)

لما احتضر ابتدأ القرآن فانتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ ففاضت روحه

من أهل العلم والزهد التام بساحل القيروان... كان من بيت قرآن وعلم وعبادة، وتفقه مسرة مع حمود بن سهلون، وكان صديقاً لأبي إسحاق الجبنياني[1].

قال اللبيدي: ولم يترك مسرة من اجتهاده في العبادة شيئاً، وكان من النّواحين على أنفسهم حتى تستقر الدموع في موضع سجوده، ويسقط من قامته فيتهشم وجهه.

وكان أبو إسحاق يوثقه في العلم، ويأمر ولده وغيره بالسماع منه.

قال المالكي: كان رجلاً صالحاً، فاضلاً ناسكاً، مجتهداً، طويل الصلاة، وكان بساماً، سهلاً بجلسائه، ذا حزن وبكاء إذا خلا، سمع من محمد بن عمر، ورحل سنة ثلاثمئة مع أخيه، فسمع من النسائي، ومحمد بن ريان، وأبي محمد بن الجارود وأبي القاسم البغوي...

قال اللبيدي: أقام مسرة ست عشرة سنة في دكان في زاوية البيت،

---

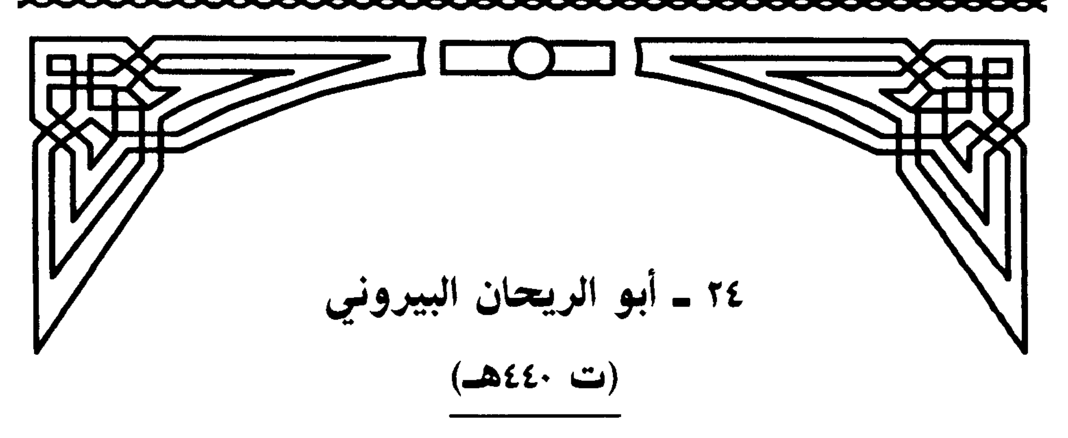
(١) ترتيب المدارك: ١٧٦/٦.

لا ينزل إلاَّ لحاجة الإنسان، ويتلو، ويبكي ويتكلم بالحاجة إشارة، وكان في ابتداء أمره يختتم ختمة بالنهار، وأخرى بالليل، أقام على ذلك أربعين سنة، ثم ضعف فكان يختم ختمة سائر ليله ونهاره، ولقد رأيته يوماً يقرأ ويبكي، وإنَّ دموعه تجري على الأرض، وكان من الخائفين، وكان يمتنع التعبير، وربما حرك منه فيبكي، ويقيم أياماً لا ينتفع به.

قال اللبيدي: رأيت أبا إسحاق الجبنياني ومسرة جالسين في جنازة، وعلى مسرة جبة صوف. فقال له الجبنياني: من أين لك هذه يا أبا بكر، قال: من سوق المسلمين، فقال له أبو إسحاق: سبحان الله تشتري من السوق، وفيه تخليط وأنت يُقتدى بك، فقال له مسرة: فمن أين هذه الدراعة التي عليك وعليه مرقعة بخرق المزابل، فقال له: أصلها منذ ثلاثين سنة، عملتها لي أختي بموضع كذا كشفت عن أصله، فقال مسرة: موضع السراف أنت يا أبا إسحاق ورجل مجنون ـ يعني: لتضييقه على نفسه وتتبعه غاية الأمور التي ليست لها غاية ـ فقال له أبو إسحاق: صدقت. كذلك كان معلمي يقول لي: إنَّك مجنون. ثم أقيمت الصلاة فقدم مسرة أبا إسحاق، ثم أتى بالجنازة ـ فقدمه أيضاً ـ وكان الميت ابن أخي مسرة، فلما فرغا، جرى بينهما حديث ودعاء، وتوادعا، وتصافحا، وكان كل واحد منهما يجل قدر صاحبه ويعرف له فضله، قال اللبيدي: فلما علمت أنهما اجتمعا بعد ذلك اليوم. مات أبو إسحاق، ومات مسرة بعده بنحو ثمان سنين، قال: وكنت عنده قبل موته بثلاث سنين حتى جاءه رجل فقال: رأيت البارحة أبا إسحاق في المنام واقفاً، فصاح ثلاث صيحات: يا مسرة، يا مسرة، يا مسرة، فبكى مرة فقال: أمَّا ثلاث ساعات فقد ذهبت، وأراني أموت إلى ثلاثة أيام، أو ثلاثة أشهر، أو ثلاث سنين، فأرخنا الرؤيا، فمات لثلاث سنين ـ رحمه الله ـ.

ولما احتضر ـ رحمه الله تعالى ـ ابتدأ القرآن، فانتهى في: ﴿طه﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، ففاضت نفسه[1].

(١) ترتيب المدارك: ٢٧١/٦.



٢٤ ـ أبو الريحان البيروني

(ت ٤٤٠هـ)

يتعلم مسألة في الفرائض وهو في النزع

الإمام الفلكي، الرياضي الفذ، والمؤرخ اللغوي الأديب الأريب، الجامع لأشتات العلوم أبي الريحان البيروني ـ محمد بن أحمد الخوارزمي ـ.

وأقطف هنا جُملاً من ترجمته الحافلة الوارفة في كتاب: «**المسارعة إلى قيد أوابد المطالعة**»[1] للعلاَّمة الأديب جميل بن مصطفى بك العظم ـ عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ـ وقد نقل ترجمته من مخطوطات نادرة. فقال رحمه الله تعالى:

«قال أبو الحسن علي بن زيد البيهقي في «تاريخ بيهَق» وهو نسختان؛ إحداهما بالفارسية: أبو الريحان البيروني من أجلاء المهندسين، وقد سافر في بلاد الهند أربعين سنة، وصَنَّف كتباً كثيرة رأيتُ أكثرها بخطه، و«القانون المسعودي» الذي صنَّفه في عهد السلطان شهاب الدولة مسعود بن محمود غُرَّة في وجوه تصانيفه، وله مناظرات مع أبي عليّ بن سينا، ولم يكن الخوض في بحار المعقولات من شأنه وكلٌّ ميسَّر لما خُلق له، وزادت تصانيفه على حِمل بعير، وكان موفَّقاً في هذا السعي المشكور».

(١) ص: ١٦١ ـ ١٦٦، وقد حقق هذا الكتاب: العلاَّمة الشيخ رمزي سعد الدين دمشقية ـ رحمه الله ـ.

وبيرون التي هي منشأه ومولده، بلدة طيبة فيها غرائب وعجائب، ولا غَزو فإنَّ الدُّرَّ ساكنُ الصَّدَف.

ومـن كلامـه:

- جَلَّ خَطَرُ الملوك عن المجازاة بالانتقام، وليس للملك أن يَحْسُد إلاَّ على حسن التدبير والسياسة.
- الملِك أقلّ النَّاس خوفاً من الفقر، وأكثر النَّاس خطراً وقرباً إلى الهلاك، فليس له أن يبخَلَ ويَجْبُن، فإنَّ ما قلَّ عنده لا يكثُر، وما كثُر لا ينعدم.
- المنُّ يُبطِل إحسانَ المحسن.
- العاقل مَن استغنى بتدبير اليوم عن تدبير الغد.
- لا تحقر الأمرَ الصغير، فللأمر الصغير موضع يُنتَفَع به، وللأمر الكبير موقع لا يُستغنَى عنه.
- ما اجتمعت عليه الأُلفة والعادة واصطلحت عليه العامة فلا تخالفه.
- مَن يكفيه التأديب بالكلام لا يؤدَّبُ بالسوط والسيف.
- مدارسة أخلاق الحكماء والعلماء تُحيي السُّنَّة الحسنة، وتميت البدعة.
- السنن الصالحة علامات الخير والحقّ.
- لكل يوم أمر حاضِر، ولكلّ غدٍ ما فيه يحدُث.

❋ ❋ ❋

وقال القاضي معين الدين أبو العلاء محمد بن محمود الغزنوي النيسابوري، في كتابه: «سِرُّ السُّرور»:

أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخُوارِزمي، له في الرياضيات السبق الذي لم يشقّ المحضرون غبارَه، ولم يلحق المضمرون المجيدون

مضماره، وقد جعل الله الأقسامَ الأربعة له أرضاً خاشعة بسَّت له لواقح مُزُنها، واهتزت به يَوَانع نبتها، فكم مجموع له يحفّ بروض النجوم طلّه، ويرفرف على دائرة السماء ظلُّه.

وبلغني أنّه لما صنَّف القانون المسعودي أجازه السلطان بِحملِ فيلٍ من النقد الفضّي، فردَّه إلى الخزانة بعذر الاستغناء عنه ورَفَضَ العادة في الاستغناء به.

وكان رحمه الله تعالى مع الفسحة في التعمير، وجلالة الحال في جميع الأمور، مُكِبّاً على تحصيل العلوم، صبّاً بتصنيف الكتب، يفتح أبوابَها، ويُميط شواكلَها وأقرابَها، لا يَكاد تفارق يدُه القلم، وعينُه النظر، وقلبُه الفكر، إلاَّ في يوميْ النيروز والمهرجان من السنة لإعداد ما تمسّ إليه الحاجة في المعاش من بُلغة الطعام، وعُلْقة الرِّياش، ثم هجيراه في سائر الأيام من السنة: علم يُسفر عن وجهه قناع الإِشكال، ويَحسُر عن ذراعيه أكمامَ الإغلاق.

حدَّث القاضي كثير بن يعقوب البغدادي النحوي في السّتور عن الفقيه أبي الحسن علي بن عيسى الولوالجي، قال: **دخلتُ على أبي الريحان وهو يجود بنفسه، قد حُشرِج نَفَسُهُ، وضاق به صدرُهُ، فقال لي في تلك الحال: كيف قلتَ لي يوماً حساب الجدّات الفاسدة؟**

فقلتُ له إشفاقاً عليه: أفي هذه الحالة؟ قال لي: يا هذا، أودّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ألا يكون خيراً من أن أُخلِّيها وأنا جاهِلٌ بها؟

فأعدتُ ذلك عليه فحفظه، وخرجتُ من عنده فسمعتُ الصراخ عليه وأنا في الطريق.

وأمَّا نباهةُ قدره، وجلالة خطره عند الملوك، فقد بلغني من حَظْوته لديهم، أنَّ شمس المعالي قابوس بن وشمكير أراد أن يستخلصَه لصحبته، ويرتبطه في داره، على أن تكون له الإمرة المطاعة في جميع ما يحويه مِلكُه، ويشتمل عليه مُلكُه، فأبى عليه ولم يطاوعه، ولما اتصل بخُوارِزمشاه قرَّبه بمثل ذلك، وأحلَّه في داره وأنزله معه في قصره.

وكان خُوارِزمشاه يوماً على ظهر دابة وهو يشرب، فأمر باستدعاء أبي الريحان من حُجرته، فأبطأ قليلاً، فتصوّر خُوارِزمشاه الأمرَ على غير صورته وثنى العنانَ نحوه ورام النزول، فسَبَقَه أبو الريحان إلى البروز وناشده الله أَلاَّ يفعل، فتمثَّل خُوارِزمشاه:

العِلْمُ مِن أشرف الولاياتِ يأتيه كلُّ الورى وَلاَ يَأتي

ثم قال: لولا الرسوم الدنيويَّة لما استدعيتكَ، فالعِلم يعلو ولا يُعلى عليه.

وكأنَّه سمع هذا في أخبار المعتضد، فإنَّه كان يوماً يطوف في البستان وهو آخذ بيد ثابت بن قُرة الحرَّاني إذ جَذَبها دفعةً وخلاَّها، فقال ثابت: ما بدا يا أمير المؤمنين؟ قال: كانت يدي فوق يدك والعلم يَعْلو ولا يُعْلَى.

ولمَّا استبقاه السلطانُ لخاصة أمره، وحوجاء صدره كان يفاوضه فيما يسنح لخاطره من أمر السماء والنجوم، فيُحكى أنَّه ورد عليه رسول من أقصى بلاد التُّرك وحدَّث بين يديه بما شاهد فيما وراء البحر نحو القطب الجنوبي من دور الشمس عليه ظاهرة في كل دورها فوق الأرض بحيث يبطل الليل، فتسارع على عادته في التشدُّد في الدِّين إلى نسبة الرَّجل إلى الإلحاد والقرمطة على براءة أولئك القوم من هذه الآفات، حتى قال أبو نصر بن مشكان: إنَّ هذا لا يذكر ذلك عن رأي يرتئيه، ولكن عن مُشَاهَدٍ يحكيه، وتلا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: ٩٠]، فسأل أبا الريحان عن ذلك فأخذ يَصِف له على وجه الاختصار، ويقرر على طريق الإقناع، وكان السلطان في بعض الأوقات يُحسِنُ الإصغاء، ويبذل الإنصاف، فقبِل ذلك وانقطع الحديث بينه وبين السلطان وقتئذٍ.

وأمَّا ابنه السلطان مسعود فقد كان فيه إقبال على علم النجوم، ومحبةٌ لحقائق العلوم، ففاوضه يوماً في هذه المسألة وفي سبب اختلاف مقادير الليل والنهار في الأرض، وأحبَّ أن يتَّضح له برهانٌ ما لم يتَّضح من ذلك بعيان.

فقا له أبو الريحان: أنت المنفرد اليوم بامتلاك الخافقين، والمستحقُّ في الحقيقة اسمَ مَلِك الأرض، فَأَخْلِقْ بهذه المرتبة إيثار الاطّلاَع على مجاري الأمور، وتصاريف أحوال الليل والنَّهار، ومقدار الأرض في عامرها وغامرها، وصنّف له عند ذلك كتاباً في اعتبار مقدار اللَّيل والنَّهار بطريق تبعُد عن مواضَعَات المنجّمين وألقابهم، ويَقْرُبُ تصوُّره من فَهْم مَنْ لم يرتَض بها ولم يعتَدْها، وكان السلطان السعيد قد مَهَر بالعربية فسَهُلَ وقوفه عليه، وأجزل إحسانه إليه.

وكذلك صنّف كتابه: «في لوازم الحركتين» بأمره، وهو كتاب جليل لا مزيد عليه، مقتبس أكثر كلماته عن آيات من كتاب الله عزَّ وجلَّ، وكتابه المترجَم بـ«القانون المسعودي» يُعفِّي على أَثَر كلِّ كتابٍ صُنّف في تنجيم أو حساب، وكتابه الآخرَ: «المعنون بالدستور» الذي صنَّفه باسم شهاب الدولة أبي الفتح مورود ابن السلطان الشهيد، مستوفِ أحاسنَ المحاسِن.

إلى هنا من «سرّ السرور» للغزنوي، وقد أورد له بعد ذلك قصيدةً في مدح أبي الفتح البُستي الشاعر المشهور، وطرفاً من شعره ضربنا صفحاً عن إيراده لأنَّه من قسم شعر العلماء ليس فيه كبير معنًى.

❊ ❊ ❊

وقال الشهرزوري في «تاريخ الحكماء»(١): أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، وبيرون مدينة بالسند(٢). كان من أجلاَّء المهندسين، وقد سافر في طلب العلم في بلاد الهند أربعين سنة، وصنَّف كُتباً كثيرة، وله مناظرات مع أبي علي بن سينا.

وَأَخَذَ من هُنا يسرد العبارةَ التي تقدَّمت عن تاريخ البيهقي بألفاظها

---

(١) المسمَّى: «نزهة الأرواح وروضة الأفراح»، ص:٣٤٨.

(٢) قوله: بيرون بالسند وهمٌ بل هي في خوارزم، وأمَّا التي بالسند فهي نيرون بالنون المسمَّاة اليوم: نيرون كوت، أو حيدرآباد السند، وهي على شاطىء نهر السند المعروف بنهر مهران. (من تعليق الشيخ رمزي سعد الدين دمشقية ـ رحمه الله ـ).

بينها جملة من كلامِ الغزنوي في «سِرُّ السرور»، فلا فائدة في تكرير ألفاظِ بعينها.

وقال عنه العلاَّمة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة في كتابه: «قيمة الزمن عند العلماء»[1]:

«وكان هذا الإمام الباقعة في العلم يتقن خمس لغات: العربية، والسريانية، والسنسكريتية، والفارسية، والهندية، وترك من المؤلفات في علوم الفلك، والطب، والرياضيات، والأدب، واللغة، والتاريخ وغيرها ما زاد على **١٢٠** مؤلف.

قال فيه المستشرق الكبير سخاو: «إنَّه أكبر عقلية عرفها التاريخ».

وقال المستشرق المشهور سارطون: «كان البيروني من أعظم عظماء الإسلام، ومن أكابر علماء العالم».

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) ص: ٥٠.



٢٥ ـ أبو طاهر السِّلَفي

(ت ٥٧٦هـ)

ساعة وفاته وهو يرد على القارىء عليه اللحن الخفي

الإمام العلاَّمة المحدث الحافظ المفتي، شيخ الإسلام، شرف المعمَّرين، أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأصبهاني[١].

ولد سنة **٤٧٥هـ**، وأول سماع حضره السِّلَفي مُتفرجاً مع الصبيان، مجلس رزق الله التميمي الحنبلي إذ قدم عليهم رسولاً أصبهان، فقال السلفي ـ فيما قرأته على عبدالمؤمن الحافظ ـ أخبرنا ابن رواج، أخبرنا السلفي، قال: شاهدت رزق الله يوم دخوله إلى البلد، وكان يوماً مشهوداً كالعيد، بل أبلغ في المزيد، وحضرت مجلسه في الجامع الجورجيري[٢].

وقال: أول مَن سمعت منه وكتبت عنه محمد بن محمد بن عبدالرحمٰن المديني سمع في سنة تسع وأربع مئة من أحمد بن عبدالرحمٰن اليَزْدي.

وارتحل، وله أقل من عشرين سنة، وبلغ عدد شيوخه ألفي شيخ من مختلف مدن الأمصار.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٨/٢١.

(٢) نسبة إلى جورجير محلة بأصبهان. (معجم البلدان): ١٤٦/٢.

وأملى مجالسَ بسَلَماس وهو شابٌّ، وانتخب على غير واحدٍ من المشايخ، وكتبَ العاليَ والنازلَ، ونسخَ من الأجزاءِ ما لا يُحْصَى كثرةً، فكان ينسخ الجزءَ الضخمَ في ليلةٍ، وخطُّهُ مُتْقَنٌ سريعٌ لكنه مُعَلَّق مُغلَق.

وبقي في الرحلة ثمانية عشر عاماً، يكتبُ الحديث والفقه والأدبَ والشعرَ. وقَدِمَ دمشق سنة تسع وخمس مئة، فأقام بها سنتين، يكتبُ العلم مقيماً بالخانقاه، وقد جمعوا لَهُ من جُزَازِهِ وتعاليقِهِ «مُعجَم السَّفَر» في مجلدٍ كبير. ثم استوطن ثغر الإسكندرية بضعاً وستين سنة وإلى أن مات، ينشرُ العلمَ ويُحَصِّل الكتبَ التي قَلَّ ما اجتمع لعالم مثلها في الدنيا.

ارتحلَ إليه خلقٌ كثيرٌ جداً، ولا سيما لما زالت دولة الرفض عن إقليم مصر وتملَّكها عَسْكرُ الشام، فارتحل إليه السلطانُ صلاحُ الدِّينِ وإخوتُه وأمراؤه، فسمعوا منه.

حَدَّثَ عنهُ الحافِظُ محمدُ بنُ طاهرٍ المَقدِسيُّ، والمُحدَّث سَعْد الخير وهما من شيوخه، وأبو العز محمد بن عليّ المُلْقَاباذِيُّ، وعليُّ بن إبراهيم السَّرقُسطِيُّ، وطيِّبُ بن محمد المَروَزِيُّ، وقد روَى أبو سَعْدٍ السَّمعَانيُّ عن الثلاثة عن السِّلَفِيّ. وممن روى عنه يحيى بن سَعْدون القُرطبيُّ، والصائن هبة الله بن عساكر، وحَدَّثَ عنهما الحافظان: ابنُ السَّمعَانيّ، وأبو القاسم بنُ عساكر عنه.

ولقد خَرَّج «الأربعين البلدية» التي لم يُسْبَقْ إلى تخريجها، وقَلَّ أن يتهيَّأ ذلك إلاَّ لحافظٍ عُرِفَ باتساع الرحلةِ. وله كتاب: «السفينة الأصبهانيَّة» في جُزء ضخم، رويناه[1]، و«السفينة البغدادية» في جزءين كبيرين، و«مقدِّمة معالم السُّنَن»، و«الوجيز في المُجازِ والمجيز»، و«جزء شرط القراءة على الشيوخ»، و«مجلسان في فضل عاشوراء».

وانتخبَ على جماعةٍ من كبار المشايخ كجعفر بن أحمد السَّراج، وأبي الحسين بن الطُّيوري، وأبي الحسن بن الفَرّاء الموصلي، وكان مُكبّاً على الكتابة والاشتغال والرواية، لا راحة له غالباً إلاَّ في ذلك.

---

(١) من كلام الحافظ الذهبي في سيره: ٢١/١٠.

قال الحافظ المُنْذِرِيُّ: سمعتُ الحافظَ ابنَ المُفَضَّل يقول: عِدَّة شيوخ الحافظ السِّلَفِيّ بأصبهان تزيد على ست مئة نفسٍ، ومشيخته البغدادية خمسة وثلاثون جزءاً، وكل مَن سمع من أبي صادق المَدِينيّ ومحمد بن أحمد الرازيّ المُعَدَّل من المصريين فأكثره بإفادته.

وقال عبدُالقادر الرُّهاويُّ: سمعتُ مَن يحكي عن ابنِ ناصرٍ أنَّه قال عن السِّلفيّ: كان ببغدادَ كأنَّهُ شعلةُ نارٍ في تحصيلِ الحديث، وسمعتُ محمَّد بن أبي الصَّقر يقول: كان السِّلَفيُّ إذا دخلَ على هبةِ اللَّهِ بن الأكفانيّ يتلقّاهُ، وإذا خرجَ يُشَيّعُه.

ثم قال عبدُالقادر: كانَ لهُ عندَ ملوكِ مصرَ الجاهُ والكلمةُ النافذةُ مع مخالفتِه لهم في المذهبِ ـ يريد عبدُالقادر الملوكَ الباطنيَّةَ المتظاهرين بالرّفض ـ وقد بنى الوزيرُ العادلُ ابن السَّلارِ مدرسةً كبيرةً، وجعلَهُ مدرِّسَها على الفقهاءِ الشافعيَّةِ، وكان ابن السَّلار له مَيْلٌ إلى السُّنَّةِ.

قال عبدُالقادر الحافظُ: وكان أبو طاهر لا تبدو منه جفوةٌ لأحدٍ، ويجلسُ للحديث فلا يشربُ ماءً، ولا يبزقُ، ولا يتورّكُ، ولا تبدو له قدمٌ، وقد جازَ المئة. بلغني أنَّ سلطانَ مصرَ حضرَ عنده للسماع، فجعلَ يتحدَّثُ مع أخيهِ، فزَبَرَهُما، وقال: أيش هذا، نحن نقرأ الحديثَ، وأنتما تتحدَّثان؟! وبلغني أنَّ مدة مُقامِه بالإسكندريةِ ما خرجَ منها إلى بُستانٍ ولا فُرجةٍ سوى مرةٍ واحدةٍ، بل كان لازماً مدرستَهُ، وما كُنَّا نكادُ ندخلُ عليه إلاَّ ونراهُ مطالعاً في شيءٍ، وكان حليماً متحمِّلاً لجفاءِ الغرباء.

خرج من بغدادَ سنةَ خمس مئةٍ إلى واسط والبصرة، ودخل خوزستانَ وبلاد السُّيس ونهاوندَ، ثم مضى إلى الدَّرْبَنْد، وهو آخر بلادِ الإسلام، ثم رجع إلى تَفْليسَ وبلادِ أذربيجانَ، ثم خرجَ إلى ديارِ بكرٍ، وعادَ إلى الجَزيرَة ونصيبينَ وماكسينَ، ثم صعد إلى دمشقَ.

ولمَّا دخلَ الإسكندريةَ رآهُ كبراؤُها وفضلاؤُها، فاستحسنوا علمَهُ وأخلاقَهُ وآدابَهُ، فأكرموهُ، وخدموه، حتى لزموهُ عندهم بالإحسانِ.

وحدثني رفيقٌ لي عن ابنِ شافعٍ، قال: السِّلَفيُّ شيخ العلماء.

وسمعت بعضَ فضلاءِ هَمَذانَ يقول: السِّلَفيُّ أحفظُ الحُفّاظِ.

قال الحافظُ أبو القاسم بن عساكر في ترجمة السِّلَفِيِّ: حدَّث بدمشق، وسمع منه بعضُ أصحابنا، ولم أظفر بالسماعِ منهُ، وسمعتُ بقراءتِه من عدةِ شيوخٍ، ثم خرج إلى مصرَ وسمعَ بها، واستوطنَ الإسكندريةَ، وتزوَّجَ بها امرأةً ذات يسارٍ، وحصلتْ له ثروةٌ بعد فقرٍ وتصوُّفٍ، وصارتْ له بالإسكندرية وجاهةٌ، وبنى له أبو منصور عليُّ بن إسحاق بن السَّلار الملقب بالعادلِ أمير مصرَ مدرسةً ووقفَ عليها. أجازَ لي جميع حديثِهِ، وحدثني عنه أخي.

سمعتُ الإمامَ أبا الحُسَين ابن الفقيه يقول: سمعتُ الحافظَ زكيَّ الدينِ عبدَالعظيم يقول: سألتُ الحافظَ أبا الحسن عليَّ بنَ المُفَضَّل عن أربعة تَعاصروا، فقلتُ: أيُّما أحفظ أبو القاسم بن عساكر أو أبو الفضل بن ناصر؟ فقال: ابنُ عساكر، قلتُ: أيُّما أحفظُ ابنُ عساكر أو أبو موسى المَدينيّ؟ قال: ابنُ عساكر، قلتُ: أيُّما أحفظُ ابنُ عساكر أو أبو طاهر السِّلَفيُّ؟ قال: السِّلَفِيُّ شيخُنا! السِّلَفِيُّ شيخُنا! قلتُ: فهذا الجوابُ محتملٌ كما ترى، والظاهرُ أنَّه أرادَ بالسِّلَفِيِّ المبتدأ وبشيخنا الخبر، ولم يقصد الوصفَ، وإلاَّ فلا يَشكُّ عارفٌ بالحديث أنَّ أبا القاسم حافظُ زمانه، وأنَّه لم يرَ مثلَ نفسِه.

قال الحافظُ عبدُالقادر: وكان السِّلَفِيُّ آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، حتَّى إنَّه قد أزال من جواره منكراتٍ كثيرةً، ورأيتُه يوماً، وقد جاء جماعةٌ من المقرئين بالألحان، فأرادوا أن يقرؤوا فمنَعَهم من ذلك، وقال: هذه القراءةُ بدعَةٌ، بل اقرؤوا ترتيلاً، فقرؤوا كما أمرهم.

قال الحافظُ ابن نُقْطَة: كان السِّلَفِيُّ جوَّالاً في الآفاق، حافظاً، ثقةً، متقناً، سَمِع منه أشياخُهُ وأقرانُه، وسألَ عن أحوالِ الرجالِ شجاعاً الذُّهلِيَّ، والمؤتَمَنَ الساجيَّ، وأبا عليٍّ البَرَداني، وأبا الغنائمِ النَّرْسيّ، سُؤالَ ضابطٍ مُتْقِنٍ.

قال: وحدثني عبدُالعظيم المنذريُّ بمصرَ، قال: لمَّا أرادوا أن يقرؤوا سننَ النَّسائيّ على أبي طاهر السِّلفيِّ، أتَوْهُ بنسخةِ سَعْدِ الخيرِ وهي

مُصَحّحة، قد سَمعها من الدُّونيّ، فقال: اسمي فيها؟ قالوا: لا، فاجتذبها من يد القارىء بغيظ، وقال: لا أحدِّثُ إلاَّ من أصل فيه اسمي. ولم يحدِّث بالكتاب.

قال ابنُ نقطة: قال لي عبدُالعظيم: قال لي أبو الحسن المقدسيُّ: حفظت أسماءَ وكُنًى، ثم ذاكرتُ السِّلفيَّ بها، فجعل يذكرها من حفظهِ وما قال لي: أحسنتَ، ثم قال: ما هذا شيءٌ مليحٌ منّي، أنا شيخٌ كبيرٌ في هذه البلدةِ هذهِ السنين لا يُذاكرني أحدٌ، وحفظي هكذا.

قال العمادُ الكاتبُ: وسكن السِّلَفيُّ الإسكندريَّةَ، وسارت إليه الرجال، وتبرَّك بزيارتِهِ الملوكُ والأقيالُ، وله شِعْرٌ ورسائلُ ومصنفاتٌ. ثم أوردَ له مُقطَّعاتٍ من شعرِه.

وحضرَ عندَهُ السلطانُ صلاحُ الدينِ وأخوه الملكُ العادلُ لسماع الحديث، فتحدثا، فأظهرَ لهما الكراهةَ وقال: أنتما تتحدّثان، وحديثُ النبيّ ﷺ يُقرأ؟! فأصغيَا عند ذلك.

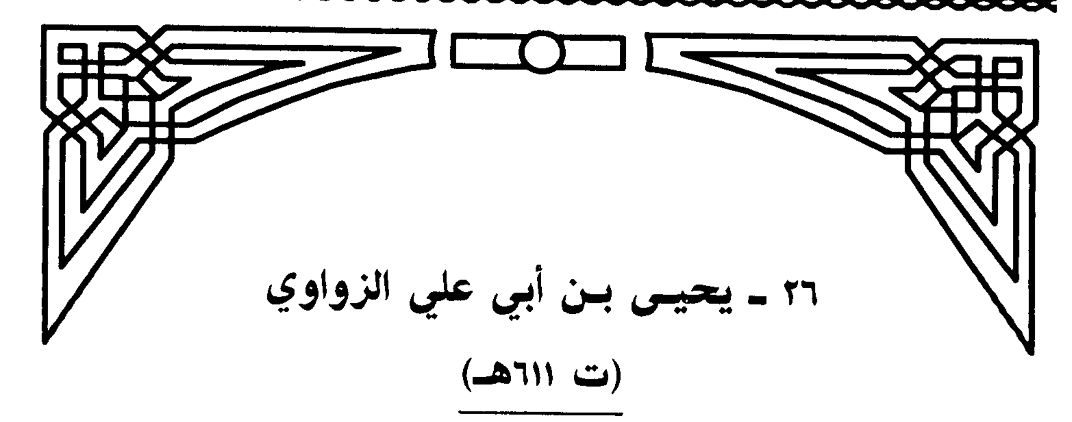
قلتُ: وقد حدَّث السلطان عنه.

قال الحافظ زكيُّ الدين عبدالعظيم: كان السِّلَفيُّ مُغرًى بجمع الكتبِ والاستكثار منها، وما كان يصِلُ إليه من المالِ كانَ يُخرجه في شرائها، وكان عنده خزائنُ كتبٍ، ولا يتفرَّغ للنظرِ فيها، فلما مات وجدوا معظمَ الكتبِ في الخزائنِ قد عفنتْ، والتصق بعضُها ببعضٍ لنداوةِ الإسكندريةِ، فكانوا يستخلصونها بالفأسِ، فَتَلِفَ أكثرُها.

وأنشد أبو طاهرٍ السِّلَفيُّ لنفسِهِ:

كَمْ جُلْتُ طُوْلاً وَعَرْضاً ... وَجُبْتُ أَرْضاً فَأَرْضَا
وما ظَفِرْتُ بِخِلٍّ ... مِنْ غَيْرِ غِلٍّ فَأَرْضَى

قال المحدث وجيه الدين عبدالعزيز بن عيسى اللخمي: «... ولم يزل يُقرأ عليه الحديث يوم الخميس إلى أن غربت الشمس من ليلة وفاته، وهو يردُّ على القارىء اللَّحن الخفي».



٢٦ - يحيى بن أبي علي الزواوي

(ت ٦١١هـ)

مات وهو يفسر آية من القرآن الكريم بحضور طلبته

قال عنه أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبدالله الغبريني[1]:

«الشيخ الفقيه الصالح العابد الولي الزاهد على التحقيق، المتوجه إلى الله بكل وجهة... قرأ أول مرة بقلعة بني حماد على الشيخ الصالح أبي عبدالله بن الخراط، وغيره.

ثم ارتحل إلى المشرق، ولقي الفضلاء والأخيار، والمشايخ من الفقهاء، والمتصوفة، وأهل طريق الحق، وكان رحمه الله منذ ظهر بانياً على ترك الدنيا، والانقطاع إلى الدار الآخرة».

ومن مشايخه الفقيه أبو الطاهر إسماعيل بن مكي بن عوف الزهري روى عنه «الموطأ» والقاضي أبو سعيد مخلوف روى عنه «المصابيح» وكتباً عدة إجازة وسماعاً، والإمام أبو طالب أحمد بن رجا اللخمي قرأ عليه وأخذ عنه الأصلين حفظاً وإتقاناً، والحافظ أبو طاهر السلفي صحبه وأخذ عنه إعجاز القرآن للخطابي...

ثم قال الغبريني:

(١) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية: ٦٠.

«استوطن بجاية ـ رحمه الله ـ بعد رجوعه من المشرق وجلس بها لنشر العلم وبثه والدعاء إلى الله تعالى، فانتفع الخلق على يديه وظهرت عليهم بركته وفعلت فيهم سريرته الصالحة ونيته، ولم يكن أحد أجلد منه على القيام والصيام وما كان عيشه رضي الله عنه إلاً من المباح كالبقول المطروحة وما جرى مجراها، وإذا اشتهى اللحم ينزل إلى البحر فيصيد السِمَاك على الأحجار وهي لحمة رضي الله عنه، وما من ناحية من النواحي إلاً وله فيها مسجد ومعلم وكلها معروف البركة، وكراماته رضي الله عنه أكثر من أن تحصى ولو كتبت لكانت مجلدات وأحواله كلها كرامات.

وكان يجلس لعلوم الحديث ولعلوم الفقه ولعلوم التذكير، وكان الغالب عليه رضي الله عنه الخوف ما يمر بمجلسه إلاً ذكر النار والأغلال والسعير وتكاد تفيض قلوب الحاضرين في مجلسه، هذا هو حاله دائماً وهذه الطريق هي أحسن الطريق في الدعاء إلى الله تعالى إذ جبل الله الخلق على أنَّهم لا ينفعلون غالباً إلاً بالخوف ولأجل هذا كان أكثر الشريعة تخويفاً.

وما زال رضي الله عنه مستمرّاً على هذه الحال إلى يوم وفاته؛ يبسط أمل الناس ورجاءهم في رحمة الله وفي سعة مغفرته ومناهم بما عنده من كثرة الثواب، وأنَّه لا يضيع أجر مَن أحسن عملاً إلى غير ذلك مما اشتمل عليه مجلسه وهذا طريق حسن؛ لأنَّه لم يبق عند لقاء الله إلاً الطمع في رحمته والرغبة فيما عنده؛ لأنَّ الخوف فائدته إنَّما هي الحض على العمل وحين الموت انقطع العمل ولم يبق إلاً قوة الأمل لتلقى الله طيبة نفسه فيحب لقاء الله فيحب الله لقاءه حسبما اقتضاه الحديث.

ولقد رأيت فصلاً فيه ذكر وفاته بخط الشيخ المقرئ أبي العباس بن خراط وأنا أذكره بنصه قال ـ رحمه الله ـ: إن وفاته كانت بعد صلاة العصر من يوم الجمعة الرابع عشر من شهر رمضان المعظم من عام أحد عشر وستمائة، وتوفي في هذا اليوم فجأة من غير تقدم مرض؛ وكان قد رتب ميعاداً بالقراءة لسماع تفسير القرآن العظيم، وميعاداً بعد صلاة الظهر لسماع حديث رسول الله ﷺ على جري عادة السلف الصالح في شهر رمضان،

فبينما أنا أقرأ بين يديه بالغداة وقد مرت آية فهم منها ما لم نفهم وعلم من فحواها ما لم نعلم، إذ وثب قائماً فنزع طيلسانه وطرح رداءه وحسر رأسه وبسط يديه ومد ذراعيه، فأمسك عن القراءة فتعوذ بصوت رفيع وبسمل فافتتح بقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، ولم يزل يرددها ويكررها بتحذير وترنين، ثم أقبل على الناس بخضوع وخشوع وأخذ يبين لهم ما أعدَّ الله من سعة الرحمة وأضعاف الحسنات والتجاوز عن السيئات؛ وأنَّ الله لا يضيع أجر مَن أحسن عملاً، ثم قال: يا إخواني، سألتكم بالله إلاَّ ما ضممتم صبيانكم وأولادكم وأصاغركم ودعوتم لي ولا تنسوني فإني جار لكم ولست أنساكم، وأكثر من هذا القول في بكاء شديد حتى كأنَّه أشعر أنَّه راحل من الدنيا وأنَّ ذلك وداع منه للنَّاس، ثم دخل زاويته دون أن يختم مجلسه بالدعاء المعهود منه، ولما حانت صلاة الجمعة وأخذ النَّاس في الرواح وجلس الإمام على المنبر وأذن المؤذن خرج على النَّاس من زاويته وجلس منصتاً لاستماع الخطبة، فلما قُضيت الصلاة نصبوا له كرسيه واستوى عليه وازدحم النَّاس ينظرون إليه فأخذت في قراءة كتاب: «المسند الصحيح من حديث رسول الله ﷺ» تصنيف الإمام الحافظ أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري رضي الله عنه، وهو ينظر إليَّ فاعتراه شبه غشي أماله على جانبه الأيمن فبادرت إليه مع بعض مَن قرب منه خشية السقوط، فحملناه وأدخلناه زاويته وأطبقنا الباب دونه فبادر إليه مَن كان يخدمه من أهله وجلسنا ننتظر عاقبة أمره إلى أن أذَّن مؤذن العصر وأخذ النَّاس في التنفل، ثم أقيمت الصلاة فسمعنا في الزاوية حركة اغتسال نفهم منها تجديد طهارة، ثم سكنت تلك الحركة وقد أدرك فضل صلاة الجماعة ثم استلقى مستقبلاً؛ فقُبض طاهراً صائماً صامتاً معتكفاً في الجامع الأعظم صحيحاً سويّاً دون مرض ولا ألم، قَدَّس الله روحه وبرّد ضريحه ونفع به وبصالح دعائه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



٢٧ ـ ابن رُوزبَة
(ت ٦٣٣هـ)

مات في الليلة التي ختم فيها «صحيح البخاري» على تلاميذه

ذكر التقي الفاسي في «ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد»[(١)] عند ترجمة: (أحمد بن عبدالله بن عمر بن معطي شهاب الدين، المعروف بابن الإمام الجزائري).

«سمع على علي بن أبي بكر بن رُوزْبَة «صحيح البخاري» في أربعة عشر مجلساً، آخرها خامس ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة. وحكى ابن معطي أنَّه كان قال لهم في يوم الفرغ: اجتهدوا في إكمال هذا الكتاب فإنَّه والله ما بقي غيركم يسمعه علي، وتوفي في الليلة المتصلة بذلك اليوم».

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) ج٢/٦٧، ٦٨.



٢٨ ـ ابن مالك

(ت ٦٧٢هـ)

حفظ ثمانية أبيات قبل موته تلقيناً

أبو عبدالله بن مالك «من الأئمة الكبار، الذين حافظوا على الساعات واللحظات حتى وهم في غمرات الموت ووداع الحياة، وتعلقوا بتحصيل العلم قبيل ساعة الممات»(١).

وإليك ترجمة موجزة عن هذا الإمام من خلال كتاب: «نفح الطيب»(٢) لأحمد بن المقري التلمساني: «أبو عبدالله بن مالك، صاحب التسهيل والألفية، وهو: جمال الدين محمد بن عبدالله بن عبدالله ابن مالك الإمام العلاّمة الأوحد الطائي الجياني المالكي حين كان بالمغرب، الشافعي حين انتقل إلى المشرق، النحوي نزيل دمشق».

ولد سنة ستمائة أو في التي بعدها، وسمع بدمشق من مكرم وأبي صادق الحسن بن صبّاح وأبي الحسن السخاوي وغيرهم، وأخذ العربية عن غير واحد، فممن أخذ عنه بجَيّان أبو المظفر، وقيل: أبو الحسن، ثابت بن خيار، عُرِف بابن الطيلسان، وأبي رزين بن ثابت بن محمد بن يوسف بن خيار الكلاعي من أهل لَبْلَة، وأخذ القراءات عن

(١) قيمة الزمن عند العلماء: ٧٠.
(٢) ج٢/٢٢٢ ـ ٢٢٩.

أبي العباس أحمد بن نَوّار، وقرأ كتاب سيبويه على أبي عبدالله بن مالك المرشاني، وجالس يعيش وتلميذه ابن عَمْرون وغيره بحلب، وتصدَّر بها لإقراء العربية، وصرف همته إلى إتقان لسان العرب، حتى بلغ فيه الغاية، وأربى على المتقدمين، وكان إماماً في القراءات، وعالماً بها، وصنَّف فيها قصيدة دالية مرموزة في قدر الشاطبية، وأمَّا اللغة فكان إليه المنتهى فيها.

قال الصفدي: أخبرني أبو الثناء محمود قال: ذكر ابن مالك يوماً ما انفرد به صاحب المحكم عن الأزهري في اللغة، قال الصفدي: وهذا أمر مُعجز، لأنَّه يحتاج إلى معرفة جميع ما في الكتابين، وأخبرني عنه أنَّه **كان إذا صلَّى في العادلية ـ لأنَّه كان إمام المدرسة ـ يُشيعه قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان إلى بيته تعظيماً له.**

وقد روى عنه الألفية شهابُ الدين محمود المذكور، ورواها الصفدي خليل عن شهاب الدين محمود قراءة، ورواها إجازةً عن ناصر الدين شافعِ بن عبدالظاهر، وعن شهاب الدين بن غانم بالإجازة عنهما عنه.

وأمَّا النحو والتصريف فكان فيهما ابن مالك بحراً لا يُشَق لُجُه، وأمَّا اطلاعه على أشعار العرب التي يُسْتَشْهد بها على النحو واللغة فكان أمراً عجيباً، وكان الأئمة الأعلام يتحيرون في أمره، **وأمَّا الاطلاع على الحديث فكان فيه آية، لأنَّه أكثر ما يستشهد بالقرآن، فإن لم يكن فيه شاهد عَدَلَ إلى الحديث**، وإن لم يكن فيه شيء عدل إلى أشعار العرب، هذا مع ما هو عليه من الدين والعبادة وصدق اللهجة، وكثرة النوافل، وحسُن السَّمْت، وكمال العقل، وأقام بدمشق مدة يصنف ويشتغل بالجامع وبالتربة العادلية، وتخرج به جماعة، وكان نظم الشعر عليه سهلاً رَجزَهُ وطَويله وبَسيطه، وصنَّف كتاب: «تسهيل الفوائد»، قال الصفدي: ومدحه سعد الدين محمد بن عربي بأبيات مليحة إلى الغاية، وهي:

إنَّ الإمام جمالَ الدين جَمّله ... ربُّ العُلا ولنَشْر العلم أهَّلَهُ
أملى كتاباً له يُسَمَّى «الفوائد» لم ... يزل مفيداً لذي لبٍّ تأمله
وكلّ مسألة في النحو يَجمَعُها ... إنَّ الفوائد جمع لا نظير لهُ

وقال بعض مَن عرَّف بابن مالك: إنَّه تصدر بحلب مدة، وأمَّ بالسلطانية، ثم تحول إلى دمشق، وتكاثر عليه الطلبة، وحاز قَصَبَ السبق، وصار يُضرب به المثل في دقائق النحو، وغوامض الصرف، وغريب اللغات، وأشعار العرب، مع الحفظ والذكاء والورع والديانة وحسن السَّمْت والصيانة والتحري لما ينقله والتحرير فيه، وكان ذا عقل راجح، حسن الأخلاق مهذباً، ذا رَزَانة وحياء ووقار، وانتصاب للإفادة، وصبر على المطالعة الكثيرة، تخرج به أئمة ذلك الزمان كابن المنجي وغيره، وسارت بتصانيفه الرُّكبان، وخضع لها العلماء الأعيان، **وكان حريصاً على العلم، حتى إنَّه حفظ يوم موته ثمانية شواهد.**

وكان، رحمه الله تعالى، كثير المطالعة، سريع المراجعة، لا يكتب شيئاً من محفوظه حتى يراجعه في محله، وهذه حالة المشايخ الثقات، والعلماء الأثبات، ولا يُرى إلاَّ وهو يصلي أو يتلو أو يصنف أو يقرأ، وكذا كان الشيخ أبو حَيّان، ولكن كان جِدُّه في التصنيف والإقراء.

وحكي أنَّه توجه يوماً مع أصحابه للفرجة بدمشق، فلما بلغوا الموضع الذي أرادوه غَفَلوا عنه بسويعة، فطلبوه فلم يجدوه، ثم فحصوا عنه فوجدوه منكبّاً على أوراق.

وأغرب من هذا في اعتنائه بالعلم ما مر أنَّه حفظ يوم موته عدة أبيات حَدَّها بعضهم بثمانية، وفي عبارة بعض «أو نحوها» لقه ابنه إياها، وهذا ممَّا يصدق ما قيل: بقدر ما تتعنى، تنال ما تتمنى، فجزاه الله خيراً عن هذه الهمة العلية.

وذكر أبو حيان في الجوازم من تذييله وتكميله، أنَّه لم يصحب مَنْ له البراعة في علم السان، ولذا تَضْعُفُ استنباطاته وتعقّباته على أهل هذا الشأن، وينفر من المنازعة، والمباحثة والمراجعة، قال: وهذا شأن مَن يقرأ بنفسه، ويأخذ العلم من الصحف بفهمه، ولقد طال فَحْصي وتنقيري عمّن قرأ عليه، واستند في العلم إليه، فلم أجد مَنْ يذكر لي شيئاً من ذلك، ولقد جرى يوماً مع صاحبنا تلميذه علم الدين سليمان بن أبي حرب الفارقي

الحنفي فقال: ذكر لنا أنَّه قرأ على ثابت بـن خيار من أهل بلدهِ، جيّان، وأنَّه جلس في حلقة الأستاذ أبي علي الشلوبين نحواً من ثلاثة عشر يوماً، وثابت بـن خيار ليس من أهل الجلالة والشهرة في هذا الشأن، وإنَّما جلالته وشهرته في إقراء القرآن، هذا حاصل ما ذكره أبو حيَّان.

قال بعض المحققين، وهو العلاَّمة يحيى العَجيسي: وليس ذلك منه بإنصاف ولا يحمل على مثله إلاَّ هوى النفس وسرعة الانحراف، فنفيه المسندَ عنه والمتبعَ، شهادةُ نفي فلا تنفع ولا تُسمع، ويكفي ما سطر في حقه قوله في أثنائه: نظم في هذا العلم كثيراً ونثر، وجمع باعتكاف على الاشتغال به ومراجعة الكتب ومطالعة الدواوين العربية وطول السن من العلم غرائبَ، وحوت مصنفاته منها نوادر وعجائب، وإنَّ منها كثيراً استخرجه من أشعار العرب وكتب اللغة إذ هي مرتبة الأكابر النقاد، وأرباب النظر والاجتهاد، وقوله في موضع آخر من تذييله: «لا يكون تحت السماء أنحى ممّن عَرَفَ ما في تسهيله»، وقرنه في «بحره» بمصنف سيبويه فما ينبغي له أن يغمصه، ولا أن يحط عليه، ولا أن يقع فيما وقع فيه، فإنَّه ممَّا يُجَرِّىء على أمثاله الغبي والنبيه، والحليم والسفيه، وما هذا جزاء السلف من الخلف، والدُّرر من الصدف، والجيِّد من الحشف، أوَ ما ينظر إلى شيخه أبي عبدالله بـن النحاس، فإنَّه لا يذكره إلاَّ بأحسن ذكر كما هو أدب خيار النَّاس، ومن كلامه في نقله عنه: وهو الثقة فيما ينقل والفاضل حين يقول، وإلى تلميذه أبي البقاء المصري حيث يقول فيه، أعني في أبي حيَّان:

هو الأوحدُ الفردُ الذي تمَّ عِلْمُه وسار مسيرَ الشمسِ في الشرقِ والغربِ
ومن غايةِ الإحسانِ مبدأ فضلِهِ فلا غروَ أن يسمو على العُجم والعُربِ

ومن غاية الإحسان، في هذا الشأن، التصانيف التي سارت بها الرُّكبان، في جميع الأوطان، واعترف بحسنها الحاضر والبادي، والداني والقاصي، والصديق والعدو، فتلقّاها بالقبول والإذعان، فسامح الله تعالى أبا حيَّان، فإنَّ كلامه يحقق قول القائل: كما تدين تدان، ورحم الله تعالى ابـن مالك، فلقد أحيا من العلم رسوماً دارسة، وبيَّنَ معالم طامسة، وجمع

من ذلك ما تفرق، وحقق ما لم يكن تبين منه ولا تحقق، ورحم شيخه ثابت بن الخيار، فإنَّه كان من الثقات الأخيار، وهو أبو المظفر ثابت بن محمد بن يوسف بن الخيار الكُلاعي ـ بضم الكاف على ما كان يضبط بيده فيما حكاه ابن الخطيب في الإحاطة ـ وأصله من لَبْلَة، ويُعد في أهل جَيّان، وتوفي بغرناطة سنة ٦٢٨هـ.

وكان أبو حَيّان يغض من هذا الكتاب ويقول: ما فيه من الضوابط والقواعد حائد عن مَهْيَع الصواب والسداد، وكثيراً ما يشير إلى ذلك في شرحه المسمَّى: «منهج السالك» ومن غَضّه منه بالنظم في ملإ من الناس من جملتهم: شيخه بهاء الدين بن النحاس، والأقسراني يجاريه مقتفياً له ومتأسياً في تسويد القرطاس:

ألفية ابن مالكِ مطموسةُ المسالكِ
وكم بها مشتغل أوقع في المهالكِ

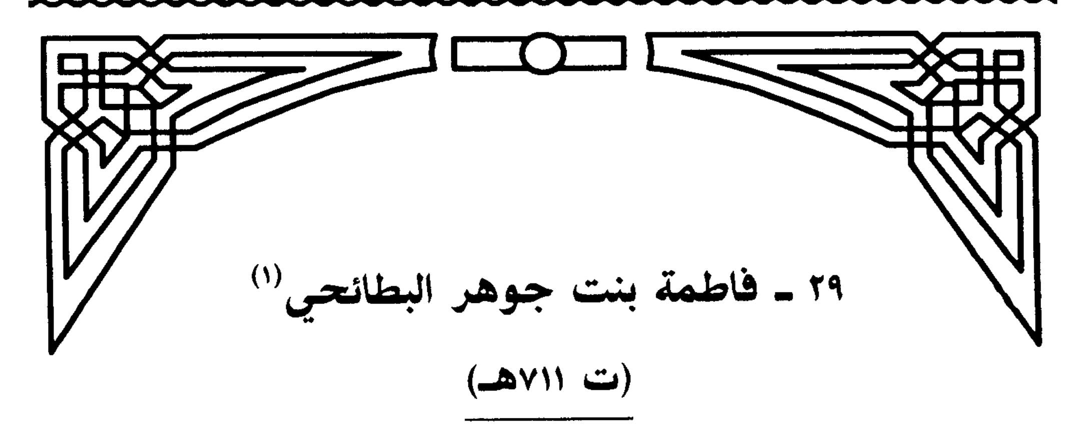
ولا تغتر أنت بهذا الغرر، فإنَّه ما كل سحاب أبرق مطر، ولا كل عود أورق ثمر، وقيل معارضة للقوم، وتنبيهاً لهم ممَّا هم فيه من النوم:

ألفيةُ ابن مالكِ مشرقةُ المسالكِ
وكم بها مشتغلٍ عَلا على الأرائكِ

وما أحسن قول ابن الوردي في هذا المعنى:

يا عائباً ألفيّةَ ابنِ مالك وغائباً عن حفظها وفهمها
أما تَراها قد حَوَتْ فضائلاً كثيرة فلا تَجُرْ في ظلمها
وازْجُرْ لمن جادل مَنْ يحْفَظها برابع وخامس مِنِ اسمها

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



٢٩ ـ فاطمة بنت جوهر البطائحي[(١)]

(ت ٧١١هـ)

قرأ عليها الإمام الذهبي قبيل وفاتها بقليل

ولدت فاطمة بنت البطائحي بدمشق سنة **٦٢٥**هـ، ويقال لها اختصاراً: فاطمة بنت جوهر أو بنت البطائحي.

لا نعلم شيئاً عن أسرتها في الحديث، فكتب التراجم لا تسعفنا بمعلومات عن والدها أو جدها.

لكن فاطمة بنت البطائحي استطاعت بفضل جهودها أن تكوّن أسرة علمية تُعنى بالحديث الشريف، فقد اعتنت بأولادها وأحضرتهم مجالس السماع، كما سمعوا منها، وساعدها زوجها في ذلك وهو أيضاً من المحدثين واسمه بركات بن أبي الفضل البعلي ـ المعروف بابن القريشية.

أخذت فاطمة الحديث عن عدد من محدثي العصر ومسنديه، لكن كتب التراجم لم تذكر لنا سوى أسماء ثلاثة منهم، مع ذكر أنها سمعت من غيرهم أيضاً:

---

(١) انظر: ترجمتها بتوسع في كتابي: «جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث الشريف» ـ ط ـ دار الفكر بدمشق.

١ ـ فقد سمعت من مسند الوقت المعمَّر أبي عبدالله الحسين بن المبارك بن محمد الزبيدي (٦٣١هـ) صحيح البخاري.

٢ ـ وسمعت من شيخ الحنفية في زمانه المسند المعمَّر محمود بن أحمد بن عبد السيد البخاري ـ المعروف بابن الحصيري (٦٣٦هـ) صحيح الإمام مسلم.

٣ ـ وسمعت من أبي القاسم عبدالله بن الحسين بن عبدالله بن رواحة الأنصاري (٦٤٦هـ).

❏ جهودها في خدمة الحديث:

بذلت السيدة فاطمة شطراً من عمرها في طلب العلم، ثم قامت بواجب تبليغه ونشره بين أهله.

وقد بدأت بالتحديث قديماً من زمن ابن عبد الدائم (ت ٦٦٨هـ) وحدثت بصحيح البخاري وصحيح مسلم مرات، وحدثت بغيرهما مثل: (جزء العلاء بن موسى المعروف بجزء أبي الجهم).

❏ تلامذتها:

أخذ الحديث عن فاطمة بنت البطائحي عدد من طلبة العلم على مدى نصف قرن من الزمان تقريباً، وقد حدثت بدمشق وبالمدينة المنورة.

والآخذون عنها منهم مَن قرأ عليها بنفسه، ومنهم مَن سمع بقراءة غيره، ومنهم مَن أحضر عليها في صغره، ومنهم مَن أجازته، كما أنَّ بعضهم جمع بين القراءة والسماع والإجازة.

ومن أكبر تلاميذها الحافظ المغربي محمد بن عمر بن رُشَيْد السبتي الذي أخذ عنها صحيح الإمام البخاري وأجازته هو وأولاده، لذلك سأخصه بترجمة، مبيناً كيفية تلقي ابن رُشيد عن فاطمة بنت البطائحي لصحيح الإمام البخاري، ثم أذكر بعد ذلك أسماء مَن أخذوا عنها الحديث الشريف بدمشق أو المدينة المنورة.

١ ـ رواية ابن رشيد عن فاطمة صحيح الإمام البخاري:

إنَّ أبرز مَن أخذ عن فاطمة صحيح الإمام البخاري هو الحافظ الرحالة ابن رُشيد السبتي (ت ٧٢١هـ) فقد لقيها في رحلته إلى الحج بمسجد المصطفى ﷺ، وقرأ وسمع عليها هناك، وأجازت له ولأولاده، وكان ذلك سنة ٦٨٤هـ، «وأودعناه الأرواح، وسرنا بالأشباح، والضلوع تتقد، والدموع تطرد، ولسان المقال ينشد:

لئن أصبحت مرتحلاً بشخصي فروحي عندك أبداً مقيم

ولسان الحال يردده:

محبتي تقتضي مقامي وحالتي تقتضي الرحيلا

فوافينا ذا الحليفة، وهي موضع إحرام المدنيين وجوباً، ومَن اجتاز بها من غيرهم ندباً، وهي على ستة أميال من المدينة، وقد قيل: على سبعة، وظاهر التقدير أنَّها ستة، وهي ماء من مياه بني جُشم، وكان بينهم وبين خفاجة العقليين وهي الآن يعرفها النَّاس ببئر علي»[١]...

ـ وصف ابن رشيد المجلس الذي أخذ فيه صحيح البخاري عن فاطمة بنت البطائحي:

لولا هذا الخبر الذي أورده ابن رشيد في رحلته لما عرفنا شيئاً عن خبر حجتها وتحديثها هناك.

وقد وصف ابن رشيد المجلس الذي أخذ فيه عنها صحيح الإمام البخاري فقال:

«لقيتها بمسجد المصطفى ﷺ، وقرىء عليها وهي مستندة إلى جانب رواق الروضة الكريمة المحمدية ـ على ساكنيها السلام ـ تجاه رأس المصطفى الكريم، وكتبت لي بخطها بالإجازة هنالك في جميع مروياتها،

(١) ملء العيبة: ٥/٧٠، ٧١.

ولبني أبي القاسم وعائشة وأمة الله ولأخواتي، ومَن تسمى معنا في الإجازة وبمحضر من ابنها، واسمه في غالب ظني ـ محمد ـ وكانت تسدل جلبابها على رأسها حياءً وصوناً رضي الله عنها».

ثم أورد ابن رشيد بعض الأحاديث التي قرأها عليها، وسأنقل هنا حديثاً واحداً، قرأه عليها بالإسناد من صحيح الإمام البخاري.

قال ابن رشيد: «قرأت على الشيخة الصالحة، أم الخير، وأم محمد فاطمة بنت إبراهيم البطائحي، تجاه رأس المصطفى الكريم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، بين قبره ومنبره، في الرابع والعشرين لذي قعدة، قلت:

«أَخبرك ـ رضي الله عنك ـ الحسين بن المبارك بن محمد الزبيدي بسماعك عليه.

فأشارت: أن نعم.

قال: أخبرنا شيخ الوقت، أبو الوقت عبدالأول بن عيسى بن شعيب السجزي الصوفي قراءة عليه ونحن نسمع، قال: أنا أبو الحسن عبدالرحمٰن بن محمد بن المظفر الداودي البوشنجي قراءة عليه وأنا أسمع ببوشَنج، قال: أنا أبو محمد عبدالله بن أحمد حمويه السرخسي قراءة عليه، قال: أنا أبو عبدالله محمد بن يوسف الفِربري قراءة عليه وأنا أسمع قال: أنا أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن الأحنف الجعفي مولاهم قال: أنا مسدد عن يحيى عن عبيدالله بن عمر قال: حدثني خُبيب بن عبدالرحمٰن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: **«ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»**(١).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: «أبواب التطوع» باب فضل ما بين القبر والمنبر: ٣٩٩/١، حديث: (١١٣٨).

٢ ـ الآخذون عنها الحديث بدمشق:

- عبد اللطيف بن أحمد بن محمود التكريتي ـ المعروف بابن الكويك (٧٣٤هـ)[١].
- علي بن عمر بن عبدالرحيم الجزري ثم الصالحي (٧٣٥هـ)[٢].
- إبراهيم بن أحمد المقدسي (٧٤٩هـ)[٣].
- علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي (٧٥٦هـ)[٤].

٣ ـ مَن أحضر عليها في الحديث:

- ابن الحافظ الذهبي، عبدالله بن محمد بن أحمد (٧٥٤هـ)[٥].
- محمد بن يحيى المقدسي الصالحي (٧٥٩هـ)[٦].

٤ ـ من أجازت لهم رواية الحديث:

- محمد بن رافع السلامي (٧٧٤هـ)[٧].
- أبو القاسم وعائشة وأمة الله أبناء ابن رشيد السبتي (وقد سبق ذكرهم).

❑ ثناء العلماء عليها:

أثنى على فاطمة بنت البطائحي كل مَن ترجم لها ووصفوها بالخير والدين وعلو الإسناد.

فقد أثنى عليها ابن رشيد ووصفها (بالشيخة الصالحة الكاتبة)[٨].

---

(١) الدرر الكامنة: ٢/٤٠٥.
(٢) الدرر الكامنة: ٣/٨٨.
(٣) المعجم المختص: ٤٢.
(٤) طبقات الشافعية الكبرى: ١٠/١٣٩.
(٥) الدرر الكامنة: ٢/٢٨٦.
(٦) الدرر الكامنة: ٤/٢٨٣.
(٧) ذيل العبر: ٧٢، المعجم المختص: ١٥٦، الوافي بالوفيات: ٣/٦٨.
(٨) ملء العيبة: ٢١.

ولقيها الحافظ الذهبي فوصفها بـ(الصالحة المسندة)[١].

وبمثل ذلك وصفها اليافعي وزاد: «وكانت صالحة متعبدة»[٢].

ووصفها ابن القاضي بـ(الشيخة الخيرة الفاضلة الكاتبة)[٣].

وقال ابن العماد الحنبلي: «وكانت دينة متعبدة صالحة مسندة»[٤].

❑ وفاتها:

عاشت السيدة فاطمة بنت البطائحي ٨٦ سنة قضتها في طاعة الله عزَّ وجلَّ وتربية أبنائها، وتنشئتهم على حب الخير وطلب العلم، وفي أداء ما تحملته من الحديث الشريف.

وقرأ الذهبي عليها في المحرم سنة ٧١١هـ قُبيل وفاتها بقليل[٥].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١٤٩٥/٤.
(٢) مرآة الجنان: ٢٨/٤.
(٣) درة الحجال: ٢٦٤/٣.
(٤) شذرات الذهب: ٥٢/٨.
(٥) الحافظ الذهبي لعبد الستار الشيخ ص: ٨٤.





٣٠ ـ الصفي الهندي
(ت ٧١٥هـ)

يقرأ عليه الذهبي حديثين ونفَسه يُحشرج في الصدر

ذكر الذهبي في «معجم شيوخه»[١].

في ترجمته أنَّه روى له حديثين قال:

«ليسا هما عندي، قرأتهما عليه ونَفَسُه يُحشرج في الصدر، فتوفي يومئذٍ، عفا الله عنَّا وعنه آمين.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) ج٢/٢١٦.



٣١ ـ الحجار

(ت ٧٣٠هـ)

قرأ عليه طُلاَّب الحديث وهو يحتضر

قال عنه الحافظ الذهبي في (معجم شيوخه)[١]:

«أحمد بن أبي طالب بن نعمة بن الحسن بن علي بن ريسان، المعمر الكبير، رحلة الآفاق نادرة الوجود، شهاب الدين، أبو العباس، الدير مقرني، ثم الصَّالحي الحجَّار، ابن شِحْنة الصَّالحية».

ظهر هذا الرجل للطلبة في سنة ست وسبعمائة فنبه عليه الشيخ أحمد بن الحلبية المقرىء وقال: عند المعظمية شيخ حجار من أهل الصالحية، سلوه: هل سمع شيئاً؟ فإنَّ هذا رجل مسن وعمره بالجبل، فلعله قد سمع، فأتوه وسأله الشيخ محب الدين: أما سمعت شيئاً؟ فقال: كان شيء وراح، فسألوه عن اسمه وفتشوا الطباق، فظهر اسمه على ابن اللتي من أجزاء، ثم ظهر اسمه إلى أوراق الأسماء لسامعي البخاري، وقصد بالسماع وصار من أمره ما صار.

فأتيته وسمعت منه في سنة ست وسبعمائة وسألته عن سِنّه إذ ذاك فقال: أذكر موت المعظم، وموت المعظم في سنة أربع وعشرين، فسألته

---

(١) ص: ٩٢. رقم الترجمة: (١١٥).

عن حصار الناصر داود في سنة ست فعرفه وقال: كنت أروح بين أخوتي إلى الكتاب حينئذٍ، ولكن سأله قبلي بأيام الشيخ علم الدين فقال: لي الآن اثنتان أو ثلاث وثمانون سنة فعلى هذا يكون مولده سنة ثلاث أو أربع وعشرين وستمائة، ولمَّا قرأت عليه الصحيح بكفر بطنا في شعبان سنة عشرين كان يقول لهم: قد كملت المائة، ولي مائة وستة.

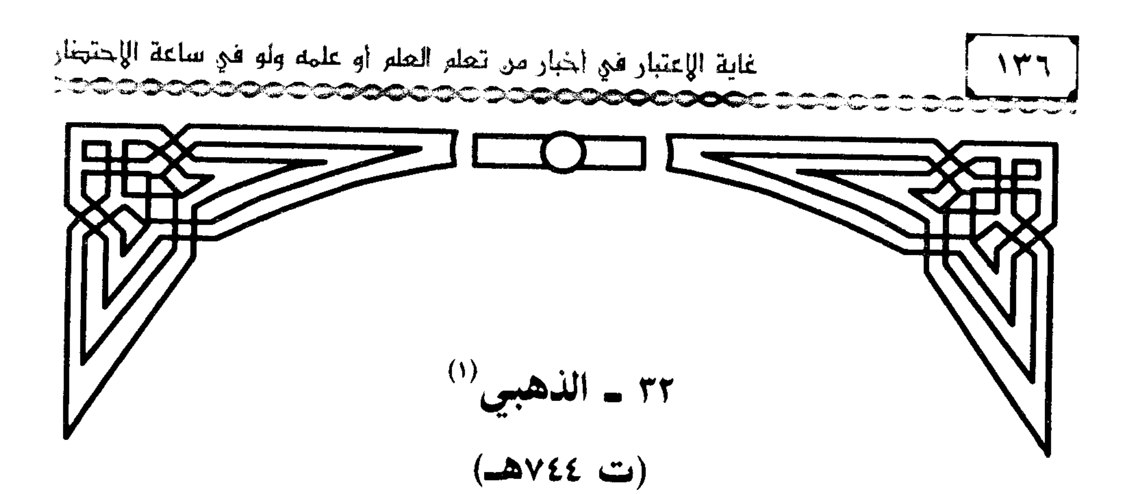
وهو شيخ كامل البنية له همة وجلادة وقوة نفس وعقل جيد، وسمعه ثقيل وقد ذهب غالب أسنانه. وقد روى الصحيح إلى آخر سنة ست وعشرين أزيد من ستين مرة. وإليه المنتهى في الثبات وعدم النعاس، ربما أسمع في بعض الأيام من بكرة إلى المغرب. وقد حدث بمصر مرتين بالصحيح وبحماة وحمص وبعلبك، ويعطى على تسميع الصحيح من خمسين درهماً إلى المائة، وحصل له في سفراته ذهب كثير وخلع وإكرام زائد، وقرر له جامكية، وكان في أواخر أمره يدخل إلى البلد ماشياً.

قال لي: تنزلت في قلعة دمشق حجاراً بعد رواح الخوارزمية، وله إجازة من ابن بهروز والقطيعي وياسمين البيطارية وطبقتهم، وقال لي: كان لأبي بدير مقرن كروم وبستان فتحول إلى الصالحية وولي بها نحواً من أربعين سنة».

وذكر التقي الفاسي في «ذيل التقييد»: أنَّ الطلاب قد قرؤوا عليه في يوم موته. وله مئة وعشر سنين تقريباً[1].

□ □ □ □ □ □

(١) ج٢/٥٨ ـ ٦١.



٣٢ ـ الذهبي[(١)]

(ت ٧٤٤هـ)

يستفتي علي بن عبد الكافي السبكي وهو يحتضر

الحافظ الذهبي أشهر من أن نعرف به؛ فهو نار على علَم. ومصادر ترجمته متعددة لذلك سأقتصر على ذكر جهوده في طلب علم الحديث وشدة نهمه وتحصيله.

لقد حرص الذهبي على التبكير بطلب العلم، والعناية بالرحلة والسماع والرواية.

فكان أولاً يتردد على حلقات العلم ومجالس العلماء، وهو صبي، فقد سمع وهو ابن عشر سنوات من صدر الدين ابن الخطيب في «صحيح مسلم» بدار الحديث، وفي سنة (٦٨٦هـ) ـ وعمره (١٣) سنة ـ سمع من يوسف بن يعقوب الشيباني الدمشقي، وحفظ عنه حديثين، وأخذ عن شيخيه: سعد الخير بن عبدالرحمٰن وأخيه نصر الله، النابلسيَيْن، المتوفييْن سنة (٦٨٧هـ). وعمر الذهبي عندما أخذ عنهما (١٤) سنة على أبعد تقدير.

بيد أنَّ طلبه العلم ورحلاته وسعيه للسماع من أعيان عصره، بصورة

(١) مصادر ترجمة الإمام الذهبي واسعة جداً، وقد اقتصرت هنا على الدراسة الجادة الحديثة عن الذهبي التي قام بها عبد الستار الشيخ في كتابه: «الحافظ الذهبي مؤرخ الإسلام» ط ـ دار القلم ـ دمشق ـ.

منهجية شاملة، كان عندما بلغ ثمانية عشر عاماً، كما يفهم هذا مما ذكره في ترجمة الإمام المفتي محمد بن أحمد بن علي الرقي، حيث قال: «أحد مَن عني بالسماع، ودار على الرواة، ورافق الطلبة، وتميز في الفقه والقراءات، وغير ذلك، فصاحبنا من سنة إحدى وتسعين وست مئة، وهو أسنّ مني بسنوات».

وأجمعت مصادر ترجمته على أنَّه بدأ الطلب في الثامنة عشرة من عمره. وقد توجهت عنايته ـ في بادىء أمره ـ إلى ناحيتين رئيستين وعلمين عظيمين، هما: القراءات، والحديث الشريف.

لقد حرص الذهبي على الرحلة إلى البلاد العامرة بالعلماء، لكن والده لم يشجعه عليها، بل ربّما منعه في بعض الأحايين، ولعلَّ ذلك يعود إلى أنَّ الذهبي وحيد أبويه، فَضَنَّ الأب بابنه؛ حباً له، ومخافة عليه. وقد تحسَّر الإمام على تأخره في الرحلة، بيد أنَّه أطاع أباه، والتزم بما اشترطه عليه وأوصاه به.

قال الذهبي في ترجمة عبدالرحمٰن بن عبداللطيف البغدادي المقرىء (ت ٦٩٧هـ): «وانتهى إليه علو الإسناد، وقد هممت بالرحلة إليه، ثم تركته لمكان الوالد». وقال في موضع آخر: «وانفرد عن أقرانه، وكنت أتحسّر على الرحلة إليه، وما أتجسر خوفاً من الوالد؛ فإنَّه كان يمنعني».

وفي ترجمة عبدالله بن منصور شيخ القرّاء بالإسكندرية (ت ٦٩٢هـ)، يقول: «ولما مات شيخُنا الفاضلي، قبل إكمالي القراءات، بقيت أتلهف، فذُكِر لي هذا الشيخ، وأنَّه باقٍ بالإسكندرية، وأنَّه أعلى رواية من الفاضلي، فازددت تلهفاً وتحسراً على لقيه، ولم يكن الوالد يمكنني من السفر».

ثم سمح له أبوه بالسفر والرحلة عندما اشتدَّ عوده، وبلغ نحواً من عشرين سنة، واشترط عليه ألاَّ يغيب أكثر من أربعة أشهر.

قال في ترجمة يحيى بن أحمد الجذامي الإسكندراني (ت ٧٠٥هـ) ـ وقد وجد الذهبي صعوبة في القراءة عليه لصممه، فخاف أن يضيع وقت

الرحلة القصير دون كبير فائدة ـ: « . . .وكنتُ وعدتُ أبي وحلفتُ له أني لا أقيم في الرحلة أكثر من أربعة أشهر، فخفت أعقّه».

ورحل الإمام الذهبي إلى كثير من بلدان الديار الشامية والمصرية والحجازية المقدسة، وسمع بأكثر من أربعين بلداً، وأشار إلى ذلك في ترجمة الحافظ الجوَّال أبي بكر محمد بن إبراهيم بن المقرىء، فقال: «وقد سمع ابن المُقرىء الحديث في نحو من خمسين مدينة، وانتقيتُ من «معجمه» أربعين حديثاً سمعتها بأربعين بلداً».

وقد حصّل الإمام الذهبي في إقامته بدمشق ـ حيث تغصّ بالعلماء من أهلها والوافدين عليها ـ ومن خلال رحلاته في البلاد الإسلامية علماً غزيراً، واسعاً متنوعاً، واعتمد في ذلك أساليب التحصيل المختلفة من سماع على الأشياخ، وقراءة عليهم، ومشافهة لهم، إضافة إلى المساءلة والمكاتبة.

ومن الأمثلة الرائعة على ذلك ما كتبه الذهبي إلى الإمام العلاَّمة أبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) يسأله بعض الأسئلة عن المغاربة، وكيفية التلفظ بأسمائهم، وعن جماعة من شيوخه، فكان رد أبي حيان هو مؤلَّفه الذي سماه: «در الحبي في جواب أسئلة الذهبي».

وكان يكثر سماع كتاب أو جزء معين، فيسمعه على أشياخ كثيرين، كما أنَّه يتحرى الراسخين من العلماء والمكثرين والمجوِّدين، فيطيل الجلوس إليهم، ويكثر السماع منهم.

ففي ترجمة المحدث الثقة أبي الجَهْم العلاء بن موسى صاحب «جزء أبي الجهم» المشهور، يقول الذهبي: «سمعنا نسخته من نيفٍ وستين نفساً».

ومن أمثلة إكثاره عن بعض الشيوخ المشهورين، قوله: «أخبرنا أبو المعالي أحمد بن إسحاق ـ الأبَرْقُوهي ـ غير مرة. . .». «أخبرنا أحمد بن عبدالحليم الحافظ ـ ابن تيمية ـ غير مرة. . .». «أخبرنا أحمد بن هبة الله ـ ابن عساكر ـ غير مرة. . .». «أخبرنا عمر بن عبد المنعم ـ ابن القواس ـ مرات. . . غير مرة. . .».

خلال هذه الحياة العلمية الحافلة سمع الذهبي الكثير من الكتب والأجزاء، فلقد ذكر أنّه سمع من شيخه عمر بن عبد المنعم بن القواس وحده «نحواً من ثمانين جزءاً». ولكنه لم يجمع مسموعاته في معجم مستقل، وليته فعل! بيد أنّه أشار إلى أشياء غير قليلة في مواضع منثورة أوردها هاهنا ليستفاد منها[١]:

«أربعون حديثاً» من صحيح مسلم، «الأربعون العالية» لأبي المعالي الزملكاني، «الأربعون» لمحمد بن أسلم الطوسي، «الأربعون» للحسن بن سفيان النَّسَوي، «الأربعون» لأبي بكر الجَوْزَقي، «الأربعون» للحافظ أبي عَمرو البُحيري، «الأربعون» لأبي بكر أحمد بن منصور المغربي، «الأربعون» للإمام الزاهد أبي القاسم القشيري.

وهذا ما جعل الحافظ الذهبي يتبوأ مكانة رفيعة عند المحدثين والمؤرخين والنقاد، واعتمدوا على آثاره، واستشهدوا بآرائه، وعضدوا مباحثهم ببحوثه وأقواله ونقداته.

وتفاخر الناس بالانتساب إليه لجلالته وعلو شأنه، حتى إذا أرادوا امتداح أحد كبار العلماء في عصر ما، وصَفوه بأنّه ذهبي ذلك العصر، مثلما فعل الحافظ السيوطي عندما ترجم أمير المؤمنين في الحديث الحافظ ابن حجر العسقلاني، فقال فيه: «فريد زمانه، وحامل لواء السنَّة في أوانه، ذهبي هذا العصر ونضاره...».

وانتفع به الخاصة والعامة منذ عصره وحتى أيامنا هذه، من محدثين ومؤرخين ومؤلفين وباحثين وطلاب علم. فاشتهرت كتبه في أيامه، وتداولها الناس في عصره، وقد عبَّر عن ذلك الحافظ ابن حجر فقال: «ورغب الناس في تواليفه، ورحلوا إليه بسببها، وتداولوها قراءة ونَسْخاً وسماعاً». وقال الحسيني: «وقد سار بجملة منها الركبان في أقطار البلدان».

كما أصبحت تصانيفه موارد لمن بعده، يستقون منها، ويعوّلون عليها، حتى غدت أحد أهم المراجع للباحثين في علم الرجال والتاريخ، ومصدراً

---

(١) من كلام عبد الستار الشيخ في كتابه: «الحافظ الذهبي مؤرخ الإسلام» ص: ٦٥.

رئيساً موثوقاً للكُتَّاب والمؤلفين والمطلعين، لا يستغني عنها عالم ولا طالب علم.

وقد اعْتُبِر الذهبي أحد أربعة حفاظ كبار تعاصروا: فلما سُئل الحافظ الحسيني عن أحفظ مَن لقي، ذكر: المزي، والذهبي، والسبكي، والعلائي.

كما اعتُبر هو والمزيّ مُؤَرِّخي القرن الثامن اللذين لا ينافسهما أحد[1].

وهذه المنزلة الرفيعة للذهبي دفعت الحافظ ابن حجر أن يشرب ماء زمزم لينال مرتبة الذهبي في العلم والرسوخ فيه، حيث يقول: «شربت ماء زمزم لثلاث: أحدها أن أنال مرتبة الحافظ الذهبي، فوجدت بحمد الله أثر ذلك...». وفِعْلُ الحافظ هذا، وتخيّره الذهبي دون غيره من كبار حفاظ زمانه، يدل على أنَّه بلغ الغاية في الإِتقان والضبط، واستقرّ ذلك عند كبار الأئمة من بعده.

لهذا كله كان الذهبي حقيقاً بكل مديح، وأهلاً لكل ثناء، وجديراً بكامل التقدير والتبجيل والاحترام. ولقد عرف له ذلك أهل العلم والصالحون، وأثنى عليه النَّاس، مشايخه وتلامذته فَمَنْ بعدهم.

١ ـ وصفه شيخه علم الدين البرزالي (ت ٧٣٩هـ) بقوله: «رجل فاضل، صحيح الذهن، اشتغل ورحل، وكتب الكثير، وله تصانيف واختصارات مفيدة، وله معرفة بشيوخ القراءات».

٢ ـ وقال تلميذه الحافظ الفقيه الأصولي المؤرخ تاجُ الدين السُّبْكي (ت ٧٧١هـ): «شيخُنا وأستاذُنا، الإمامُ الحافظ، شمس الدين، أبو عبدالله الذهبي، محدِّث العصر. اشتملَ عصرُنا على أربعة من الحفاظ بينهم عموم وخصوص: المِزِّي، والبِرْزالي، والذهبي، والشيخ الإِمام الوالد، لا خامس لهؤلاء في عصرهم».

وأمَّا أستاذُنا أبو عبدالله، فبَحر لا نظير له، وكَنْزٌ هو الملجأ إذا

(١) لمزيد من التوسع راجع كتابي «مدرسة الحديث في بلاد الشام خلال القرن الثامن ـ عصر الأئمة ـ» ط ـ دار البشائر الإسلامية.

نزلت المُعْضلَة، إمامُ الوجود حِفظاً، وذهَبُ العصر معنًى ولفظاً، وشيخُ الجرح والتعديل، ورجلُ الرجالِ في كل سبيل، كأنَّما جُمعتْ الأمة في صعيدٍ واحد فنظرها ثم أخذ يُخبر عنها إخبارَ مَنْ حَضرها. وهو الذي خرَّجنا في هذه الصناعة، وأدخَلَنا في عِداد الجماعة، جزاه الله عنَّا أفضل الجزاء، وجعل حظه من غُرُفاتِ الجناتِ مُوفَّر الأجزاء... وما زال يخدمُ هذا الفن إلى أن رسختْ فيه قدمُه، وتعبَ الليلَ والنهار وما تعبَ لسانُه وقلمُه، وضُربت باسمِهِ الأمثال، وسار اسمه مسير لقبه: الشمس؛ إلاَّ أنَّه لا يتقلّصُ إذا نزلَ المطر، ولا يُدبرُ إذا أقبلت الليالي. وأقامَ بدمشق يُرْحَلُ إليه من سائر البلاد، وتناديه السؤالاتُ من كل ناد.

٣ ـ وقال تلميذه الحافظ الحسيني (ت ٧٦٥هـ): «الشيخ الإمام العلاَّمة، شيخ المحدثين، قدوة الحفاظ والقراء، محدث الشام ومؤرخه ومفيده»، وقال في موضع آخر: «وكان أحد الأذكياء المعدودين، والحفاظ المبرزين»، وقال أيضاً: «جَرَّح وعدَّل، وفرَّعَ وأصَّل، وصَحَّحَ وعلَّلَ، واستدرك وأفاد، وانتقى واختصر كثيراً من تواليف المتقدِّمين والمتأخّرين، وصنَّف الكتب المفيدة السائرة في الآفاق».

٤ ـ ووصفه تلميذه الحافظ المفسر ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) بأنَّه «الشيخ الحافظ الكبير، مؤرخ الإسلام، وشيخ المحدثين».

٥ ـ وأطنب تلميذه العلاَّمة المؤرخ صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ) في الثناء عليه، فقال: «... حافظٌ لا يُجارى، ولافظ لا يُبارى، أتقنَ الحديث ورجالَه، ونَظَر عِلَلَه وأحواله، وعرَّف تراجمَ النَّاس، وأزال الإبهامَ في تواريخهم والإلباس. ذهنٌ يتوقَّدُ ذكاؤه، ويصحُّ إلى الذهب نِسبَتُه وانتماؤه، جَمَعَ الكثير، ونَفَعَ الجمَّ الغفير، وأكثرَ من التصنيف، ووفَّر بالاختصار مؤونةَ التطويل في التأليف.

اجتمعتُ به وأخذتُ عنه، وقرأتُ عليه كثيراً من تصانيفه، ولم أجد عنده جُمودَ المحدثين، ولا كَوْدَنَةَ النَّقَلَة، بل هو فقيه النَّظر، له

دُربة بأقوال النَّاس ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات. وأعجبني منه ما يعانيه في تصانيفه، من أنَّه لا يتعدّى حديثاً يوردُهُ حتى يبين ما فيه من ضعْفِ متن، أو ظلام إسنادٍ، أو طعن في رُوَاته، وهذا لم أر غيرَه يراعي هذه الفائدة فيما يورده».

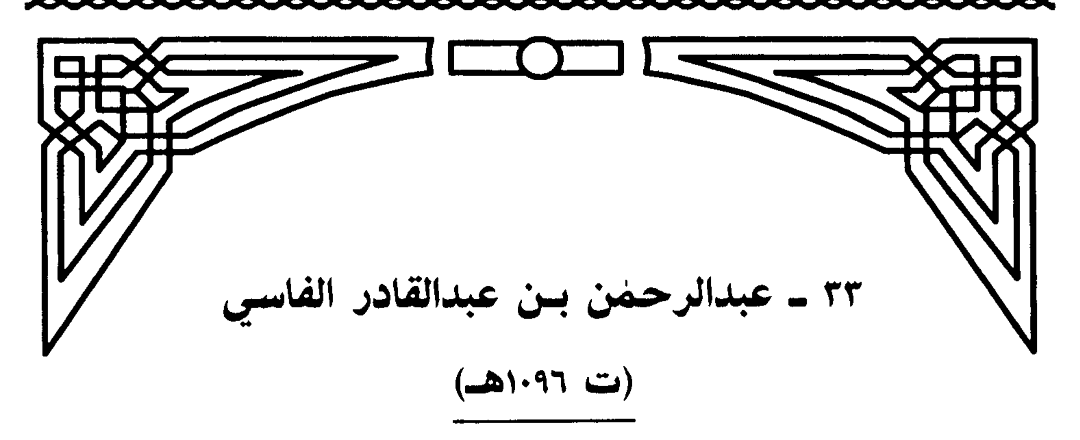
٦ ـ ولمَّا قدمَ الإمام العالم محمد بن محمد بن عبدالكريم المَوْصِلي الأطرابلسي (ت ٧٧٤هـ) دمشقَ سنة (٧٣٤هـ) واجتمع بالذهبي، قال فيه:

ما زلتُ بالسَّمْعِ أهواكُمْ وما ذُكِرَتْ أخبارُكم قطُّ إلاَّ ملتُ من طَرَبِ
وليس من عجبٍ أنْ ملتُ نحوكُم فالنَّاس بالطبعِ قد مالُوا إلى الذهبِ

دأب الإمام الذهبي على تحصيل العلم منذ صلب عوده وتفتح ذهنه، وبقي على ذلك حتى أواخر أيام حياته المباركة، سواء بالقراءة أو بالسماع، لا يشغله عن ذلك شيء، وتراه يجمع بين القيام على شؤون أسرته، والتدريس، والخطابة، والتصنيف، وطلب العلم.

وثمة نص عند الذهبي يفيد أنَّه بقي يطلب العلم حتى آخر عمره، فقد قال في ترجمة الحافظ عثمان بن خُرَّزَاذ: «فالذي يحتاج إليه الحافظ أن يكون تقياً ذكياً، نَحويّاً لُغَوياً، زكياً حَيِيّاً سَلَفياً، يكفيه أن يكتب بيده مئتي مجلَد، ويحصِّل من الدواوين المُعتبرة خمسَ مئة مجلد، وأن لا يَفْتُر من طلب العلم إلى الممات، بنية خالصة وتواضع، وإلاَّ فلا يَتَعَنَّ».

وقد نقل لنا تاج الدين السبكي صورة مؤثرة عن آخر ساعات شيخه الذهبي، فقال: «توفي ـ رحمه الله تعالى ـ ليلة الإثنين، ثالث ذي القعدة بالمدرسة المنسوبة لأم الصالح، في قاعة سكنه، ورآه الوالد قبل المغرب وهو في السياق، ثم سأله: «أَدَخَلَ وقت المغرب؟ فقال له الوالد: ألم تصلِّ العصر؟ فقال: نعم، ولكن لم أصلِّ المغرب إلى الآن. وسأل الوالدَ ـ رحمه الله ـ عن الجمع بين المغرب والعشاء تقديماً؟ فأفتاه بذلك، ففعله. ومات بعد العشاء قبل نصف الليل، ودفن بباب الصغير. حضرت الصلاة عليه، ودفنه، وكان قد أضرَّ قبل موته بمدة يسيرة».



٣٣ ـ عبدالرحمٰن بن عبدالقادر الفاسي

(ت ١٠٩٦هـ)

مات وهو يذيل كتاب: «الشفا» للقاضي عياض

قال عنه الحافظ محمد بن جعفر الكتاني في (سلوة الأنفاس)(١):

«الحافظ الهمام، المشارك في العلوم التي لا تحصى، والأدرى بالإدراكات التي لا تستقصى، والمطلع الذي يقصر عن تحصيله الأدنى والأقصى، العلاَّمة الكبير الشأن، المشتهر على ألسنة شيوخه الأقران، أنَّه أسيوطي الزمان؛ أبو زيد سيدي عبدالرحمٰن.

كان ـ رحمه الله ـ مشاركاً في الفنون، قوي الإدراك، جم التحصيل، منفرداً بتحقيق التعاليم، من هيئة وطب، وتوابع ذلك، فاق أهل وقته في ذلك، أعرف بكل فن من أهل كل فن، إذا حضر في مجلس فهو الصدر، وإذا تكلم في مسألة شفا فيها الغليل، مكباً على التأليف، ولم تكن له مسودة، ولا وقع له تشطيب ولا ضرب على شيء؛ إلاَّ أن يكون إلحاق، فيضع التأليف في زمن يسير، من غير احتياج إلى مراجعة.

وكان والده يقول فيه: «إنَّه سيوطي زمانه». ويشهد له بالعلم؛ لسعة حفظه، وكثرة تآليفه، واتساع مشاركته في العلوم، وشيوع براعته في المنثور

(١) ج١/٣٥٧.

والمنظوم، حتى إنَّه قرأ عليه كثير من أشياخه وأقرانه، ويحكى عنه أنَّه حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وجوده للسبعة في أقرب مدة.

وكان ـ رضي الله عنه ـ لين الجانب دمث الأخلاق، فاق أهل عصره بحسن خلقه وتواضعه وإنصافه، متجلداً في الحق لا يخفي شيئاً مما اطلع عليه، ولو خالفه النَّاس وامتلأوا عليه، لا يحابي مريباً، ولو كان قريباً.

وقد أثنى عليه علماء وقته؛ كأبي سالم العياشي وله قصيدة في مدحه، اشتملت على عشرين بيتاً؛ مطلعها:

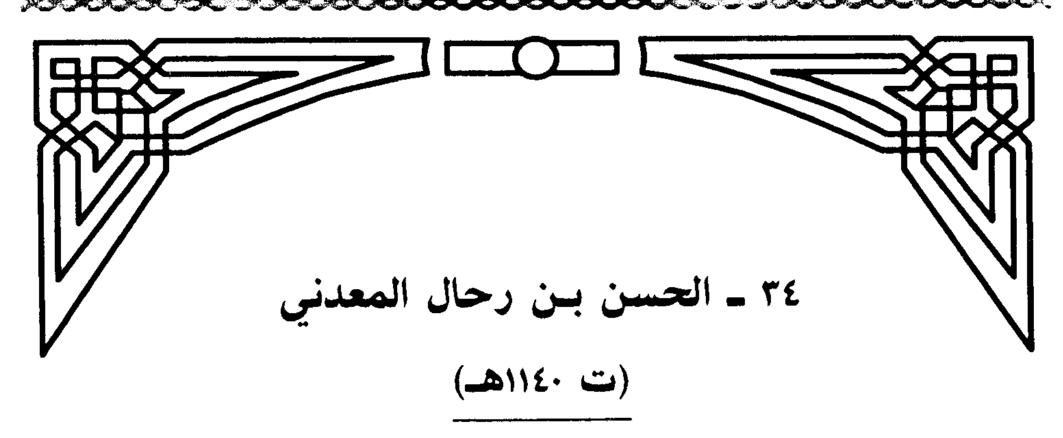
ما في البسيطة طرا من يباريكا   يا أطيب المنتمى سبحان باريكا
وقد سَبرتُ الورى فلم أجد أحداً   ممن يروم العُلا منهم يوازيكا
شرقاً وغرباً فلم يَطرُق مسامعنا   مَن في سنين الصبا يَجري مَجارِيكا

وكالعلاَّمة أبي مروان عبدالمالك التاجَموعتي، ومدحه بقطعة؛ منها قوله:

يَحُل سلامي أن تؤيده الكتب   إلى مَن زها فخراً به الشرق والغرب

مات وهو يذيل كتاب: «الشفا» للقاضي عياض وسماه بـ: «مفتاح الشفا»».

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



٣٤ ـ الحسن بن رحال المعدني

(ت ١١٤٠هـ)

مات وهو يقرأ كتاب «الشفا» على طلبته بداره

قال عنه العلاَّمة القادري في (نشر المثاني)[(١)]:

«الفقيه الكبير، العالم العلاَّمة الحافظ الشهير، صاعقة الفقه المالكي في وقته وصاحب التدريس بمكناسة الزيتون، ونادرة الزمان في كشف الأوهام والتلبيس أبو علي الحسن بن رحال المعدني، أجل أعلام الزمان، وكبراء الأوان، له عارضة كبيرة في الفقه واتساع في النوازل وتدبر في الفتوَى وتدبر في مجلس الأقران، فكان يبتدىء التدريس في المدرسة المتوكلية من طالعة فاس عند طلوع الشمس ويتمادَى فيه إلى الزوال ولا يضجر ولا يمل ولا يكل مما يلقي عليه من المباحث ولا يعجز عن جواب، وكل ذلك بنقول تحيط بالمرام. وكان حافظاً للمذهب المالكي مرجوعاً إليه في فتاويه مستحضراً لفروعه. سمعت ممن كان يحضر تدريسه أنَّه كان يقول: أقدِّر مِن حفظه مثلَ ما للحطاب على المختصر مرتين. وكان كثير المطالعة والتدريس والتقييد لا يمل من النظر، دؤوباً على تدريس **مختصر خليل**، له عليه **حاشية** كبرى مشتملة على عدة أسفار متسعة النقل. وله **حاشية على شرح ميارة** على ابن عاصم. وله تأليف سماه: **الإرفاق في مسائل الاستحقاق**.

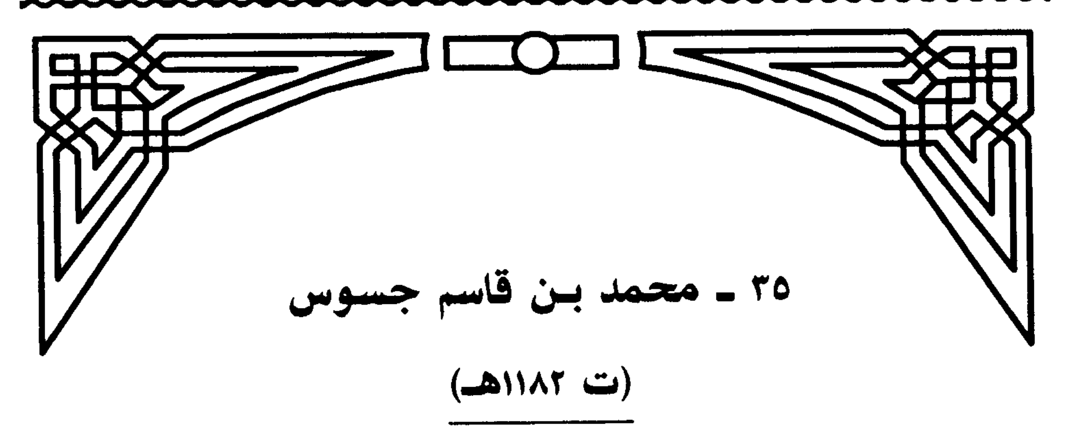
---

(١) ج٣/٢٩٤.

وكان كثير الإنصاف والتواضع سليم الصدر كريم الأخلاق، بعيداً من التصنع مصيباً في الكلام مفضالاً جواداً، ولي قضاء فاس العليا، ثم تأخر عنه وأكب على التدريس، وفي آخر عمره ولي قضاء مكناسة فتولى بها قاضياً. وكان ذا عيال يلزمه قدر كثير من الزرع كل يوم، لأنَّه كان كثير التزوج مطلاقاً، فولد عدة أولاد ولم يبق من عقبه إلاَّ رجل واحد. وكان كثير التردد إلى سيدي أحمد بن عبدالله مَعْن، فكان يبالغ في إكرامه ويذاكره ويكرمه بأنواع الأطعمة المنتخبة، لأنَّه كان يعجبه التنعم بأنواع الأطعمة في الأكل، فداوم مدة إقامته بفاس على الإتيان إليه لزاويته بالمخفية في آخر يوم كل أربعاء ويبيت بها ليلة الخميس ويومه لفراغه من التدريس. وكان أكولاً. وقد أخبرني بعض الفقهاء: أنَّه بات عنده ضيفاً فأتَى بطعام كثير في إناء كبير يشبع جماعة من النَّاس فأكل الضيف مثل عادته وأكل صاحب الترجمة جميع الطعام الذي بقي وشرب ما يناسبه من اللبن العقيد، فبقي الضيف متعجباً، وبات يطالع إلى أن طلع الفجر، فصلَّى الفجر والصبح، ثم رجع للمطالعة إلى أن خرج للتدريس، فجلس يدرس إلى الزوال على عادته، وكان مع ذلك قليل النوم لا ينام إلاَّ القليل. وقد اتفق الأطباء على أنَّ كثرة الأكل تورث كثرة النوم، وقلته تورث كثرة السهر.

مرض بمكناسة الزيتون وابتدأ قراءة «الشفا» وهو مريض، وقرأه عليه الطلبة بداره في يوم وفاته».

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



٣٥ ـ محمد بن قاسم جسوس

(ت ١١٨٢هـ)

ينشد أبياتاً من الشعر وهو يحتضر

قال عنه الحافظ محمد بن جعفر الكتاني في (سلوة الأنفاس)(١):

«الفقيه العالم العلامة المحقق، المحدث الصوفي المدقق، المشارك الحجة، الموضح لمن بعده طريق المحجة، الخاشع المتواضع الوجيه، الورع الزاهد المنصف الحاذق النبيه، ذو التصانيف العديدة، والتآليف المفيدة، شيخ الجماعة في وقته: أبو عبدالله سيدي مَحمد (فتحا) بن قاسم بن محمد بن قاسم بن أحمد جَسوس.

كان ـ رحمه الله ـ بحراً لا يُجارى في مجاري العلوم، ومُهَنَّداً يفري أديم المشكلات بماضي الفهوم، حافظاً ضابطاً متقناً، ماهراً محصلاً متفنناً، عارفاً بالأصول والفروع، حاضراً للأفراد والجموع، مشاركاً في معقول العلم ومنقوله، بنظر يؤدي إلى تحصيل معلومه ومجهوله، في منطق وبيان، وعربية وأصلين، وتصوف وفقه، وحديث وتفسير، مع استغراق الأزمان، في الاعتناء بالمطالعة والتقييد، والمدارسة والحفظ، والحرص على الاستفادة والإفادة بكل وجه حسب الإمكان.

---

(١) ج١/٣٧٤.

ذا أخلاق حسنة، وأوصاف مستحسنة، جامعاً للسنَّة المحمدية حائزاً لها، سالكاً من الطرق المتينة وعرها وسهلها، حتى أشرقت عليه أنوار المحبة الإلٰهية، وتوفرت فيه شروط الأوصاف المحمدية الكمالية؛ من الخشوع والتواضع والخضوع، والصيام والقيام وغلبة الدموع.

وكان كثير الدوام على «مختصر» خليل تدريساً وإقراءً، وأخذه عنه غالب نجباء الوقت، وكذلك رسالة ابن أبي زيد، وحِكم ابن عطاء الله، والبخاري، و«الشمائل».

وكان على مجلس تدريسه طلاوة، وفي كلامه فصاحة وحلاوة، لما أعطاه الله من التواضع واللطافة، والحنانة والسكينة والفصاحة، والحفظ الوهبي، وتمكن المحبة من سويداء قلبه، حتى كان تقرير مجلسه في كل علم ممزوجاً بالتصوف امتزاجه بدمه ولحمه، وانتهت إليه المشيخة في الجماعة في وقته، وأكب النَّاس عليه لانفراده بالاجتهاد وجودة القريحة، وحسن الطوية، والأخذ بآثار السلف الصالح من التخلق بالدين والعرفان، والقناعة والصمت، والزهد والورع؛ والنسك والذكر، والتلاوة والتنزه عن الأسباب المخلة بالمروءة.

بل تفرغ للإفادة عنه والانتفاع به نهاراً، وللعبادة بالتهجد نافلة ليلاً، فبورك له في العمر بامتداده، ممتعاً ببعض القوى التي يقدر بها على الكثير من أنواع الطاعات، حتى كثر الآخذون عنه من جميع الأقطار، كثرة لا يأتي عليها الانحصار، وكان يقرأ صحيح البخاري بعد صلاة الصبح بضريح سيدي أحمد بن يحيى، نفعنا الله به.

وألَّف ـ رحمه الله ـ كتباً جليلة؛ كشرح خليل في تسعة أسفار ضخام، والرسالة في أربعة أسفار، وشرحين اثنين على حكم ابن عطاء الله، وشرح توحيد ابن عاشر، وتصوفه، وشرح «الشمائل»، وفقهية سيدي عبدالقادر الفاسي. . . وغير ذلك».

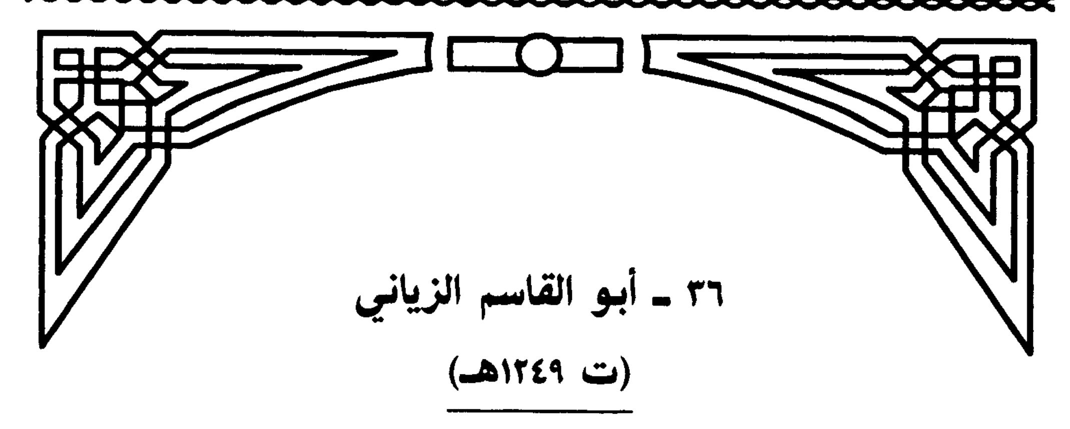
قال محمد بن الطيب القادري عندما ترجم له في كتابه: «نشر المثاني»[١].

دخلت عليه في مرضه الذي توفي فيه فسمعته ينشد هذه الأبيات ولا يفقه منه الكلام إلاَّ بمشقة:

سلام على أهل الحمى حيث ما حلوا ... هنيئاً لهم يا حبذا ما به حلوا
لهم أظهر المولى شموس بهائه ... فيا ليت خدي في التراب لهم نعل
متى يا عُريب الحي يأتي بشيركم ... فتبهّج الدنيا ويجتمع الشمل
صلوني على ما بي فإني لوصلكم ... إذا لم أكن أهلاً فأنتم له أهل

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) ج٤/١٩٠.



٣٦ ـ أبو القاسم الزياني

(ت ١٢٤٩هـ)

يؤرخ لحادث مهم بأبيات من الشعر وهو على حافة الموت

قال عنه العلاَّمة عبدالله گنون في كتابه: «ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة».

«هو أبو القاسم أو بَلْقاسِم كما كان يُوقِّعُ هو، على حدّ قولهم بَلحَرِت ونحوه، ابنُ أحمد ابن الفقيه الأستاذ المُقرىء النسَّابة أبي الحسن علي بن إبراهيم الزيَّاني... الوزير المؤرخ الدَّاهية...».

«... والزيَّاني بالزاي مُفَخَّمةً أو بالصاد المُشَمَمَة زاياً كلفظ صِرَاط في قراءة حَمْزة ـ كما يقول الناصري ويكتبها هو كذلك وبتخفيف اليَاء ـ نِسبة إلى قبيلة زَيَان من أهل الأطلس المتوسط.

كان مقر جده هذا بقرية أركو قرب آدخسان وبِها قرأ عليه العلاَّمةُ اليُوسي القِراءاتِ السَّبْعَ، ثم نقله السلطان مولاي إسماعيل إلى حاضِرَته مَكْناس، وسَبَبُ ذلك أنَّه لما نَزَل بآدخسان واجتمع عليه الأشرافُ الذين بآزكو قال لهم: دُلُّوني على رجل فقه ودين يؤمّني في الصلوات فقالوا له: ليس بهذا الجبَل اتقى من سيدي علي بن إبراهيم، فأتوا به فكان إمامَه في المحَلّة[1] ولما قفَل أخذَه معه، قال حَفيدُه المترجَم: «فهذا سبب انتقال

---

(١) هي الجيش والمعسكر في اصطلاح المغاربة.

جدِّنا من آزكو إلى الحَضَر». وقد بقي هو وأولاده على هذه الحال إلى أن توفي بها، فانتقل ولده أحمد والد المترجم إلى فاس سنة ١١٣٩هـ عند وفاة السلطان فاستوطنها وَوُلِد له بها أبو القاسم سنة ١١٤٧هـ.

وقد نشأ في حِجْر والِده وقرأ القرآن واشتغل بطلب العلم على شيوخها أحمد بن الطاهر الشَّرْقي وهو أول مَن أخذ عنه ومحمد بن الطيب القادري وعبد القادر بُو خريص، وعمر الفاسي ومحمد بن إبراهيم والتاوُدي بن سُودة ومحمد بَنّاني. إلاَّ أنَّه انقطع عن مجلس الفاسي بسبب شيْطنة التلاميذ حيث ذكروا له عنه أشياء كان يُتَّهَم بها، ولعلها مسائل الخط والجدول، وكانوا في نزهة فقال له الفقيه: «يا فلان، أرِنَا شيئاً مما تعلمه ولا نعلمه نحن»، قال وصنّم عليّ في ذلك فخجِلتُ منه وقلت: لم يتهيأ لي عمَلٌ الآن، فقال: «ولو ما خفَّ»، فقلت: لم يحضرني شيء الآن؛ فكان ذلك سبب انقطاعي عنه. ولازم محمد بن الحسن بناني ونسخ حاشيته على الزرقاني فكان يُطالِعُها ويحضر مجلس ابن إبراهيم، قال: فكان يشمَئِزُّ من أبحاثها وذلك يدل على أنّه كان يورد تلك الأبحاث على الشيخ فِعْلَ شياطين التلاميذ ويدل بالأحرى هو والواقعة التي قبله على نجابة الزَّيَّاني وحُسْن تأتيه لِلأشياء منذ صِغَره.

ومن دون علم الجَدْوَل وغيره من العلوم السِّريَّة التي ربما كان أخذها عن والده، فإنَّ ما درسه على هؤلاء العلماء هو الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق. وعلى كل حال فإنَّ التاريخ والنَّسَب والجغرافية التي هي بِضاعَتُه المُنْتقَاة لم تكن مما درسه في القرويين ولا مما أخذه عن شيوخها المذكورين؛ وإنَّما سَرَتْ عَدْواها إليه من جده علي بن إبراهيم المذكور آنفاً، وقد كان كما قال هو عنه آنفاً: عَشْريّاً نَسَّابةً أخْبارِيّاً لم يكن في وقته مَن يلحقه في النسب، واليُوسِي نفسُه يقول في حقه: «عنه أخذتُ عَمُود أجدادي إلى يُوسِي أبي القَبيل لأنّه كان نسَّابة الوقت».

«... وإذاً فيكون تَخرُّجه من مدرستَيْن: مدرسةِ القرويين وقد قرأ فيها علوم الدين واللغة؛ ومدرسةِ العائلة وقد قرأ فيها التاريخ والنسب وسائر العلوم الخَفِيَّة.

ولما أَشبَعَ نَهمتَه من المدرستين أُتِيح له سبب آخر ليدخل مدرسة جديدة أوسعَ دائرة وأعظم مفعولاً من كل ما عداها وهي مدرسة السيَاحة. فإنَّ الفِتَن التي توالَتْ على المغرب منذ وفاة السلطان إسماعيل، واضطراب حبل الأمن وعدم استقرار الأحوال على ما عُهِد من قبل، جعلت والد مترجمنا يفكر في الرحلة بُغْيَةَ المُجاورة والاستقرار نهائياً في المدينة المنورة.

وقد نفَّذ هذه الفكرة في عام **١١٦٩**هـ وكان عُمرُ ولده المترجم **٢٣** سنة، فباع، كما يقول ولده في سذاجة، دارَيْن كانتا له بفاس وكتُباً لوالده الأستاذ علي وجمع من ذلك ما فيه بَلاغ ومَقْنَع. وكان المترجم يساعد والده ويأخذ بيده في تدبير أمور السفر وهو على طَيْشِه وحِدَّتِه كان محبوباً من والدَيْه لأنَّه لم يبق لهما غيره.

ولمَّا بلغوا مصر كان مرادهم أن يصحبوا ركب الحاج؛ إلاَّ أنَّ بعضهم أشار على والده بركوب البحر لكونه أقرب مسافة وأقل مشقة، واشترى له سِلْعَة بِقَصد التجارة، ففي مَرْسى اليَنْبُع تكسَّر المركب وضاعت السلعة وتلِفَت الأسباب وحَمِدُوا الله على عِتْق رقابهم، وكانت هذه النكبة هي أُولى النَّكبات السبع التي أصابت المترجم وأثرت في حياته تأثيراً عظيماً، وهناك أخرجت والدتُه من حزامها **٣٠٠** دينار، لم يكن لهم بها علم، وإنَّما كانت ادَّخَرتْها لمثل هذا اليوم؛ فمنها اكتروا لِجدَّة ومَكة وأقاموا الفَرْضَ كما يجب وتوجهوا إلى المدينة بقصد الزيارة فقط؛ لأنَّ المجاورة مع ذهاب البضاعة التي كان مُعَوَّلُهم عليها أصبحت مستحيلة، فرجعوا إلى مصر وكانوا قد تركوا بها بعض الأسباب عند صاحبهم بقصد بيعها، فباعوها وتحصل فيها مبلغ **٦٠٠** ريال، فَبِها أصلحوا الأحوال واستعدوا للرجوع إلى المغرب حيث بلغهم خبرُ وفاة السلطان مولاي عبدالله وبيعة مولاي محمد.

وفي الإسكندرية لم يجدوا مَرْكباً قاصداً لأجل الحرب القائمة بين إسبانيا وفرنسا وبين الإنجليز المُسمَّاة: حربَ السّبْع سنوات، وكان القُرصان في نشاط عظيم فأكثروا مركباً إلى الكُرْنة (لِيكورن بإيطاليا) حيث أقاموا أربعة أشهر ثم توجهوا إلى مرسيليا ومنها لِبَرْشِلُونة فأقاموا بها حيث كان الفرنسيون

مُحاصِرين لجبَل طارق، وبعد رفع الحصار ذهبوا إلى تطوان ومن ثم إلى فاس فدخلوها وليس معهم إلاّ سبعة مثاقيل.

كان قد مرَّ على خروجهم من فاس نحو الثلاث سنوات، رأَى مُترجمُنا فيها كثيراً من بلاد الشرق والغرب ودرس أحوال أمم كثيرة واستفاد معلومات مختلفة، لم يكن ليحصل عليها وهو مستقر بفاس، متردد بين دارهم والقرويين. وأعظمُ ما حصل عليه بالقاهرة في بيت صاحبهم التي كان نزولهم عنده هو تعلمه من ابن هذا الصاحب لمسائل من علم الرَّمْل والسِّيمِيا، أضافها إلى ما كان عنده من هذه العلوم السِّرية ورجع بذلك فَرِحاً مسروراً يقول لنفسه حجّاً مبروراً، وهاك عبارَته، في هذا الصدد:

«وفي إقامتنا بمصر كنتُ أجالس بالبيت ابنَ ذلك الصاحب، وأشاهدُ منه عجائب، كان له يد في علم الرمل وعلم السيميا، ومَن رأى تصوُّراتِه يحسب أنَّه من الأولياء، فشغفتُ بِفَنِّه واتخذته شَيْخاً ولازمتُه حتى ملكتُ لُبّه بالسَّخا، فجاد هو أيضاً بما عنده في الجَرِيب، وأفادني في أمد قريب، وأوقفني على ما في علمه من خواص المعادن وما ينشأ عنها من الأسرار والعجائب، التي يبلغ المرء بها أعلى المراتب، وأطلعني على ما يلحق بها من الحِيَل التي يستعملها المُشَعْوذُون، ومن بَحْرِها يَستَمِدُّون فعُدت بذلك مسروراً، وقلت: حَجّاً مبروراً».

ولمَّا استقروا بفاس عاد المترجم إلى القراءة كما كان ثُمَّ سأل عن رفقائه في الأُنس والطَّلَب كأحمد بن ناصر الغياثي، والغَزَّال، وابن الوزَّان، وسُكَيْرج، وابن عُثمان، ومحمد بن الشاهد، وسعيد الشَّلَيِّح الجُزُولي؛ فوجدهم قد تعلقوا بخدمة السلطان، وكان بينه وبين هذا الأخير أعني: الشُلَيح مودة كبيرة، إذ طالما عكفا على المُطالعة معاً وسَرْد كتب التاريخ التي كان للشليح ولعٌ كبير بها، فلما بلغه خبرُه وما صار إليه أمره عند السلطان سيدي محمد بن عبدالله شَرِهَت نفسُه لِلَّحَاق به وتعلق هو أيضاً بالخدمة؛ ولم يُجْدِ نُصحُ والده له ولا نَهْيهُ عن ذلك شيئاً، وهكذا أصبح أبو القاسم الزَّيَّاني كاتباً في البلاط العلوي من رجال الدولة المعدودين.

مؤلفاته:

وأعظمها: تاريخه الكبير الذي سماه: «الترجمان المُعرِب عن دول المشرق والمغرب» وهو تاريخ عام أراد أن يقف به في صف المؤرخين الكبار كابن خلدون وابن الأثير وابن جرير الطبري وغيرهم. وقد جعله من بدء الخليقة إلى نهاية عام ١٢٢٨هـ.

ثاني كتبه في الأهمية رحلتُه المسماة: «التُّرجمانة الكبرى التي جمعت أمصار المعمور كلها براً وبحراً» في مجلد واسمُها كاف في معرفتها فهي جغرافية في الأعمّ الغالب، ولكنها تحتوي على فوائد تاريخية وأدبية، وتراجمَ مختلفة وأعظمُها ترجمة الكاتب نفسه وغير ذلك مما جعلها غيرَ ذات خطة مستقلة ولا موحَّدة الموضوع كما يقول هو عنها بعد سرد برنامجها الجغرافي: «وفي كل مقام منها مقال، وفي كل روض منها مجال، حسبما يقتضيه الحال، ويخطر على البال، من نصوص قرآنية، وتأويلات تفسيرية، وأحاديث نبويَّة، وفتاوي فقهية، ومواعظ صوفية، وحجج قطعية، وأدلة معقولية، وشواهد شعرية، وضوابط معنوية، وأسامي لغوية، ونوادر سَروجيَّة[1]، وقصائد عالية، وما يناسب كل خبر ويؤيده، ويعتمد عليه ويعضده، وختمتها بنصوص من التوراة والإنجيل والفرقان، للرد على اليهود والنصارى والصابئة والمجوس من عَبَدة النيران».

ثالث كتبه المهمة: تاريخ الدولة العلوية المسمى: «البستان الظريف في دولة أولاد مولانا عليّ الشريف ألَّفه لما لم يجد للدولة تاريخاً مستقلاً وكان لا زال تاريخ أكنسوس لم يكتب، فإنَّ هذا منه اقتبس وعلى منواله نسج وكذا من بعده بالطبع، وهاك بقية أسماء كتبه باختصار:

١ ـ «ألفية السلوك في وفيات الملوك»، أرجوزة مرموزة التواريخ بحساب الجمل وشرحها.

(١) نسبة إلى أبي زيد السروجي بطل المقامات الحريرية المعروف.

٢ ـ «الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب»، وهو مستمد من الفصول التي كتبها في الترجمان خاصة بهذا الموضوع.

٣ ـ رسالة في سياسة الملك سماها: «السلوك فيما يجب على الملوك».

٤ ـ رسالة دينية سماها: (الدرة السنية الفائقة في كشف مذاهب أهل البدع من الخوارج والروافض والمعتزلة والزنادقة).

٥ ـ رحلة الحذاق لمشاهدة الآفاق لخصها من رحلته الكبرى.

٦ ـ جوهرة التيجان وفهرست الياقوت واللؤلؤ والمرجان في الملوك العلويين وأشياخ مولانا سليمان. وهي برنامج لأشياخ هذا السلطان(١).

٧ ـ إباحة الأدباء والنحاةِ الجمع بين الأخوات الثلاث، رحلة ثالثة.

٨ ـ «كشف الأسرار في الرد على أهل البدع الأشرار».

٩ ـ «تحفة الإخوان والأوليا، في صنعة السيميا».

١٠ ـ كشف أسرار المحتالين الأشقياء، الذين يزعمون علم الكيميا وتسمى هاتان الرسالتان أيضاً رشف الحميا ونصيحة المغترين. . . إلخ.

١١ ـ «حلية الأدباء والكتاب في مدح هذا الكتاب»، يعني: الترجمان، وقد ضمَّ هذه الرسالة لآخر الترجمان.

١٢ ـ ديوان شعر جامع لأنظامه في الأغراض المختلفة.

وعلَى كُلّ فَالزَّيَّاني من أولئك الكُتَّاب القلائل الذين تَظهر شخْصِيَّتُهم القويةُ بين سطور كتاباتهم عاريةً من كل تصنُّع، بريئةً من كل تَزيُّد. وإذا كان يُبالِغُ بعضَ الأحيان في ادّعاءاتِه لنفسه واتهاماته لغيره فإنَّما ذلك من سذَاجَتِه واغتراره بظواهر الأشياء، وربما كان لِعدم تثقُّف قلَمِه وخشونة عبارته، ولو كان مُهذِّبَ حوَاشِي الكلام لما وَقع في كثير من تلك الهفوات. ومما يدل على سلامة صدره وأنَّ تلك الحملات التي كان يحمِلُها على كثير من أهل عصره إنَّما هي فَوراتٌ نفْسِيَّة لا تلبَثُ أن تخبُوَ ويذهب أثرها إلى الأبد، ما تجده في رحلته التُّرجمانة بصدَد الشيخ حمدون بن الحاج، فتارةً يمدحه

(١) طبعت بتحقيق عبدالمجيد خيالي.

ويُحَلِّيه بأغلى وأحسن الحِلَى، وتارةً يقع فيه ويُصْلِيه من انتقاده ناراً حامية.

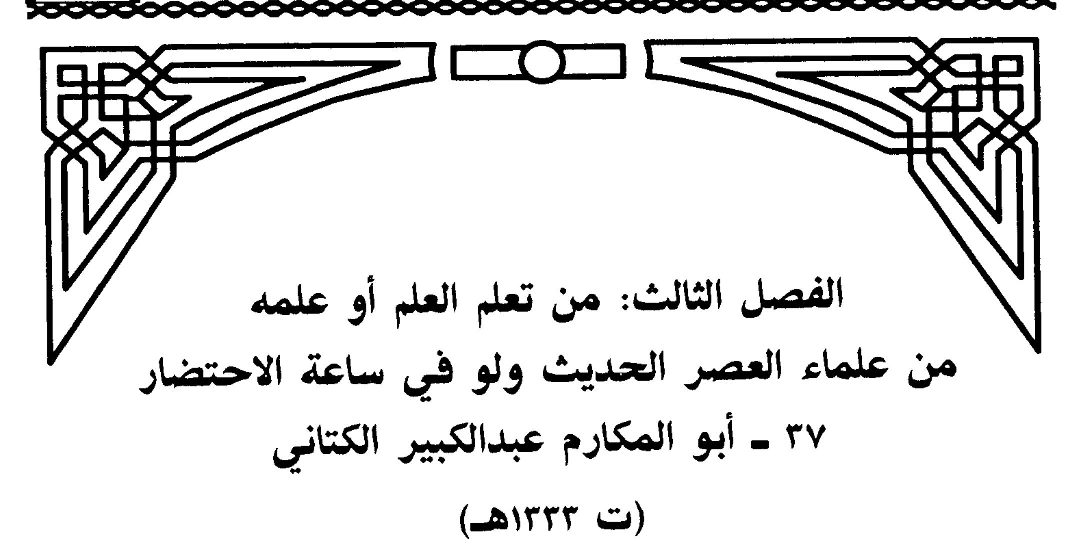
وكان يسجل الحوادث المهمة في شعره ويرصد لها قلمه تأييداً وإنكاراً من غير خوف ولا وجل شأن أصحاب النفوس الكبار، ودوي الغيرة من أهل الأخطار، حتى في ساعة الاحتضار.

فمما قاله عند حضور الموت وقد بلغه عزل الوالي على فاس الطيب الوديني بأمر من السلطان المولى عبدالرحمٰن، فأنشد هذه الأبيات عند حضور الممات وكان قد جاوز المئة:

يا مالكاً لا يرى عزْل الولاة ولو ... جاروا ولا يقبلُ الشكوى بوَالِيه
فليس هذا بقانون الملوك ولا ... وقَع في غربنا ولا في شَرْقِيه
اخفِض جناحَك للشَّكاة والقهم ... واسمع كلامهم واعمَل بما فيه
لا تعتمد في مظالم على حاجِب ... ولا وزير فوَالِي الجَوْر يَرشيه
قد جاءَ في الذكر لَعْنُ الظالمين غداً ... وفي الحديث الذي تَتْلو وتَرْويه
وأنتَ وليتَ هذا العَبْدَ مُفترِساً ... سبْعَ سِنين وكلّ الناس تَشكيه
يأكل أموالهم يهتِكُ أعراضهم ... يزنِي جُهاراً ولا يخَافُ بَاريه
فكلُّ أفعاله تُكتَب في صحفٍ ... عليك يا بن رسول الله فاذْرِيه
وفي المَعاد تَرى الصُّحفَ مُنشرَةً ... إليك بالذي كان يجبي ويَخْبِيه
فما تقولُ وما عذرك يا ملكا ... مع الإلٰه الذي ولاَّك تَكفيه
فانظر لنفسك أَوْدَعْها على غَرَر ... فالموتُ يأتي على كل ويُفْنيه
والله ما قلتُ ذا بُغضاً ولا فنداً ... إلاَّ نصيحتَكم لله فاقْصِيه
إن لم تُرِدْ عَزْ لَهُ فالله يُهلِكُه ... عمَّا قريب وربُّ البيت يحميه
إذ ليس لي ناقةٌ في ذا ولا جَمَلٌ ... فسَلْ تجِدْ صِدْقَ ما قلتُ لكم فِيه

نعم يقول هذا الزيَّاني الشُّجاع القَويُّ النفس المَخْشِي البادِرَة وهو في سن المائة والواحد على حافَة الموت، فما أعجبَ أمره وأشدَّ أَسْرَه!

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الفصل الثالث: من تعلم العلم أو علمه من علماء العصر الحديث ولو في ساعة الاحتضار

٣٧ ـ أبو المكارم عبدالكبير الكتاني (ت ١٣٣٣هـ)

مات وهو يكتب القرآن في اللوح

(ترجمته بقلم ولده عبدالحي الكتاني) في (فهرس الفهارس)[١].

«هو عبدالكبير بن شيخه الشيخ أبي المفاخر محمد بن عبدالكبير الإدريسي المعروف بالكتاني، شيخ السنَّة وإمامها إمام الهداية ومقيمها، الأستاذ الأكبر العارف بالله وبرسوله، والدي ومربي روحي أبو المكارم قدَّس الله أسراره وعطَّر مزاره. ولد بفاس سنة ١٢٦٨هـ، ورُبي في كنف والده الإمام محفوفاً بعنايته، مشمولاً برعايته حتى شبَّ واكتهل.

نشأ في جلال الدين يرتضعُ العلا   فجاء تقًى يختالُ في الرتب الشم

روى سماعاً وحضوراً عن أعلام فاس كالأخوين عمر وأبي عيسى المهدي ابني الطالب ابن سودة، كلاهما عن أبي محمد عبدالسلام الأزمي عن الشيخ التاودي بن سودة، كما أخذ عن غيرهما ممن تضمنته فهارسه كصهره وابن عمه أبي المواهب جعفر بن إدريس الكتاني وأبي عبدالله

---

(١) ج٢/٧٤٣.

محمد بن المدني گنون وشيخهما أبي العباس أحمد بن أحمد بناني، وأبي عبدالله محمد بن إبراهيم السلوي والوزير صالح بن المعطي التادلي، والقاضي أبي عبدالله محمد بن عبدالرحمٰن العلوي، وأبي عيسى المهدي بن محمد بن حمدون بن الحاج، وأبي عبدالله محمد بن عبدالواحد بن أحمد بن التاودي بن سودة، وأبي عبدالله محمد المقري المدعو الزمخشري، وأبي العباس أحمد العلمي السريفي. وسمع المسلسلات الرضوية على أبي عبدالله محمد بن علي الحبشي الإسكندري بفاس وغيرهم، وحج عام ١٢٨٦هـ، ودخل تونس وطرابلس ولقي جماعة من الأعلام ثم حجَّ عام ١٢٩٥هـ، وروى هناك سماعاً وإجازة عن محدث الحجاز الشيخ عبدالغني بن أبي سعيد الدهلوي المدني، وتلميذه أبي الحسن علي بن ظاهر الوتري المدني، كلاهما بها، وسمع على الوتري جميع الشفا وهو زميله على الجمل بين مكة والمدينة في عشرة أيام، وسمع جميعها عليه مرة أخرى ثانية في زرهون في ثلاثة أيام.

وكان حلساً من أحلاس العلماء الصالحين، بيته وزاويته موطناً لهم، ألفوه وقصدوه من المشارق والمغارب، محكماً للسنَّة في أحواله أقوالاً وأعمالاً حركة وسكوناً، حتى تجسدت به، لا مذهب له ولا طريقة دون الكتاب والسنَّة، كتابه المصحف. مات وهو يكتب القرآن في اللوح مع أنَّه كان شديد الحفظ له من صغره، وديوانه الصحيح، ختمه نحو الخمسين مرة ما بين قراءته له على المشايخ وإسماع له، وكان يعرفه معرفة جيدة يستحضر نوادره ومخبآته، ويستحضر «فتح الباري» استحضاراً عظيماً، وأتم سماعَ وإسماعَ الكتب الستة، ولم يبق بفاس في عصره ولا بالمغرب مَن تمَّ له ذلك، يعرف النَّاس له منةَ إحياء السنَّة وكتبها بفاس والقيامَ عليها قيام النقاد المهرة، يستحضر أحاديث الكتب الستّة كأصابع يده، وإنَّ أنس فلا أنس أني كنت مرة أسمع عليه كتاب: «المجالس المكية» لأبي حفص الميانشي المكي من أصل عتيق بخط الحافظ أبي العلاء العراقي، فوصلنا فيه إلى حديث عثمان في كيفية وضوء النبيّ ﷺ، فمع عزو الميانشي له إلى مسلم ذكر فيه المسح على الأذنين، فقال لنا الشيخ الوالد: مسح الأذنين في

الوضوء لا يوجد في الصحيحين من حديث عثمان ولا غيره، فقمت بعد ذلك على ساق في مراجعة نسخ صحيح مسلم العتيقة المسموعة وغيرها من المستخرجات والمصنفات الأثرية، فلم أجد لذلك ذكراً فيها، فأيقنت بحفظ الرجل وقوة استحضاره وخوضه في السنَّة.

وله رضي الله عنه في الشؤون النبويَّة عدة مؤلفات كالخضاب والشيب والوفرة، وحواشي على الصحيح والشمائل، وجزء في المبشرين بالجنة من الصحابة أوصلهم إلى نحو المائتين، وكتاب في حديث: «**كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد**». وله مبرد الصوارم والأسنَّة في الذب عن السنَّة، كتاب عظيم القيمة واسع البحث والاطلاع، وله أيضاً ختم الصحيح، وختم الشمائل، وختم المواهب، وشرح حديث النية، وتأليف في آل البيت في مجلد نفيس وعدة رسائل تخرج في عدة مجلدات أكثرها في الحديث والتصوُّف والفقه.

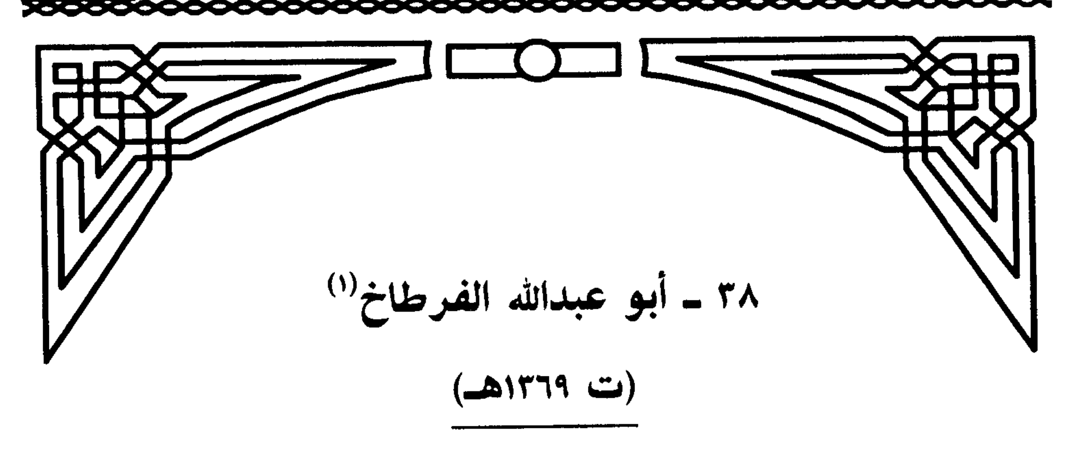
وهو أجمع مَن رأيناه وأخذنا عنه لخصال الخير والمثابرة على العلم والعمل والتمسك بالسنَّة في جميع الأحوال وتطلب معرفتها والقيام عليها قيام أعلام الرجال، تذكّر الله رؤيته وتؤثر في أقسى القلوب موعظته، مع سعة الأخلاق التي عمَّ خبرها وأثرها الآفاق، وخضعت له الرقاب ووقفت ببابه الصدور من أهل القرن الماضي، وهذا مع الانسلاخ التام عن الدعوى والبعد الكلي عن إثبات شيء لنفسه مع التنزل للعباد في التذكير والتعليم، يخاطب كل طائفة على حسب فهمها وإدراكها، ويفيد في صفة المستفيد، ثم يزيد في صفة المستزيد، مع حقارة الدنيا في عينه، وقيام جليسه بعظمة الله وقد استولت عليه.

قال عنه نادرة العصر الشيخ أبو المحاسن يوسف النبهاني في كتابه: «جامع كرامات الأولياء»: «هو الإمام العلاَّمة المحدث المحقق العارف بالله صاحب التآليف الكثيرة النافعة ولا سيما علم الحديث، وقد استجزته فأجازني من فاس كتابة فسررت بإجازته، وأهداني معه مؤلفاً نافعاً في شيب رسول الله ﷺ وخضابه، وهو فريد في بابه مشتمل على فرائد الفوائد،

جزاه الله خيراً ونفعني والمسلمين ببركاته». اهـ. وقال عنه شامة العصر أبو عبدالله محمد بن جعفر الكتاني في ترجمته من كتابه الكبير في البيت الكتاني: «لما توفي والده اتخذه أصحابه مكانه في زاويتهم يجتمعون عليه كما كانوا يجتمعون على والده، وهو مع ذلك في الترقي والزيادة خالياً عن الدعوى متبرئاً منها عاكفاً على مطالعة كتب القوم ومجالسة الصالحين والعلماء العاملين مذكراً لهم مستفيداً منهم زواراً لهم، مع المحبة التامة لآل البيت والتعظيم لهم، وأمَّا محبته في الجانب النبوي العظيم فلا تسأل عنها، فاق فيها جميع أهل عصره فيما رأينا وأوانِه، وكثيراً ما كنت أذهب معه إلى زرهون فتمر بنا هناك أيام يفخر الزمان بها علماً ومذاكرة وذكراً وتوجهاً. وأمَّا أخلاقه مع الصديق والعدو والمحب والمبغض فلا تسأل عنها، لا يلقى أحداً إلاَّ بغاية البشاشة ونهاية اللطف مع الإكرام التام واللين المفرط العام، ولا يذكر أحداً قط بغيبة ولا يكاد يذكر في مجلسه أحد بذلك أيضاً، بل مجالسه كلها مجالس ذكر وتذكير وعلم وتعليم ووعظ ونصح لا تكاد تخرج عن ذلك، وبالجملة فهو وحيد عصره وفريد أوانه ودهره، وقد استجزته عند هجرتي من فاس إلى المدينة في طريقتهم الكتانية فأجازني». اهـ. باختصار كبير.

وعنه أخذنا وبه تربينا، فله علينا في هذا الباب المنة العظمى والمرتبة الزلفى، جزاه الله خير الجزاء. وقد خرجت له عدة فهارس وكتبت عنه عدة إجازات ذكرت في حروفها: (انظر: أعذب الموارد في الطرق التي أجيز بالتسليك عليها الشيخ الوالد، وفتح القدير في أسانيد والدي الشيخ عبدالكبير، ومنية القاصد في أسانيد الشيخ الوالد، والمسلسلات)، أجازني غير مرة وخلفني وحباني، وبكل ما عنده هداني. انتقل إلى جوار ربه ضحى يوم الخميس ٢٦ ربيع الأول عام ١٣٣٣هـ، ودفن بزاوية والده الكتانية من فاس رحمه الله ورضي عنه.

❏ ❏ ❏ ❏ ❏ ❏



٣٨ ـ أبو عبدالله الفرطاخ(١)

(ت ١٣٦٩هـ)

قرأ عليه ولده من «فتح الباري» ــ باب ذهاب الصالحين ــ ففاضت روحه بين جدران مكتبته

ترجم له الدكتور سعيد أعراب(٢) ترجمة رائقة فقال:

«هو أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد الفرطاخ، يتصل نسبه بالعارف الرباني أبي عبدالله محمد ـ فتحا ـ بن الحسن الجناتي الحياني ـ دفين جبل (تِسًّا) ـ قرب وادي اللبن بقبيلة الحياينة ـ حوز فاس، ومن هناك انتقل أسلافه إلى مدشر الدردارة بقبيلة الأخماس، وأقاموا ثمة برهة من الزمن، ثم نزحوا إلى الدردار ـ ببني ليث، وبعدها إلى ابن رثن، وبها موضع يسمى ـ إلى الآن ـ بخربة الحياني، ثم نأوا عنها إلى فج بني بدر ومسيعد، واستوطنوا هناك وتناسلوا، وكان فيهم علماء وقراء متنسكون، ومن بينهم العالم المشتهر بالفرطاخ وهو اللقب الذي التصق بهم منذ أحقاب السنين، ثم انتقلوا إلى جبل الحبيب ـ حيث نزلوا مدشر الخروب، ولم يلبث أن انتقل والد المترجم ـ بالأهل والأولاد ـ إلى مدينة تطوان، واستقرَّ بها نهائياً، وكان وصولهم إليها في شهر رمضان عام تسعة وتسعين ومائتين

(١) ترجم لنفسه في «فهرسة شيوخه» وهي عندي بخطه.

(٢) دعوة الحق ـ عدد: ٢٣٧ ـ ص: ٣٦ ـ ٣٩ ـ سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

وألف (١٢٩٩هـ) ـ حيث كان سكناهم بزنقة المقدم ـ درب سلامة ـ قرب جامع لوقش، وسن المترجم وقتئذٍ نحو عام ونصف عام، ويشير المترجم إلى هنا ـ في بعض قصائده.

ولد أبو عبدالله الفرطاخ بمدشر الخروب ـ قبيلة جبل حبيب ـ في حدود أواخر ربيع الثاني عام ثمانية وتسعين ومائتين وألف (١٢٩٨هـ)، وانتقل به والده إلى تطوان ـ وهو ابـن عام ونصف عام ـ كما أسلفنا، وتعلَّم في الكُتَّاب، ولكنه لم يكد يصل الحادية عشرة حتى توفيت والدته، وهو سابع سبعة إخوة ـ سبقوا أمهم ـ إلاً هو، لأمر يعلمه الله؟ فتزوج والده، وعانى من زوجة أبيه ما عانى؛ مما اضطره إلى الخروج من الكُتَّاب، فأخذه والده معه إلىْ الدكان الذي كان يعمل به ـ وكانت مهنته الحدادة، فعالج نفخ الكير، وضرب الحديد ـ ردحاً من الزمن، حتى اتقن صنعة الحدادة، واستقلَّ بنفسه، ولكنه كان يشعر دائماً ـ وكأنَّ شيئاً يدفعه إلى الخروج من تطوان، فانتقل إلى طنجة ـ وجعل يعمل مع المعلم حسين أبي طاهر السوسي ـ وكان من مهرة الحدادين، وقد توسم في المترجم، رغبة في الطلب، وحنيناً متأججاً إلى الدراسة والتعلم، فشجعه على الخروج إلى البادية لحفظ كتاب الله العزيز، وكان يمده من حين لآخر بكل ما يحتاج إليه، فالتحق بمدشر الخروب بقبيلة جبل الحبيب مسقط رأسه، والمقر الأول لأبيه وجده، ومكث هناك مدة حفظ فيها القرآن الكريم، ثم خرج إلى قبيلة بني بدر وفيها جماعة من أبناء عمومته، فقرأ على بعض الشيوخ المختصين في علوم القرآن، وأتقن رسمه وضبطه، وحفظ بعض الروايات، ثم دفعته نفسه الطموح إلى تعلم العلم.

قلنا: إنَّ المترجم لم يتعلم إلاً بعد أن كبر، وكان له من العمر نحو (١٧) سنة، ومن شيوخه في العلم:

١ ـ الفقيه الأندلسي، أخذ عنه بجبل الحبيب (جبيلة)، ويقال: إنَّه أقرأ مع الطلبة نحو مائة سلكة في العربية.

٢ ـ ثم التحق بالفقيه ابـن يرمق بسماتة، وأدركه شيخاً كبيراً، وكان

من العلماء، العاملين، له مؤلف في العربية، أسماه بعض منافسيه بـ: (خزْبَقْ)، لابن يَزْمَقْ، وكانت له اليد الطولى في علم الجدول.

٣ ـ وأنهى دراسته في العربية على عالم نحوي كبير ـ بمدشر القب بقبيلة أغزاوة ـ لم يحضرني اسمه الآن.

ثم عاد المترجم إلى تطوان بعد غياب طويل، فصادف رجوع الفقيهين:

٤ ـ ٥ ـ أبوي العباس: أحمد بن الطاهر الزواقي، وأحمد الرهوني ـ من فاس، فجلس في دروسهما بضعة أشهر، وكانت الحرب قائمة بين أهالي تطوان وقبائل الجبل، بإيعاز من الاستعمار وأذنابه، عملا بمبدأ (فرق تسد).

ثم شدَّ الرحال إلى فاس عاصمة العلم، فأخذ عن جملة من علمائها ومشايخها، وكان في مقدمة مَن سمع منهم:

٦ ـ أبو العباس أحمد بن الخياط الزگاري وهو أول شيخ جلس بين يديه بفاس، وكان من الفقهاء المحدثين، والمفسرين المحققين، إلى زهد وورع، وتواضع ودماثة أخلاق، له مؤلفات في التوحيد، والفقه، والحديث، والقراءات. (ت ١٣٤٣هـ) ذكره المترجم في الذيل، وله فيه بعض قصائد.

٧ ـ ومن شيوخه بفاس ـ وهو عمدته ـ أبو عبدالله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، محدث مكثر، ضليع في علوم الحديث وفنونه، بصير بفقهه ومعانيه، دؤوب على تدريسه وسرده، حسن النطق به، عارف بتراجم رجاله، مؤرخ، مطلع على أخبار صلحاء وعلماء فاس، وطبقات علماء المذهب، رحل إلى الحجاز غير مرة، وجاور بالمدينة المنورة مدة، ثم سكن دمشق إلى أواخر حياته، ثم عاد إلى المغرب فتوفِّي بفاس سنة (١٣٤٥هـ) وله نحو ٦٠ كتاباً، أكثرها في الحديث وعلومه، وقد تأثر به المترجم أيما تأثر، ولازمه في الحل والترحال، وظلَّ في خدمته ـ يفيد من فيض علمه ـ إلى أن فرَّق الموت بينهما، ذكره في الذيل وله فيه القصائد الطوال، ألَّف كتاباً في سيرته ومناقبه ـ لم يكمله ـ.

٨ ـ أبو عبدالله محمد ـ فتحا ـ بن قاسم القادري، الإمام النحوي النقاد، العلم الذي تتضاءل له الأوطاد، سلالة الأفاضل الأعلام، آية الله في التحرير والتقرير، إلى زهد وعفاف، وقناعة ورضي بالكفاف، طلق الدنيا بالبتات، ووأدها وأد البنات. (ت١٣٣١هـ).

له حاشية على شرح الشيخ الطيب بن كيران على توحيد المرشد المعين في مجلدين، دلت على اطلاع واسع، وتحرير وتحقيق.

٩ ـ أبو العباس أحمد بن الجيلالي الأمغاري، شيخ فقهاء الوقت، فمارس المعقول والمنقول، بقية العلماء العاملين، ولسان المناطقة المتكلمين في آخرين.

❑ رحلاته:

رحل المترجم إلى بلاد الحجاز ثلاث رحلات:

١ ـ أولاها ـ وكانت صحبة شيخه أبي عبدالله محمد بن جعفر الكتاني ـ في حدود سنة (١٣٢٥هـ) وقضى هناك نحو سنة أدى خلالها مناسك الحج، وكانت له اتصالات بشيوخ العلم ورجال الحديث، ثم انتقل رفقة شيخه الكتاني إلى بلاد الشام، فزار في بيروت الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، وبعد تبادل الشيخين الإجازات والمناولات، قال الشيخ الكتاني للنبهاني: ادع لأولادي هؤلاء: محمد الزمزمي، ومحمد المكي ـ وهما ولداي من صلبي، ومحمد الفرطاخ ـ وهو ولدي الروحي، فضمهم إليه، وأجازهم جميعاً.

ثم عاد المترجم إلى المغرب في حدود أواخر سنة (١٣٢٦هـ)، فتزوج بتطوان ولم يمض على زواجه إلاَّ نحو عامين حتى توفيت الزوجة، فتزوج أختها ـ وولد له معهما ولدان: محمد الزمزمي، ومحمد المكي.

٢ ـ ثم رحل إلى الحجاز ـ للمرة الثانية سنة (١٣٣١هـ) ـ واصطحب معه الأهل والأولاد، فالتحق بشيخه محمد بن جعفر الكتاني ـ وكان مجاوراً بالمدينة المنورة ـ ولم يلبث أن توفيت زوجته الثانية ثم الولدان، فسافر مع

السيد محمد الزمزمي ـ ولد الشيخ الكتاني إلى القاهرة ـ بقصد الاطلاع على أعمال الطبع في «الرسالة المستطرفة» للشيخ، فاهتبلها المترجم فرصة لزيارة الأزهر ومديره الشيخ الأكبر مصطفى المراغي، وكان على صلة بالشيخ الكتاني، جرت بينهما مراسلات في عدة مناسبات.

وفي طريق عودته عرج المترجم على الينبع، فقضى هناك مدة، تولى خلالها التدريس ببعض المؤسسات، وقد اختبره مشايخ الينبع، فاقترحوا عليه درساً في تفسير سورة البقرة، فألقى الدرس على المشايخ، وكان موفقاً كل التوفيق، وكان أستاذه الكتاني ـ يناديه بشيخ الينبع ـ مباسطة له.

ثم عاد إلى المدينة، فجاور مع شيخه ـ إلى أن قدم عليهم المولى عبدالحفيظ ـ وكان قد أدى فريضة الحج، فطلب من الشيخ أن يأذن للمترجم في العودة معه إلى المغرب ليعلم أولاده، فعاد ونزل طنجة في حدود سنة (١٣٣٣هـ)، وجعل يعلم أولاده ـ وفيهم المولى يونس ـ الذي تولى ـ بعد ـ مناصب عليا في الدولة.

وفي هذه الأثناء، تزوج المترجم ـ للمرة الثالثة، وكان زواجه بكريمة الحاج عبدالسلام العمارتي ـ وهي من أسرة ريفية، استوطنت طنجة قديماً، وأكثر أولاد المترجم من هذه الزوجة، وقد أنجب عدة أولاد ذكور، تعلموا على والدهم، ثم التحقوا بمدارس ومعاهد، وهم يعملون الآن في وظائف عمومية، وبعضهم يعمل في حقل التعليم الحر.

وقد قضى المترجم بطنجة بضع سنوات، تولى التدريس فيها ببعض المساجد والجوامع، منها: مسجد ابن ريسون، درس فيه العربية، والجامع الجديدة ـ وكان يدرس به موطأ مالك، ثم مسجد بوعبيد ـ وكان به خطيباً.

ثم عاد إلى تطوان، فاستقبلته بالأحضان، وكان سكناه بالسويقة، وهي الدار التي قضى فيها أكثر حياته، فتفرغ للتدريس، والتفَّ حوله أفواج الطلبة، فأقرأ بجامع القصبة ـ وكان به خطيباً ـ، وأقرأ بجامع المصمدي عدة فنون، ثم بالجامع الكبير ـ وكان يدرس به مختصر خليل ـ، ولمَّا وصل إلى باب الجهاد عزم على إقرائه مع الطلبة ـ وكانت السلطة الحامية حظرت

تدريسه بالمساجد والجوامع، فاتصل بالصدر الأعظم - وهو وقتئذٍ ابن عزوز - وكان شهماً نبيلاً، فكلَمه في الأمر، فقال له: سر على عملك ولا عليك، فواصل إقراءه مع الطلبة، وكان أول مَن خرق هذا الحاجز الموهوم، - على أنَّه كلفه ذلك ثمناً غالياً -!

وكانت دروسه في شهر ربيع الأول - كتاب: «الشمائل» للترمذي، وبردة البوصيري، وبعض الموالد الخاصة، وله منظومة مطولة في هذا الباب، وفي شهر رمضان، كان يدرس شفاء عياض، ويتوسع في ذلك، فيملي ما في شروح الشفا، ويضيف إليها من المواهب اللدنية بشرح الزرقاني، وسيرة ابن سيد الناس، وسيرة الحلبي، وسواها من كتب السير والأثر.

❑ تقلبه في بعض الوظائف:

لقي المترجم - بعد عودته إلى تطوان - بعض مضايقات من رفاقه في الطلب، الذين تولوا مناصب عليا في الإدارات الحكومية، حتى كاد يرجع من حيث أتى، وقد اضطر إلى قبول وظيف كان دون مقامه.

ومن الوظائف التي تقلب فيها: مستشار ثان بوزارة العدل، ثم قاضي القضاة بإقليم الريف من شمال المغرب، ومستشار شرعي بوزارة الأحباس، ثم أخيراً أستاذ مادة الحديث بالمعهد العالي بتطوان.

❑ رحلته الثالثة:

ثم حجَّ الحجة الثالثة سنة (١٣٥٦هـ)، وكان قد باع قطعة أرض من غرسة لزوجه بحي السواني من طنجة، فركب سفينة إسبانية تدعى: «ماركس دي كومياس» وعندما أبحرت من سبتة، قال فيها قصيدته التي مطلعها:

فُلْكُ السَّنَا «مَارْكِيس دِي كُومْياسِ» وَثَـنـاؤُهـا لِـلـسُّـفْـنِ كَـالـنَّـبْـرَاسِ

وكان اصطحب معه في هذه الرحلة ولده الأكبر محمد الزمزمي، ثم أرست بهم الباخرة في ميناء طرابلس ليبيا، فنزلوا إلى البر، وقضوا هناك

بعض الوقت، فاتصل المترجم بكبار مشايخ العلم بطرابلس، وزار قبر الصحابي الجليل المنيذر الإفريقي ـ دفين قرية غريانة من ضواحي طرابلس ووقف على جامع أحمد باشا ـ وهو مسجد كبير عامر بحلقات العلم، فحضر درس شيخ الجماعة مصطفى بن باكر الطرابلسي، واستأذنه في إجازته والرواية عنه، فأجازه بكل ما لديه من معقول ومنقول ـ كتابة ومشافهة ـ، وأخذ عنه الحديث المسلسل بالمصافحة وتشبيك الأصابع، والمعانقة، وقال له: أصافحك كما صافحني شيخي سيدي أحمد العطاس، وأورده بسنده المتصل إلى رسول الله ﷺ وأجازه في صحيح البخاري، إجازة مطلقة ذكر فيها سلسلة شيوخه وبعض أسانيده إلى الإمام البخاري، وكان المترجم يعتز بهذا المسند ـ وربما كان أعلى سند له ـ وناوله المعجم الكبير، والصغير للطبراني، وعندما حلوا بجدة من أرض الحجاز، نظم قصيدة يقول فيها:

يا جدة جودي لنا بالوصل فالقلب انضني
يا جدة حي الحشا بالقرب فالصبر انفني

وهي طويلة.

ولمَّا أدى المترجم مناسك الحج وتهيأ للرجوع، وقف وقفة خشوع وقد وخطه الشيب، ووقف على عتبة الستين، ـ وهي مرحلة الشيخوخة والإنذار بالموت؛ فدعا الله عزَّ وجلَّ أن يجعله من أحبائه، ومن خدام سنَّة نبيه محمد ﷺ.

❑ تدريسه للحديث وعلومه ـ ومنهجه في ذلك:

تفرغ المترجم في أخريات حياته لتدريس الحديث وعلومه، وكان له درس خاص بصحيح البخاري بجامع للا فريجة من حومة السويقة، على بضع خطوات من دار سكناه، وكان يلقيه بين العشاءين، يحضره نجباء الطلبة وعامة المؤمنين، وقد عشت هذه الدروس، وكنت السارد فيها مدة سنوات، وكان المترجم لا يفضل على «صحيح البخاري» أي كتاب، مهما

كان شأنه، ويرفض القول بأنَّ المغاربة يفضلون «صحيح مسلم» على «صحيح البخاري» لمزايا عدوها، ويقول: «إنَّ المزية لا تقتضي التفضيل، وكان له منهج خاص في تدريسه».

١ ـ يفتتح الدرس بصلوات ودعوات، وتراتيل خاصة، ثم يتخلص لقراءة نص الحديث بسنده المتصل.

٢ ـ يبحث وجه المناسبة بين الترجمة والتي قبلها ـ وهو موضوع ألَّف فيه بعض الأئمة ـ بوجه خاص، ويقال: «إنَّ فقه البخاري في تراجمه».

٣ ـ ثم يرجع إلى رجال السند ـ واحداً واحداً ـ إلى الصحابي راوي الحديث، فيورِد ترجمة كل واحد، ويتوسع في ذلك أكثر من اللازم، حتى إنَّه يتراءى لك الراوي وكأنَّك عشت معه، وعرفت أطوار حياته، والبلدان التي تجوَّل فيها، والشيوخ الذين أخذ عنهم أو صحبهم، وما له من مدارك وخصوصيات حتى الوفاة.

٤ ـ ثم يشرح الكلمات الغريبة في الحديث، وهنا يرجع بك إلى معاجم الحديث، وقواميس اللغة، وأصول العربية بتوسع مستفيض، وربما يختلف شراح الحديث في ضبط كلمة، أو إعراب جملة، فيكون الحكم فيها سيبويه في كتابه، وابن جني في خصائصه، والزمخشري في مفصله، ويقول: دع عنك بنيات الطريق!

٥ ـ ثم أخيراً ـ وليس أخيراً ـ ما يستنبط من الحديث؛ من أحكام فقهية، وفوائد علمية، وآداب، وأخلاق، إلى غير ذلك.

وكان الكتاب المسرود ـ عنده ـ: «إرشاد الساري على صحيح البخاري» للإمام القسطلاني، أمَّا الجو الذي يعيشه الطالب مع الحديث، فهو ما يمليه ابن حجر في «الفتح» من شروح وتوضيحات، وما يورده من روايات، وما يصححه من أسانيده وما يستخرجه من حكم وفوائد، وحدث عن البحر ولا حرج! وهنا يسمو الشيخ، ويحلق في أجواء ما كنا لنعرف ما هناك، ونحن حديثو العهد بهذا الفن! وكانت أحياناً تقع محاكمات بين العيني وابن حجر، فإنَّهما ربما اختلفا في فهم بعض العبارات، أو شرح

إحدى الكلمات، أو ترجيح بعض الروايات، أو تبيين أحد المبهمات؛ فَيُقدم الشيخ ملفاً ضخماً يحتوي على وثائق ومستندات، وهكذا يعلن عن محاكمة الرجلين، ويدلي بحجج الطرفين، ويوضح حجة كل منهما، ثم يصدر حكمه، ويذكر ما فيه من حيثيات، ومستندات، وقد تطول هذه المحاكمة أو تقصر، ولكن الشيخ كان دائماً مع الحافظ ابن حجر، ويقول: شتان ما بين الرجلين!

ولا أعرفه وقف ـ ولو مرة واحدة ـ إلى جانب العيني، وربما كان على حق في ذلك؟

❑ مصطلح الحديث:

أمَّا درسه في علوم الحديث، وإن شئت قلت: في مصطلح الحديث، فغالباً ما يكون في غير أوقات الدراسة النظامية كيومي الجمعة والأحد، وفي الساعات الأولى، كالتاسعة، أو العاشرة، أو الحادية عشرة صباحاً، وكان الكتاب المقروء: «شرح الترموسي على ألفية السيوطي» وكنا نستنسخه، لأنَّه نادر الوجود، لكن الشيخ لم يكن يقتصر على ذلك، بل يستوعب كل ما كتب في هذا الفن.

من مثل مقدمة ابن الصلاح، وشروح ألفية العراقي، وطُرفة الفاسي، ونخبة الفكر ـ بشرحها ـ لابن حجر، وسواها، ويخرج من كل ذلك بزوائد وإضافات، ثم ينظمها على الأثر، فتجمع لديه من ذلك مؤلف كبير، أسماه «الذيل»، وهو كذيل الطاووس، أناق على الأصل بعدة أبيات، وكان يحفظ كل ذلك عن ظهر قلب، لما يتمتع به من ذاكرة قوية رغم كبر سنه، والأمراض التي كانت تنتابه من حين لآخر، ويعاني من داء الفتق الأمرين حتى يكاد يسقط في محرابه، وهو في كل ذلك صابر محتسب لله تعالى.

وهكذا قضى مترجمنا جلَّ حياته في خدمة العلم، ما بين تلق من أفواه الرجال، وتطواف على مدارسه ومعاهده، وتدريس لمواده وفنونه، وتأليف في مختلف ميادينه ومجالاته، إلى أن أسلم الروح إلى بارئها بين

جدران مكتبه، وحدثني أحد أولاده أنَّه لما ثقل عليه الأمر، وشعر بقرب أجله، وقف على باب مكتبته، وألقى عليها نظرة وكأنَّه يودعها الوداع الأخير، وقال له: تناول أحد أجزاء «فتح الباري» ـ وهو الكتاب المفضل عنده ـ، واقرأ عليَّ ما تجده فيه، قال: فوقع في يدي كتاب: «الرقاق»، ففتحته فإذا فيه: باب ذهاب الصالحين، عن مرداس الأسلمي، قال: قال النبيّ ﷺ: «**يذهب الصالحون الأول فالأول**» الحديث.

فقال: قضي الأمر، ارموا بهذه الأدوية، فاتجه إلى القبلة ـ وكان على وضوء ـ فكبَّر وقرأ فاتحة الكتاب، فلم يكملها حتى لفظ أنفاسه الأخيرة رحمة الله عليه، وكان ذلك على الساعة الثامنة صباحاً، **٢١** ذي الحجة عام تسعة وستين وثلاثمائة وألف، موافق **٤** أكتوبر سنة (**١٩٥٠م**).

وكان قد نظَّم قصيدة يذكر فيها يوم قدومه على مولاه، ويرجو رحمته ورضاه؛ وقد قدم لها بقوله: الحمد لله، كثيراً ما أتفكر في يوم قدومي على ربي، مع كثرة ذنوبي، وعيوبي، وقلة زادي، حتى تضيق بي الأرض بما رحبت، وأكاد أن يغشاني القنوط من رحمة الله تعالى والعياذ بالله! ثم أتفكر في سعة رحمة مولاي الكريم، وغناه عن كل العبيد، فجرت يوماً على لساني هذه الأبيات، وأنا ـ لله عبد ـ آمر أهلي وأولادي، أن يجعلوها في قبري يوم موتي، وقدومي على ربي عزَّ وجلَّ؛ وهي هذه:

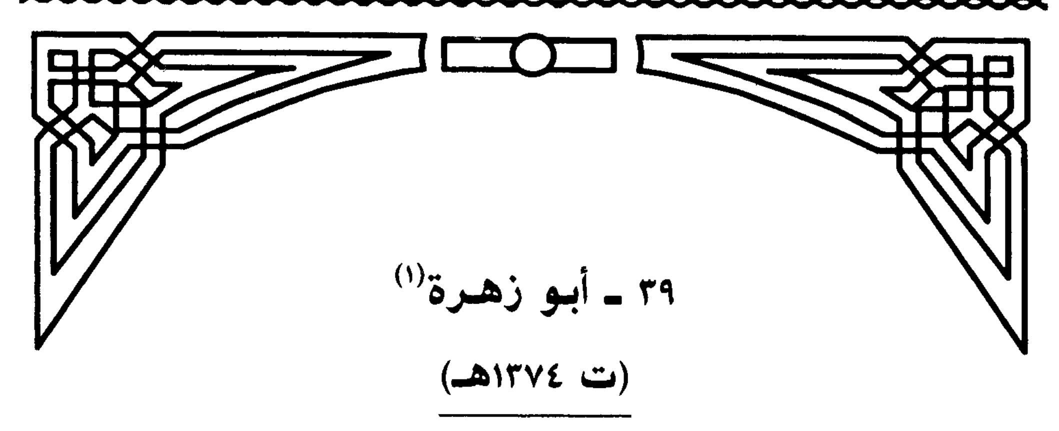
يوم القدوم على الكريم ... ما مثله ـ والله ـ عيدْ
فيه مجاورة الرحيم ... فيه المثوبة والمزيدْ
فيه أنال من الحليم ... عفواً ـ ولو كنت ـ مريدْ
إني إذا ما أذكر ... قرب اللقا فرحي بزيدْ
لله يوم زارني ... فيه بشير لقاء المجيدْ
يوم أرى فيه البشير ... ـ لا ريب ـ لي يوم سعيدْ
هنوا الكئيب بقولكم: ... بشراك فافرح يا شريدْ
قولوا للعبد قد أسا ... إن الغني مولى حميدْ
فالله ذو الفضل العظيم ... وعليه يعتمد العبيدْ

والـــرب جـــلَّ جـــلالـــه ... رب رحـــيـــم لا يـــبـــيـــذْ
مـــولاي إنـــي مـــســـرف ... والـقـلـب مـن ذنـبـي حـديـذْ
مـــولاي ذنـــبـــي لا يـــعـــد ... فـي نـزره أخـشـى الـوعـيـذْ
لـــكـــن رجـــائـــي فـــيـــك قـــد ... أوحـى بـفـوزي يـا مـجـيـذْ
فـاغـفـر عـظـيـم جـرائـمـي ... فـلـعـبـدك الـظـن الـوطـيـذْ
وارحـم عـبـيـداً قـد عـصـى ... بـالـجـود والـفـضـل الـمـديـذْ
فـالـفـضـل بـحـر زاخـر ... يـكـفـي الـورى يـوم الـمـزيـد
وامـــنُـــن عـــلـــي بـــتـــوبـــة ... قـبـل الـرحـيـل إلـى الـصـعـيـذْ
واخـتـم بـإيـمـان عـسـى ... آتـي ـ غـداً ـ وأنـا سـعـيـذْ
بـالـمـصـطـفـى طـه الـشـفـيـع ... قـد لـذت فـارحـم ذا الـشـريـذْ
ولـدى الـسـؤال فـثـبـتَـنْ ... نـطـقـي بـفـضـلـك يـا مـجـيـذْ
مـولاي صـلِّ عـلـى الـحـبـيـب ... مـا قـد رجـا عـبـد شـريـذْ
وادم عـلـيـه تـكـرمـا ... أزكـى سـلامـك يـا حـمـيـذْ
والآل ســـادات الـــورى ... والـصـحـب مـا قـد لاح عـيـذْ

وقد شيع بها إلى مقره الأخير في حفل رهيب! وعندما ووري التراب، وقف على قبره يؤبنه رئيس المجلس العلمي، أبو المكارم التهامي الوزاني، وقال: إنَّ عقله الكبير، لم يقبل الكير؛ لأنَّه لم يخلق لذلك، وإنَّما خلق للعلم يلتهمه، وللمعرفة ينشرها، ولسنَّة رسول الله ﷺ يبثها في صدور النَّاس، وقد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة؛ فنم قرير العين، تنعم في جوار الله ورضوانه.

وعندما رآه شيخ الجماعة بتطوان أبو العباس الزواقي على أعواد نعشه، قال: الآن، مات علم الحديث بتطوان!

فرحمك الله يا أبا عبدالله، وجازاك أحسن ما جازى به عباده الصالحين، هذا وقد خلف المترجم آثاراً علمية قيمة، وتراثاً ضخماً في علم الحديث».



٣٩ ـ أبو زهرة(١)

(ت ١٣٧٤هـ)

مات وهو يحمل القلم والمصحف لتفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ...﴾ الآية

ولد الشيخ محمد أحمد مصطفى أبو زهرة الششتاوي في سنة ١٣١٦هـ في مدينة المحلة الكبرى بمصر.

وينتسب إلى أسرة طيبة محافظة على الدين والقيم الإسلامية، كما يقول الشيخ نفسه: «أسرتي التي كانت عزيزة في مالها، عزيزة في نفسها، ولم تصل إلى درجة الثراء قط؛ ولكنها كانت دائماً في موضع الاحترام والإجلال والتقدير».

وأول ما قرع آذان الصبي النابه محمد أبو زهرة هو ترتيل القرآن، فقد كانت والدته السيدة خضرة ترتله ترتيلاً، ولما وصل إلى سن تلقي العلم أدخله أبوه الكُتَّاب لحفظ القرآن الكريم، وكانت أمه تراجع له ما يحفظه، وقد استطاع أن يحفظ القرآن الكريم وهو في سن التاسعة على يد بعض الشيوخ؛ مثل: الشيخ محمد الجمال إمام مسجد الدهانية، والشيخ محمد الحيكا إمام مسجد الحنفي، والشيخ مرسي المصري إمام مسجد الشيخ عبد ربه.

(١) نقلت هذه الترجمة باختصار من كتاب: «محمد أبو زهرة إمام الفقهاء المعاصرين، والمدافع الجريء عن حقائق الدين» للدكتور محمد عثمان شبير.

يقول الشيخ أبو زهرة عن بداية حياته العلمية: «لقد ابتدأت حياتي بدخول المكتب لحفظ القرآن».

وبعد أن حفظ الكثير من القرآن، وتعلم مبادىء الكتابة والقراءة والحساب، انتقل إلى المدارس الراقية التي تعلم العلوم المدنية من تاريخ وجغرافية ورياضيات، وكيمياء وفيزياء، هذا بالإضافة إلى علوم العربية وآدابها، والدراسات الدينية المنهجية وغير ذلك.

ثم ذهب إلى طنطا والتحق بالمعهد الأحمدي الأزهري في الجامع الأحمدي، وكان ذلك سنة **١٣٣١**هـ، حيث قال الشيخ: «لما أخذت أشدو في طلب العلم، وأنا في سن المراهقة دخلت المعهد الأحمدي بطنطا».

وفي هذا المعهد بدت عليه مظاهر النبوغ والتفوق حتى إنَّ الشيخ الأحمدي الظواهري شيخ المعهد الأحمدي قرر له مكافأة مالية لتفوقه وتميزه على أقرانه، كما اقترح أن تختصر له الدراسة في الأزهر، وكان آنذاك خمسة عشر عاماً ليتمكن من اجتيازها في مدة أقل، ولكن هذا الاقتراح لم ينفذ لصعوبته قانونياً.

هذه المظاهر لم يوجد أساسها في الشيخ في هذه اللحظة، وإنَّما هو موجود فيه منذ الصغر.

كما يقول عن نفسه: «اختلطت حياتي بالحلو والمر، وكنت في صدر حياتي أرى مُرَّ الحياة، وأرى حلوها جداً، لقد ابتدأت حياتي العلمية بدخول المكتب لحفظ القرآن، وإذا كان النبات قبل أن يستغلظ سوقه يعيش في الحب المتراكب، وقد يرى بالمجهر صورة النبات في ذلك الحب، فكذلك ينشأ الناشىء منَّا وفي حبته الأولى في الصبا تكمن كل خصائصه في الكبر، وكنت أشعر وأنا في المكتب بأمرين ظهرا في حياتي فيما بعد؛ الأمر الأول: اعتزازي بفكري ونفسي حتى يقال عني: إني طفل عنيد، والأمر الثاني: أني كنت أتضايق من السيطرة، ولعلَّ الأمرين متلازمان؛ لأنَّ الاعتزاز بالنفس يتولَّد عنها بعض السيطرة، ولمَّا أخذت أشدو في طلب العلم، وأنا في سن المراهقة دخلت المعهد الأحمدي (بطنطا) فظهر في طبيعتي أمر أحسسته،

ولعلَّه من مظاهر النزعتين السابقتين، وهو أني كنت أفكر لِمَ يوجد الملوك، وبأي حق يستعبد الملوك الناس، فكان كبر العلماء عندي بمقدار عدم خضوعهم لسيطرة الخديوي الذي كان أمير مصر في ذلك الوقت، وكبر في نظري عالم كبير؛ قال للخديوي، وقد أخذ يطلع على أسئلة المنطق التي وضعها ذلك الشيخ لطلبة المعهد الإسكندري، فقال للخديوي: وماذا تعرف من علم المنطق؟ قال شيخ المعهد: أتشتم الخديوي؟ فكبر ذلك الشيخ في نظري، واهتززت بالإعجاب به، حتى كنت إذا رأيته اهتزت نفسي بالإعجاب. واستمرَّ ذلك الشيخ له الحظوة العليا في تقدير طالب علم مثلي حتى رأيته يتملق ويصبح من رجال أحمد فؤاد سلطان مصر، فذهبت كل روعة له عندي، وانتقلت من النقيض إلى النقيض»[١].

فإذا كان لكل شخصية مفتاح ـ كما بيَّن صاحب العبقريات عباس محمود العقاد ـ فإنَّ مفتاح شخصية الشيخ أبو زهرة هو الاعتزاز بالنفس، وبما يحمل من فكر ورأي، وما يتولد عن ذلك من بغض للسيطرة، وحب للحرية، واهتزاز قلبه للحُر الرشيد، حتى إنَّه كتب عدة مقالات في هذا الصدد منها: **(الإسلام الحر الرشيد)** جاء فيه: «حرر الإسلام الإنسان في عقله وفكره ونفسه، وشخصه وإرادته، فصار يفكر حراً، ولا يعمل إلاَّ بحرية من غير انطلاق وبلا تقييد إلاَّ ما يكون في القيد حماية لغيره، وحريته، حتى لا يكون منطلقاً من غير رادع، ولا زاجر، وتكون حريته كحرية الحيوان المتأبد المتوحش المنطلق في البراري والغابات».

ثم انتقل إلى **مدرسة القضاء الشرعي،** وكانت هذه المدرسة لا تقبل إلاَّ المتفوقين من الطلاب الأزهريين ليُعدوا إعداداً فقهياً تطبيقياً.

كما يتضمن منهاج هذه المدرسة المسائل العملية المتعلقة بتحرير المحاضر والأحكام، ونظام المحاكم، وطرق المرافعة واللوائح المعمول بها، والقانون الإداري، وغير ذلك من المواد المتعلقة بإدارة القضاء.

---

(١) تجربتي مع الحياة لمحمد أبو زهرة: **٥٣، ٥٤.**

وكان لهذه المدرسة مدير حازم، ومرب ناجح شهد له كل مَن خالطه، قال الشيخ محمد أبو زهرة فيه: «ولمَّا دخلت مدرسة القضاء الشرعي، وكان ناظرها العالم ذو الأخلاق محمد عاطف بركات كان شديد الاستمساك برأيه ما دام لم يعلم أنَّه باطل، وكان قوياً في نفسه، لا يسيطر عليه إلاَّ ضميره وعقله، فمن هذا النبع استقيت ما تغذت به نفسي، وأرضى نزعتي، وإذا كان من الناس مَن يرى في تمسكاً، ولا أصير وراء الناس، فإنَّ هذا من تلك التربية العالية».

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة في بيان علاقته كطالب مع أحد أساتذة هذه المدرسة وهو الشيخ عبدالوهاب خلاف: «نحن الذين ارتبطنا مع ذلك العالم الجليل برابطة الود والصداقة، وذقنا لطف عشرته، نحس بأنَّا فقدنا جزءاً من أنفسنا».

قال الدكتور عدنان زرزور في أثر هذه المدرسة في شخصية الشيخ محمد أبو زهرة العلمية: «ويمكن القول: إنَّ الأثر الأكبر في شخصية أبي زهرة العلمية وشغفه الذي لا حدَّ له بالمعرفة، والمطالعة، والتأليف يعود إلى مدرسة القضاء الشرعي التي أنشأتها الحكومة المصرية أصلاً لما رغبت في إصلاح القضاء الشرعي، ولم تستطع أن تعول في ذلك على علماء الأزهر كما قال الشيخ المراغي رحمه الله».

وبعد أن تخرج الشيخ محمد أبو زهرة في مدرسة القضاء الشرعي التحق بمكتب محاماة للتدريب على مهنة المحاماة، وبعد أن أمضى سنة في التدريب على المحاماة قدَّم طلباً لدار العلوم المصرية لمعادلة شهادة مدرسة القضاء الشرعي بشهادة دار العلوم، وطلب منه أن يستعد لامتحان المعادلة بعد ستة أشهر، وبعد هذه المدة استطاع أن يجتاز امتحان المعادلة، ويحصل على شهادة دار العلوم من الخارج (الانتساب) كما قال أبو بكر عبدالرزاق: «أخذ دبلوم دار العلوم من الخارج عام **١٩٢٧م**».

وممَّا يؤكد هذا ما دار بين الشيخ وتلميذه يوسف البدري من حوار في معهد الدراسات العربية بالقاهرة والذي كان يظن أنَّ شيخه خريج القضاء

الشرعي فقط، حيث قال: «كنت أعلم أنَّه خريج مدرسة القضاء الشرعي وكانت دفعته تضم مجموعة فذة من العلماء، ولم أكن أعلم أنَّه درس في دار العلوم».

ثم قال البدري: «في إحدى المحاضرات سألني، وقد لاحقته بكثير من الأسئلة التي حاولت فيها إظهار مدى قراءاتي: كم من الوقت استغرقت لنيل الليسانس؟ فأجبته على الفور: أربع سنوات فقط، وكنت من المتفوقين، فأجابني في بسمة مفاجئة: أتدري كم استغرقت أنا للحصول على شهادتك؟! فأجبته: لا أدري!! فقال الشيخ: في ستة أشهر حصلت على دار العلوم، في ستة أشهر. ووجدتني أعلق في سرعة مذهلة: نعم يا مولانا... أيام الرخص، فضحك الشيخ حتى استلقى، وقد أغرب في الضحك مع ضحكات الطلاب، ثم قال الشيخ: أيام جودة الصنف يا ولد يا يوسف.

بعد أن حصل الشيخ أبو زهرة على شهادة مدرسة القضاء الشرعي، ودبلوم دار العلوم سنة **١٩٢٧**م عُيِّن مدرِّساً للعلوم الإسلامية والعربية في تجهيزية دار العلوم، ثم انتقل إلى التدريس بالمدارس الثانوية العامة في سنة **١٩٣٠**م، ثم انتقل إلى العمل في كلية أصول الدين بالأزهر الشريف في أوائل سنة **١٩٣٣**م.

وفي سنة **١٩٣٤**م انتقل للعمل في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، مع بقائه منتدباً للتدريس في كلية أصول الدين، ثم تولى رئاسة قسم الشريعة في كلية الحقوق، كما تولى وكالة الحقوق بجامعة القاهرة.

يقول الدكتور محمد عثمان شبير: أوتي الشيخ أبو زهرة مواهب متعددة ساعدت على أن يحتل مكانة مرموقة في أوساط الناس؛ على جميع المستويات من حكام وعلماء وطلاب وعامة الناس؛ ومن هذه المواهب: حدة الذكاء، وقوة الحافظة والذاكرة، وحضور البديهة، ونفاذ البصيرة، وسعة الأفق. وفيما يلي بيان لهذه المواهب عند الشيخ رحمه الله تعالى؛ والتي كان لها أثر في احترام النَّاس وتقديرهم له.

١ ـ حدة الذكاء:

بيَّنا في أسرة الشيخ رحمة الله أنَّه ينتمي إلى أسرة ذكية كما ذكر في تجربته مع الحياة، ولم يكن الشيخ أقل ذكاء من أفراد أسرته، بل فاقهم في الذكاء، حتى قال فيه **الشيخ عبدالمعز الجزار** بعد وفاته: «لا أكون مغالياً إذا قررت أنَّ قرننا لم يشهد عالماً فذّاً أوتي ما أوتيه أبو زهرة من ذكاء نادر، وخصوبة ذهن، وبسطة في العلم، وقوة إدراك وملاحظة، وغزارة مادة في أسلوب سليم، ووفرة إنتاج في الفقه والتفسير والحديث، ولغة القرآن، والتراجم والمحاضرات، والندوات في الداخل والخارج».

وقال الشيخ **صلاح أبو إسماعيل** واصفاً مشاركة الشيخ أبو زهرة في ندوة مجلة (لواء الإسلام) الشهرية: «كان يبهرنا بذاكرته وذكائه الوقاد، إذ كان يُجمل في كلمته ما تناثر من تفاصيل القول بألسنة المتحدثين، فيجمع المتفرق، ويجمل المفصل، ويوجز بعد إسهاب، ولو أنَّ ذلك كان دوره فقط لكان عجباً أن يستعين بالذاكرة دون مذكرة، فلا تغيب عن ذهنه شاردة ولا واردة مما تناوله المتحدثون، ولكن دوره لم يقف عند هذا المدى، بل كان يأتي بالجديد المفيد والإضافات المذهلات التي تقاصرت عنها الهمم، وادَّخرها الله لهمته في كل ندوة لتنبىء عن غزير العلم، وعميق الفقه وسعة الأفق، وطول الباع وعمق الاطلاع».

وكان رحمه الله الأول في دفعته، ويفتح حواراً مع أوائل الطلبة الذين سبقوه في الدراسة، فحينما كان في السنة الثانية في مدرسة القضاء الشرعي كان يناقش الشيخ حسن الخطيب أول دفعة السنة الرابعة، إمَّا في وقت الراحة، وإمَّا في وقت الذهاب والإياب من المدرسة، وكانت المناقشات علمية فقهية في الغالب.

٢ ـ الذاكرة القوية:

وهب الله تعالى الشيخ أبو زهرة ذاكرة قوية وحافظة واعية لا ينسى ما شاهده أو قرأه، فإذا قرأ كتاباً استوعبه لأول قراءة، وناقشه غيباً مع ذكر رقم الصفحة والسطر للموضوع الذي يعرض له بالمناقشة، وكان يندر أن يخطىء

في أرقام الصفحات والسطور. وإذا تحدَّث في التاريخ والأحداث السياسية والوقائع المصرية والعالمية جرت على لسانه بكل دقة وغزارة يسردها كما وقعت بتواريخها وأشخاصها لا ينسى شيئاً من ذلك، فقد كان رحمه الله قطعة حية من التاريخ. وإذا حاضر في أي موضوع تحدَّث من دون ورقة أو كتاب.

يقول أحد طلابه **يوسف البدري** في مناقشته لرسالة معيد في الكلية بعنوان (ابن القيم): «لقد هال الحاضرين تلك الموسوعة المتحدّثة من الذاكرة، لا تخطىء رقم الصفحة أو اسم الكتاب أو حتى رقم السطر وتاريخ الطبع... تلك الموسوعة هي أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة رحمة الله عليه، حيث كان جَالساً،.. لا ينظر في كتاب ولا مفكرة، وإنَّما يقول للطالب: قلت في صفحة كذا سطر كذا ما نصه كذا نقلاً عن كتاب كذا صفحة كذا، سطر كذا... إلخ، وعندما كان الطالب يعترض مبرراً وجهة نظره كان يحيله الشيخ أبو زهرة إلى أكثر من مرجع محدداً الصفحة والباب والفصل، بل والسطر، وتاريخ الطبع، لقد دهش الحاضرون من هذه الذاكرة، ولم يلفت نظرهم من المناقشين أحد مثله، كل ذلك وهو باسم الفم، جاد اللهجة، قوي النبرات، واضح العبارة، منطقي الفكر».

وروى الأستاذ محمد السيد بدر أستاذ فلسفة القانون الروماني: «أثناء مناقشة رسالة الدكتوراه للمرحوم الدكتور حسين النوري، والذي حضر مناقشتها الرئيس محمد نجيب، ناقشها الشيخ من الذاكرة، يناقش سطوراً في كثير من صفحات الرسالة، يحددها بالصفحة والسطر طوال أكثر من ساعتين دون أن يخطىء مرة واحدة في تحديد صفحة أو سطر أو عبارة أراد أن ينقدها».

وروى ابنه الدكتور مصطفى أبو زهرة: «أنَّ والده اختلف مرة مع بعض ورثة صديق له عندما أخذوا رأيه في مكتبة والدهم، لأنَّه اقترح عليهم أن يتركوا له تلك المكتبة بعض الوقت كي يقرأ بعض كتبها، خاصة الكتب التي لم يكن قرأها من قبل، ثم يتركها لهم يتصرفون فيها كيفما أرادوا؛ لأنَّه

لا يهمه أن يحتفظ بالكتاب بعد قراءته، فتصور أبناء صديقه وزميله أنَّ الشيخ لم يأخذ الأمر بشكل جدي، فانصرفوا، ولم يعودوا إليه ثانية، مما حرَّك بعض الأسى في نفسه... ولنفس السبب كان لا يهمه أن يعود إلى الكتاب.

ونتج عن ذلك أنَّه كان لا يهتم باقتناء الكتب بعد قراءتها، ولذا كانت مكتبته غير حافلة بالعدد الضخم من الكتب كما يتصور البعض».

ويذكر ابنه الدكتور مصطفى أنَّه كان يذهب إلى المؤتمر أو الندوة ولا يحمل ورقة ولا قلماً، ولا بحثاً معداً، ولا موضوعاً معيناً يتحدَّث فيه... كان يكفيه أن يعرف موضوع الندوة أو اسم المحاضرة. ثم يضيف ابنه: «من الأمور التي تميَّز بها والدي رحمة الله عليه أنَّه طوال حياته لم يسجل أرقام تلفونات لأحد من أصدقائه، ولكن كل الأرقام مختزنة بذاكرته، فعندما يريد أن يطلب أحد الأقارب أو الأصدقاء أو الزملاء كان يدير قرص التلفون طالباً إياه، حتى ولو مضى على آخر اتصال أو لقاء سنة أو سنتين أو أكثر... باختصار لم يكتب رقم تلفون في حياته، ولم يطلب من أحد منَّا تسجيل رقم، أو عنوان خاص به».

❑ أمَّا عن أخلاقه:

وإن أبلغ الإخلاص كما يقول أبو زهرة رحمه الله: «أن يخضع الشخص نفسَه لما أراد الله، وما أراد الحق، بحيث يكون طلب الحق شهوته وهواه، فيدغم أهواءه وشهواته في طاعته سبحانه، وفي سبيل الفضيلة، ولذا قال ﷺ: **«لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى يكونَ هَواهُ تبعاً لِمَا جئتُ به»**، وإنَّ الإخلاص ليستولي على قلب المؤمن فيحس بسلطان الله على قلبه في كل ما يصنع، فيكون سمعه الذي يسمع به، وعينه التي يبصر بها، ويده التي يبطش بها، ويكون كل ما يفعل لله تعالى».

وممَّا يدل على إخلاصه قوله في آخر حياته: «أحسب في حياتي كلها أن الله كان معي مع كثرة الذين يرومون بي السوء، وما خيَّب الله لي أملاً

ولا رجاءً، وكنت أُضطهد في العهود السابقة، فكلما اشتدَّ الكرب عليَّ جاءني الفرج من حيث لا أحتسب». وهو يوصي طلبته بالإخلاص في قوله: «وإني أقول نصيحتي لأبنائي الذين أنعم الله عليَّ بأنَّهم تخرجوا على يدي: كونوا يا بني مع الحق دائماً، وأخلصوا لله دائماً، ولا تمالقوا أحداً في حق، ولا تكونوا على ضعيف أبداً».

كان الشيخ أبو زهرة رحمه الله يتَّصف بالتواضع، وخفض الجناح لزملائه الذين عملوا معه، فلم يركبه الغرور، ولم يستبدَّ به العجب؛ لأنَّه يدرك بيقين أنَّ العلمَ بحرٌ عميقٌ لا شطآن له، ولا يصل أحد إلى قراره. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وهو يصرِّح بذلك إذ يقول: «إنَّ أشد مَا يصاب به العالم أن يُعجَب بعلمه، وبنفسه وبرأيه، فيحسب أنَّه لا يخطىء أبداً، أو يحسب أنَّ قوله يُتَّبَعُ من غير بيّنة ولا حجة ولا سلطان، وأنَّه متبع وحده».

من الأمثلة الواقعية على تواضعه ورجوعه إلى الحق ما ذكره تلميذه **الدكتور أحمد الكومي**، حيث قال: «أذكر أنَّه اعترض على الشيخ حجازي في بعض مناقشاته على رسالته للدكتوراه حول الوحدة الموضوعية في القرآن، فمنعت الشيخ حجازي من الإجابة، وقلت: «إنَّ الشيخ أبا زهرة لم يفهم موضوع الرسالة» وقامت ضجة كبرى في القاعة لهذه الكلمة، ولكني ألقيت بياناً بعدها مباشرة وضَّحت فيها للشيخ أبي زهرة أنَّ موضوع رسالة الطالب لا يتعلَّق بسؤاله حول التدرج في تحريم جريمتي الربا والزنا، وأنَّ صاحب الرسالة لم يعرض لهما لأنَّهما خارجان عن موضوع رسالته، فسُرَّ الشيخ أبو زهرة من ذلك، وقام من فوره وعانقني أمام الحاضرين، وفي هذه الأثناء همس أحد الأساتذة المشاركين في مناقشة الرسالة معنا ملمحاً بأنَّ الشيخ أبا زهرة يعارض أي وزير ولا يجرؤ أن يعترض عليه أحد، وأنت تعترض على رأيه!! فرد عليه الشيخ أبو زهرة في الحال بقوله: اسكت، لقد وجهني إلى ما كنت أجهله».

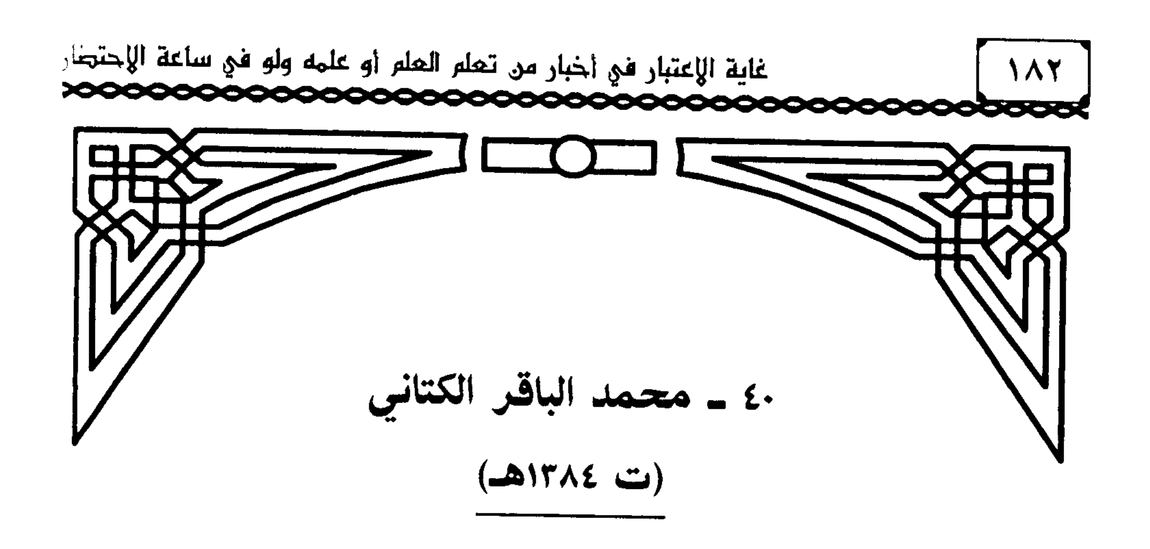
ويذكر تلميذه **الأستاذ علي عبدالعظيم**: «لقد اختلفت معه رحمه الله في

تفسير أول سورة الأنبياء، فكان رحمه الله يفسر قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢]، فكان يفسر (الذكر) في الآية بمعنى الرسول ﷺ، وكنت أرى أنا أنَّ معنى (الذكر) في الآية: كتاب سماوي. وكان الإمام يؤكد رأيه بقوله تعالى في الآية التالية: ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]، وقال فيما قال لي الإمام أبو زهرة: «لك أن تعلّق على تفسيري بما تشاء، وأنا لا أمنع الرأي الآخر، بل أحترمه قدر احترامي لنفسي، ويسرني غاية السرور أن يكون من تلامذتي مَن يراجعني، فإنَّما أنا بشر أخطىء وأصيب».

وقال **الدكتور محمد عبدالواحد وافي**: «كان رحمه الله واسع الصدر، يرحب كل الترحيب بما يوجه إلى بحوثه من نقد سليم بنَّاء، فقد عقبت على مناقشته لما ذهب إليه ابن خلدون بشأن انتشار مذهب الإمام مالك، وأخذت عليه بعض مآخذ في تحقيقي للمقدمة... فتلقى هذا التعقيب بكل صدر رحب، ووعد بتدارك ما فاته في الطبعات التالية لكتابه».

وتوفي ـ رحمه الله تعالى ـ كما ذكرت ابنته حياة النفوس وهو يحمل القلم والمصحف لتفسير قوله تعالى: «﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. فبينما كان ينزل من الدور الأعلى، ويحمل المصحف مفتوحاً على سورة النمل، وكذلك الأوراق التي يكتب فيها التفسير، وقلم الحبر، كل ذلك في يده، وفنجان القهوة الذي صنعه بنفسه في اليد الأخرى، ففي هذه الأثناء سقط رحمه الله ساجداً على الدرج، وأصيب في رأسه جراء هذه السقطة واستمرَّ في غيبوبة منذ أذان صلاة الجمعة إلى ما بعد غروب ذلك اليوم، حيث فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها...».

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



٤٠ ـ محمد الباقر الكتاني

(ت ١٣٨٤هـ)

مات وهو يؤلف كتابه: «يواقيت التاج الوهاج»

(ترجمته بقلم ولده العلاَّمة عبدالرحمن الكتاني)[١].

هو سيدنا الوالد: الشيخ الإمام الحافظ الحجة، المثل الأعلى للسلف الصالح، وحامل لواء الإرشاد الحقيقي بالمغرب العربي، والمرشد الروحي للطريقة الأحمدية الكتانية، أبو الهدى مولانا محمد الباقر ابن شيخ الدنيا وحافظها وحجتها، مجدد الشريعة المحمدية، ومؤسس الطريقة الكتانية أبي الفيض مولانا محمد الكتاني الإدريسي الحسني، نزيل مدينة سلا بالمغرب الأقصى.

❑ مولده ونشأته:

ولد ـ رحمه الله تعالى ـ في بلدة فاس عاصمة العلم والعرفان بالمغرب، سنة **١٣١٩** من هجرة سيد الأنام، وسماه الشيخ الإمام والده ـ قدَّس سره ـ: محمد الباقر، رجاء أن يكون على قدم الإمام محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين ابن السبط الشهيد سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، في العلم والمعرفة والصلاح.

(١) من أعلام المغرب العربي ص: **١٥٢** وما بعدها.

ورُبي في سنواته الأولى في حجر والده الكريم موصناً مكرماً، محبباً معظماً، ولم يكد سنه يجاوز السابعة حتى جرت محنتهم المشهورة، ووقعتهم المأسوف عليها من الجِنة والناس، فأدخل إلى المعتقل صحبة والدته العارفة بالله وبرسوله، المتوكلة على الله سبحانه في جميع أمورها، والصابرة على المصائب عند حلولها، البرة بالمساكين والأرامل والمنقطعين إلى الله، صاحبة الكشف الحقيقي، المفردة ترجمتها بالتأليف، مولاتنا ملكة، كريمة العلاَّمة المدرس المفتي أبي عبدالله محمد (فتحا) ابـن الإمام العلاَّمة المتفنن، مفخرة القرويين، وقاضي طنجة والقصر الكبير، أبي الفضل علي المدعو: «علال» الحسني نسباً، المريني لقباً، الفاسي مولداً وداراً ووفاةً.

وبعد انقضاء أيام المحنة التي كانت أهم حوادثها استشهاد والده الشيخ الإمام أبي الفيض، في سبيل جعل كلمة الله بالمغرب هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ومحافظته على استقلال المغرب وجمعه أعيان قبائل المغرب ووجوههم للوقوف في وجه الجيوش الفرنسية التي وطئت ترابه سنة **١٣٢٥**هـ.

انتقل إلى كفالة جده إمام الأئمة وعالم الأمة أبي المكارم الشيخ مولانا عبدالكبير الكتاني قدس سره، فكان ينظر إليه بعين الرعاية، ويلحظه بكامل العناية.

ولما أدخل المكتب لتعلم القرآن الكريم، كانت أمارات الصلاح تبدو عليه، وبشائر الخير والفضل تتوالى لديه.

وبعد ما حفظ القرآن الكريم وكثيراً من المتون المتداولة؛ أخذ في حضور دروس العلم عن أعلام فاس لذلك العهد بالقرويين وغيرها من المساجد والزوايا وعمره لما يتجاوز الحادية عشرة، كجده جبل السنَّة والدين الشيخ أبي المكارم عبدالكبير الكتاني، ورئيس المجلس العلمي بالقرويين أبي العباس أحمد بـن محمد بـن الخياط الزگاري، ورئيس المجلس العلمي بالقرويين أيضاً أبي العباس أحمد بـن الجيلاني، وقاضي الجماعة بفاس أبي عبدالله محمد بـن رشيد العراقي، ومفتي فاس أبي عيسى المهدي بـن

محمد الوزاني، وقاضي فاس أبي فارس عبدالعزيز بن محمد بناني، ووزير العدلية بالمغرب أبي زيد عبدالرحمٰن بن القرشي الإمامي، والعلاّمة المحدث أبي الجمال محمد الطاهر بن الحسن الكتاني، والعلامة المشارك الرضي السناني، وقاضي وازان أبي العباس أحمد بن جلون الفاسي، ومدرس التفسير والحديث بالقسم النهائي بالقرويين أبي عبدالله محمد بن أحمد ابن الحاج السلمي المرداسي... وغيرهم.

ولما انتقل للسكن بمدينة رباط الفتح عاصمة المغرب الإدارية سنة (**١٣٣٩هـ**)، لازم دروس الحافظ المحدث الشيخ أبي شعيب بن عبدالرحمٰن الصديقي الدكالي، نحو سبع سنوات ختم عليه فيها الكتب الستة بتمامها، ودروس الحافظ المحدث رئيس مجلس الاستئناف الشرعي أبي عبدالكريم محمد المدني بن الحُسني الحسني المشيشي نحو ثلاث سنوات... إلى غير ذلك من الدروس التي لازمها حتى أصبح من فحول علماء المغرب، مع ما عنده من الخيرية والفضل والتصدر لإرشاد الخلق...

وفي أثناء ذلك كان يتردد على مسندي المغرب العربي ويكاتب مسندي الشرق العربي بقصد الرواية والعلو في السند؛ فأجازه ابن خال والده إمام الحفاظ والمسندين وقطب الملة والدين أبو عبدالله محمد بن جعفر الكتاني، وشيخ دار الحديث بدمشق الشام، الحافظ الحجة الشيخ محمد بدر الدين بن يوسف الحسني المغربي، والشيخ أبو شعيب الدكالي، والإمام محمد المدني بن الحسني، وشارح جامع الترمذي أبو عبدالله محمد بن إدريس القادري، وقاضي تلمسان الشيخ شعيب بن علي الجليلي التلمساني، وشيخ الجماعة بالرباط أبو حامد المكي بن محمد بن علي البطاوري.

وفي عام **١٣٥٧هـ** رحل للحجاز؛ فدخل مصر واجتمع برجال العلم والدين بها، وأخذ فيها وأخذ عنه، ولم يبرحها حتى ترك فيها مركزاً هاماً للقيام بالدعوة والإرشاد، ونشر الطريقة الكتانية، والتي ترأسها هناك فضيلة العلاّمة الجليل الشيخ عبدالحميد الشيمي...

ثم دخل الحجاز وأخذ عن بقية مَن وجد هناك من رجال الإسناد،

وأساطين الدين بها كالأئمة الأجلة: محمد عبدالباقي الأنصاري، وعمر حمدان المحرسي المدني وغيرهما ممن حواهم كتابه: «قدم الرسوخ في معجم الشيوخ» في مجلد وسط.

وهو اليوم من كبار حاملي التحديث والرواية في العالم الإسلامي، وله ما يقرب من عشرين مؤلفاً في هذا الشأن.

وقد بشر بمبشرات كثيرة؛ منها ما قيل له: لو علمت ما يراد بك؛ لقرت عيناك، قد وليناك مقام الشيخ عبدالقادر!! وقيل عنه: لو علمتم جاهه عند الله؛ لتوسلتم به في مهامكم!!...

أمَّا الطريقة الكتانية الأحمدية، التي أسسها والده الإمام أبو الفيض رضي الله عنه؛ فيرويها عن الأئمة الأجلة: عمه الشيخ عبدالحي الكتاني، وعلي العدلوني، ومحمد بن أحمد العلوي، وعمر حمدان المحرسي، وعبدالقادر الشلبي، وأبي القاسم الدباغ، وعبدالحفيظ الفاسي، وعبدالكبير بن الماحي الصقلي، وأحمد بن محمد بناني، ومحمد بن يخلف الضرير الجشمي.

❑ وأعلى أسانيده:

روايته عن جده الشيخ عبدالكبير الكتاني، استجاز له منه شقيقه أبو عبدالله المذكور، وعن شيخ علماء الحجاز الشيخ محمد حبيب الرحمٰن الهندي، استجاز له منه والده الشيخ الإمام.

وقد وجدت في كتب مؤرخي المغرب الذين ترجموا للشيخ عبدالكبير: أنَّ إسناده في علوم الأثر أعلى الأسانيد، لأنَّه آخر مَن بقي بفاس يروي مباشرة عن محدث الحجاز الشيخ عبدالغني الدهلوي المدني، في حال أنَّ جميع فقهاء المغرب قبيل وفاته يروون عنه بواسطة أو أكثر.

وأنَّ الشيخ عبدالغني المذكور، يروي عن والده الشيخ أبي سعيد عن الشيخ عبدالعزيز الدهلوي عن أبيه محدث الهند الشيخ أحمد ولي الله صاحب «حجة الله البالغة»، وهو يروي عن الشيخ أبي طاهر الكوراني عن

أبيه محدث الحجاز البرهان إبراهيم عن الشيخ سلطان المزاحي عن الشهاب أحمد السبكي عن النجم الغيطي عن القاضي زكريا عن الحافظ ابن حجر بأسانيده، وأسانيد مَن سمي وعلومهم.

وأنَّ الشيخ عبدالكبير يتصل سنده باليمنيين عن طريق الشيخ عبدالغني المذكور عن حافظ الحجاز الشيخ محمد عابد السندي بأسانيده المذكورة في «حصر الشارد».

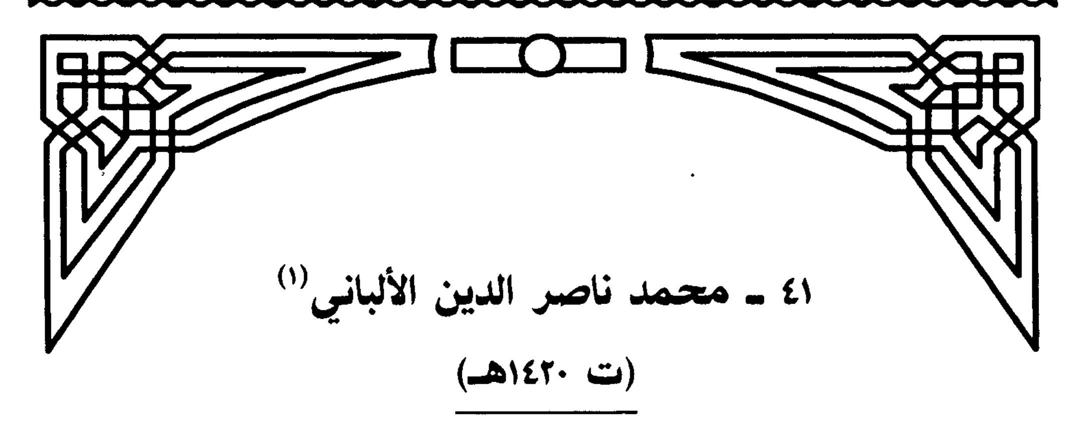
ويتصل سنده بالمصريين عن الشيخين: البرهان السقا، والشيخ عليش كلاهما عن الشيخ محمد الأمير الصغير عن والده الشيخ محمد الأمير الكبير بأسانيده التي في فهرِسته المشهورة.

ويروي الأمير عن الشهابيين أحمد الجوهري وأحمد الملوي، وهما عن عبدالله بن سالم البصري وأحمد النخلي المكي، في فهارسهم، ويروي الأمير عن الشيخ التاودي بن سودة ما في فهرسته... رحم الله الجميع.

يقول الدكتور حمزة بن علي الكتاني(1): «ومن عجيب المناسبات أن كتاب: «يواقيت التاج الوهاج» كان آخر ما قام به المؤلف من الأعمال قبل وفاته، فقد حدثتني والدتي الأستاذة نزهة بنت الشيخ عبدالرحمٰن بن محمد الباقر الكتانية ـ حفظها الله تعالى ـ أنَّه كان جالساً وهو يكتب كتابه هذا. ثم مكث مستريحاً وقال لابنته: «حذار أن يقترب فلان من الأوراق» (لطفل صغير من أهل البيت). وطلب حِساء فشربه، ثم قام ليتوضأ استعداداً لصلاة المغرب، وإذا به نُوزع وهو يتوضأ، فحُمل إلى سريره، وتوفي فيه من ساعته، ونظراً لخفة الموت عليه، وإشراق وجهه بحيث مكث إلى اليوم بعده محمرَّ الوجنتين، بهي الطلعة، لم يصدق النَّاس وفاته، فكان هذا الكتاب إيذاناً بعروج روحه إلى الملأ الأعلى رحمه الله ورضي عنه».

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(1) تقديم كتاب: «يواقيت التاج الوهاج» ص:٦.



٤١ ـ محمد ناصر الدين الألباني(١)

(ت ١٤٢٠هـ)

طلب من ابنه قبل ثمان وأربعين ساعة من وفاته إحضار (صحيح أبي داود) لينظر فيه

هو الشيخ المحدث العلاَّمة محمد ناصر الدين بن نوح نجاتي بن آدم، والملقَّب بـ: (الألباني) نسبة إلى بلدة (ألبانية) والمكنَّى بـ: (أبي عبدالرحمٰن) أكبر أبنائه.

كانت ولادته عام **١٣٣٢** من الهجرة النبويَّة، الموافق عام **١٩١٤**م، في مدين (أشقودرة) عاصمة ألبانية في ذلك الوقت.

نشأ العلاَّمة الألباني رحمه الله تعالى في أسرة فقيرة، بعيدة عن الغنى، مُتديِّنة يغلب عليها الطابع العلمي، فقد تخرج والده الحاج (نوح نجاتي)، الألباني رحمه الله في المعاهد الشرعية في العاصمة العثمانية (الآستانة) والتي تعرف اليوم بإستنبول، ورجع إلى بلاده لخدمة الدين، وتعليم النَّاس ما درسه وتلقاه، حتى أصبح مرجعاً يتوافد عليه الناس للأخذ منه.

ولما تولى الحكم في ألبانية الملك (أحمد زوغو)، وسار بها على سَنن جيرانه من أهل الكتاب، وراح يتعقب خطوات طاغية تركية (أتاتورك)

(١) هذه الترجمة نقلتها من كتاب: «محمد ناصر الدين الألباني محدث العصر وناصر السنَّة» لإبراهيم محمد علي.

فألزم النساء بنزع الحجاب، وتدنت الحال، وخاف بعض الأسر على دينهم، فبدؤوا بالهجرة، وقد توجس والد الشيخ على دينه، وعلى ذويه خيفة، بسبب كثرة الفساد، وانتشار الفتن، فقرر الهجرة إلى بلاد الشام، واختار مدينة دمشق ـ التي كان قد تعرَّف عليها أثناء قدومه للحج وإيابه منه ـ فسكنها واستقرَّ بها.

كان الشيخ ناصر رحمه الله حين هاجر والده قد شارف على التاسعة من عمره، فأدخله والده بعض مدارسها وهي مدرسة (جمعية الإسعاف الخيري)، حتى أتمَّ المرحلة الابتدائية بتفوق.

ولمَّا لم تَرُقْ لوالده المدارس النظامية من الناحية الدينية أخرج ابنه الصغير منها، ولم يدعه يكمل دراسته، ووضع له برنامجاً علمياً مركَّزاً، قام خلاله بتعليمه القرآن والتجويد والنحو والصرف وفقه المذهب الحنفي.

قد تلقى الشيخ الألباني على والده القرآن حتى ختمه عليه برواية حفص عن عاصم تجويداً، ودرسه بعض كتب الصرف في العربية، ودرسه أيضاً في الفقه، ومن الكتب التي درَّسها له كتاب: «مختصر القُدُوري» في فقه الأحناف. وكان والد الشيخ الألباني رحمهما الله جميعاً شديد التعصب للمذهب الحنفي، وقد حدث الشيخ الألباني رحمه الله مراراً أنَّ أباه لم يكن راضياً عنه في منهجه الذي يخرج عن المذهب الحنفي، وقد تتلمذ على يدي والد الشيخ الألباني جماعة من أهل العلم منهم الشيخ شعيب الأرناؤوط حفظه الله.

وممن درس عليهم الشيخ الألباني رحمه الله تعالى في صغره أيضاً:

صديق والده الشيخ محمد سعيد البرهاني، حيث درس عليه كتاب: «مراقي الفلاح» في الفقه الحنفي، وكتاب: «شذور الذهب» في النحو، وبعض كتب البلاغة المعاصرة.

وكان يحضر دروس العلاَّمة محمد بهجة البيطار ـ عالم الشام ـ مع بعض أساتذة المجمع بدمشق.

وكان الشيخ رحمه الله من أول حياته مغرماً بالمطالعة والقراءة، ويستغل كل أوقات فراغه بالقراءة، حيث كان يقول: «في أول عمري قرأت ما يقرأ وما لا يقرأ».

وبعد أن تلقّى الشيخ رحمه الله تعالى العلم على هؤلاء العلماء الأفاضل، أكرمه الله تعالى بالتوجه لطلب علم الحديث روايةً ودرايةً، وعدم الاكتفاء بالقليل من ذلك العلم، وإنَّما سعى للتبحّر فيه، حتى أصبح مرجعاً لطلبة العلم في هذا العلم الشريف.

وقد حدَّث الشيخ الألباني رحمه الله تعالى عن ذلك قائلاً:

«إنَّ نعم الله عليَّ كثيْرة، لا أحصي لها عداً، ولعلَّ من أهمها اثنتين: هجرة والدي إلى الشام، ثم تعليمه إياي مهنته في إصلاح الساعات.

أمَّا الأولى: فقد يسَّرت لي تعلم العربية، ولو ظللنا في ألبانية لما توقعت أن أتعلم منها حرفاً، ولا سبيل إلى كتاب الله تعالى وسنَّة رسول الله ﷺ إلاَّ عن طريق العربية.

وأمَّا الثانية: فقد قيضت لي فراغاً من الوقت، أملؤه بطلب العلم، وأتاحت لي فرصة التردد على المكتبة الظاهرية وغيرها ساعات من كل يوم.

ولو أني لزمت صناعة النجارة التي حاولت التدرب عليها أولاً، لالتهمت وقتي كله، وبالتالي لسدت بوجهي سبل العلم، الذي لا بدَّ لطالبه من التفرغ».

وقد بدأ الشيخ الألباني رحمه الله تعالى طلب علم حديث رسول الله وهو في العشرين من عمره متأثراً بأبحاث مجلة (المنار) المصرية التي كان يصدرها السيد (محمد رشيد رضا) رحمه الله تعالى.

وقد أشار الشيخ الألباني رحمه الله إلى فضل السيد محمد رشيد رضا رحمه الله، ومجلته العلمية السيارة الموسومة بمجلة المنار قائلاً:

«فإذا كان من الحق أن يعترف أهل الفضل بالفضل لذوي الفضل، فإنني - بفضل الله عزَّ وجلَّ - بما أنا فيه من الاتجاه إلى السلفية أولاً، وإلى تمييز الأحاديث الضعيفة ثانياً، يعود الفضل في ذلك إلى السيد محمد رشيد رضا رحمه الله عن طريق أعداد مجلة (المنار) التي وقفت عليها في أول اشتغالي بطلب الحديث».

وقال الشيخ رحمه الله أيضاً:

«أول ما أُولعت بمطالعته من الكتب: القصص العربية كالظاهر وعنترة، والملك سيف، وما إليها... ثم القصص البوليسية المترجمة كأرسين لوبين وغيرها، ثم وجدت نزوعاً إلى القراءات التاريخية.

وذات يوم لاحظت بين الكتب المعروضة لدى أحد الباعة جزءاً من مجلة (المنار) فاشتريته، ووقعت فيه على بحث بقلم السيد رشيد يصف فيه كتاب: «الإحياء» للغزالي - رحمه الله - ويشير إلى محاسنه، ومآخذه، ولأول مرة أواجِه مثل هذا النقد العلمي، فاجتذبني ذلك إلى مطالعة الجزء كله، ثم أمضي لأتابع موضوع (الإحياء) في (الإحياء) نفسه، وفي الطبعة التي تحتوي على تخريج الحافظ العراقي، ورأيتني أسعى لاستئجاره، ولأني لا أملك ثمنه، ومن ثَمَّ أقبلت على قراءة الكتاب، فاستهواني ذلك التخريج الدقيق حتى صممت على نسخه أو تلخيصه، وهكذا جهدت حتى استقامت لي طريقة صالحة تساعد على تثبيت تلك المعلومات.

وأحسب أنَّ هذا المجهود الذي بذلته في دراستي تلك هو الذي شجعني وحبب إليَّ المضي في ذلك الطريق، إذ وجدتني أستعين بشتى المؤلفات اللغويَّة والبلاغيَّة، وغريب الحديث لتفهُّم النص إلى جانب تخريجه».

وقد قام الشيخ الألباني رحمه الله بنسخ هذا الكتاب، وهو: «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار» ورتَّبه ونسَّقه، وهو من أوائل الأعمال الحديثية التي قام بها، وقد بقي مخطوطاً، ويقع في ثلاثة مجلدات، وفي أكثر من ألفي صفحة.

وكان هذا العمل فاتحة خير له، فقد ازداد إقبالاً على علم الحديث، حتى إنَّ والده رحمه الله كان ينكر عليه اشتغاله به قائلاً له: «إنَّ علم الحديث صنعة المفاليس».

وقد أجازه مؤرخ حلب ومحدِّثُها الشيخ (محمد راغب الطباخ) رحمه الله بمروياته، وهي المذكورة في ثبته (الأنوار الجلية في مختصر الأثبات الحلبية).

وكلُّ ذلك شجع الشيخ رحمه الله تعالى على الانكباب على تعلم حديث رسول الله ﷺ بشغف كبير، وهمة عالية، وعزيمة صادقة، وبجِدّ ومثابرة قوية، دراية ورواية، ويسعى لتعليمه وتبليغه، وعلى مدار ثلثي قرن من الزمان، حتى خرج إماماً في السنَّة، إماماً في الحديث.

وفي ذلك قال الشيخ رحمه الله تعالى:

«ومن توفيق الله تعالى وفضله عليَّ أن وجهني منذ أول شبابي إلى تعلم هذه المهنة ـ أي: تصليح الساعات ـ ذلك لأنَّها حرة، لا تتعارض مع جهودي في علم السنَّة، فلقد أعطيت لها من وقتي كل يوم، ما عدا الثلاثاء والجمعة، ثلاث ساعات فقط، وهذا القدر مكَّنني من الحصول على القوت الضروري لي ولعيالي وأطفالي على طريقة الكفاف طبعاً، فإنَّ من دعائه عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهُمَّ اجعل رزق آل محمد قوتاً**» رواه الشيخان.

وسائر الوقت أصرفه في سبيل طلب العلم والتأليف، ودراسة كتب الحديث، وبخاصة المخطوطات منها في المكتبة الظاهرية، ولذلك فإنني ألازم هذه المكتبة ملازمة موظفيها لها، ويتراوح ما أقضيه من الوقت فيها ما بين ست ساعات إلى ثماني ساعات يومياً، على اختلاف النظام الصيفي والشتوي في الدوام.

وأحياناً كان يبقى فيها اثنتي عشرة ساعة، لا يفتر عن المطالعة والتعليق والتحقيق إلاَّ أثناء فترات الصلاة، وكان يتناول طعامه البسيط في كثير من الأحيان فيها، ولهذا قدّرته إدارةُ المكتبة، فخصصت له غرفة خاصة

به. . . فكان يدخل قبل الموظفين صباحاً، وفي بعض الأحيان كان من عادة الموظفين الانصراف إلى بيوتهم ظهراً ثم لا يعودون، ولكنَّ الشيخ يبقى في المكتبة ما شاء الله له البقاء، فربما يصلي العشاء ثم ينصرف، وإن كل مَن رآه في المكتبة آنذاك يعرف مدى اجتهاده، وحرصه على الاستفادة من وقته».

وقال الأستاذ الرحالة المؤرخ، والنسابة الشهير حمد الجاسر رحمه الله تعالى:

«ولقد عرفت في مدينة دمشق عدداً من أجلة المعنيين بتحقيق التراث. . . كما عرفت الشيخ ناصر الدين الألباني، بكثرة ترددي على (دار الكتب الظاهرية)، إذ كان يُعد من أحلاسها، وقد كتب كثيراً من فهارسها، ونقب عن نوادر مخطوطاتها، وفي الوقت نفسه كان يعمل في إصلاح الساعات، له دكان صغير قرب باب الجامع الأموي».

وكان ممَّا أعانه على تحصيل العلم إضافة إلى المكتبة الظاهرية، وجود بعض المكتبات التجارية الخاصة، حيث كان يستعير منها بعض الكتب مثل: مكتبة سليم القصيباتي رحمه الله، والمكتبة العربية لأحمد عبيد رحمه الله.

وكان آخر كتاب عمل فيه الشيخ هو كتاب: «تهذيب صحيح الجامع الصغير والاستدراك عليه» ولقد قال لي أول اشتغاله به: «إنَّ مرضي أقعدني عن الحركة، وإنني أكره أن أجلس بدون عمل، فقد أملى عليَّ مرضي وعجزي هذا المشروع».

وقد كان بروز العلاَّمة الألباني في ميدان الحديث النبوي عظيماً وكبيراً، حتى تفرَّد فيه في هذا الزمان، مما شكره له الخاص والعام، وخرج فيه بثروة علمية حديثية ضخمة، لا غنى لعالم أو طالب علم عنها، ولا أدل على ذلك من موسوعة الأحاديث الفقهية والموسومة بـ: (**إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**)، و(**سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها**)، و(**سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيِّىء في الأمة**) وغيرها من تصانيفه.

❑ صبره وجَلَده على دراسة العلم وتصنيفه:

لقد ذكرنا في الصفحات السابقة من مواقفه التي تدل على جَلَدِهِ في تحصيل العلم وتصنيفه ما يثير العجب، وذلك من خلال مكوثه الساعات الطوال في المكتبة الظاهرية، وأذكر هنا بعض النماذج والأمثلة التي تدل على ذلك:

ما حدَّث به الدكتور محمود الميرة حفظه الله بأنَّ الشيخ ناصراً صعد على السُّلَّم في المكتبة الظاهرية ليأخذ كتاباً مخطوطاً، فتناول الكتاب وفتحه، فبقي واقفاً على السلم يقرأ في الكتاب لمدة تزيد على ست ساعات.

وقد بدأ رحمه الله منْ مجلة (المنار) للسيد محمد رشيد رضا رحمه الله عندما اطلع فيها على أنَّ الأحاديث حتى تُقبل ويُعمل بها وتصلح للوعظ والإرشاد، يجب أن تكون نسبتها صحيحة واصلة للنبيّ ﷺ بالسند المتصل... بعيدة عن العلل والشذوذ.

ومنذ ذلك اليوم وحتى وفاته لم يقف ساعة عن العمل الذي اختصَّ به من تصحيح وتصنيف كل حديث يمر به، وما أجَّله أو توقف عنده، كان يعود إليه مرات ومرات، وكان من نتيجة ذلك هذا الكم الهائل من صحاح الأحاديث وضعافها، وتنقية السنَّة من كل دخيل ومكذوب.

وقد بلغ الذروة في الصبر والتحمل حينما صام أربعين يوماً متواليات ليلاً ونهاراً عن كل شيء إلاَّ الماء، تطبُّباً وطلباً للشفاء من بعض الأمراض التي كان يعاني منها، بعد أن قرأ كتاباً لأحد الأطباء يشرح فيه كثيراً من الأمراض يُشْفَى منها بالصوم، فكان رحمه الله تعالى يواظب خلال هذه المدة على عمله ودروسه وتأليفه، ويمارس كل النشاط الذي كان يقوم به في الأيام العادية، بما في ذلك الأسفار وإلقاء الدروس والمحاضرات، وإنَّ هذا ـ لعَمْرُ الله ـ قمة في مضاء العزيمة، والصبر على المكاره، وعجيبة من عجائب الدهر.

وما جاء عنه أنَّه لم يفتر عن الجلوس وراء مكتبه للتأليف والتخريج حيث

كان يأتي بالكتب إليه بعض أبنائه وأحفاده إلى آخر خمسين يوماً في عمره الميمون رحمه الله، وذلك لما وَهَنَ بدنه، ونحل جسمه، وضعفت قوّته.

وما ذكره ابنه الفاضل عبداللطيف بن محمد ناصر الدين الألباني: أنَّ الشيخ رحمه الله طلب منه قبل ثمانٍ وأربعين ساعة من وفاته إحضار كتابه: «صحيح سنن أبي داود» لينظر فيه شيئاً وقع في قلبه، وورد على خاطره.

وما جاء عنه في الوقت الذي ضعفت يده عن كتابة ما يطول كتابته: كان يملي على بعض أبنائه وحفدته ما يخرجه من أحاديث، وبخاصة في سلسلة الأحاديث الضعيفة ثم يكتبون عنه.

وقد شهد له بالتبريز في علم الحديث العديد من علماء العصر:

قال فيه العلاّمة الكبير عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله تعالى: «لا أعلم تحت الفلك في هذا العصر أعلمَ من الشيخ ناصر في علم الحديث»، ووصفه بأنَّه «مجدد هذا العصر في علوم الحديث»، وقال الشيخ العلاّمة محمد بن صالح العثيمين: «بل هو محدث العصر» ووصفه بـ(أنَّه ذو علم جم في الحديث دراية ورواية).

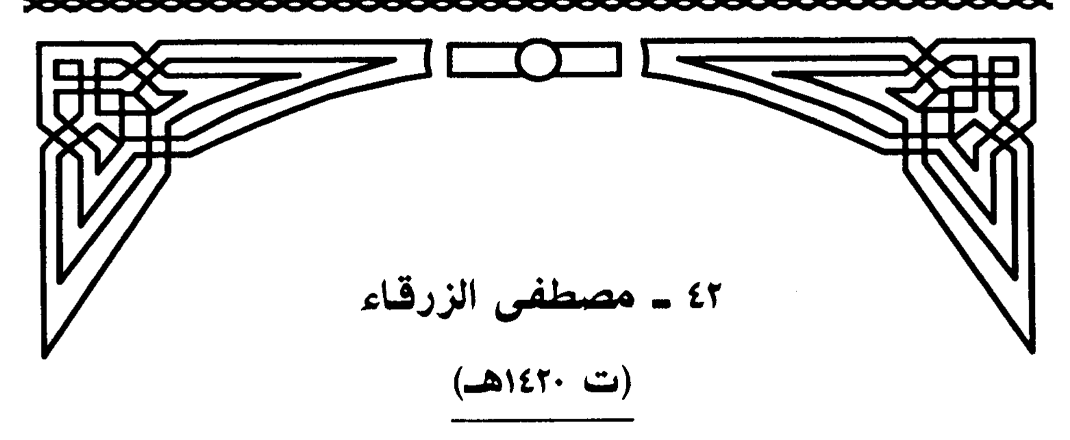
وقالت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية في حق العلاّمة الألباني: «وهو واسع الاطلاع في الحديث، قويٌّ في نقدها، والحكم عليها بالصحة والضعف».

ووصفه العلاّمة المحدث حماد الأنصاري رحمه الله تعالى: «بأنَّه ذو اطلاع واسع في علم الحديث».

ووصفته مشيخة أهل الحديث في الهند بأنَّه: «أكبر عالم بالأحاديث النبويَّة في هذا العصر».

وقال المحدث الفاضل شارح (سنن النسائي) الشيخ محمد علي آدم الأثيوبي عن الألباني:

«وله اليد الطولى في معرفة الأحاديث تصحيحاً وتضعيفاً، كما تشهد بذلك كتبه القيمة، فقلَّ مَن يدانيه في هذا العصر، الذي ساد فيه الجهل بهذا العلم الشريف».



٤٢ ـ مصطفى الزرقاء

(ت ١٤٢٠هـ)

قُبيل وفاته عرضت عليه فتوى فنظر فيها ونقحها وراجعها وصاغها

(ترجمته بقلم صديقه العلاَّمة يوسف القرضاوي)(١).

ولد الشيخ الزرقاء في مدينة حلب الشهباء ـ في سنة **١٣٢٢**هـ/ **١٩٠٤**م ـ من أسرة علمية دينية عريقة، اشتغلت بالفقه الحنفي، وبرزت فيه.

فجده العلاَّمة الشيخ محمد الزرقاء (ت **١٣٤٣**هـ) كان فقيه زمانه، وكان العلماء يأخذون عنه ويقرؤون عليه حاشية ابن عابدين الشهيرة في الفقه الحنفي.

وأمَّا والده فهو العلاَّمة الشيخ أحمد الزرقاء (ت **١٣٥٧**هـ) الذي درس الفقه الحنفي درساً، بل حرثه حرثاً وترك لنا فيه أثراً ملموساً هو (شرح قواعد المجلة) وقد نشرها شيخنا مصطفى الزرقاء بتقديمه منذ سنوات، فهو غصن باسق من شجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ﴾ [آل عمران: ٣٤].

وهذا النسب العريق هو الذي سماه أديب الشام الشيخ علي

(١) انظر: كتاب: «في وداع الأعلام» ـ فقيه الأمة العلاَّمة مصطفى الزرقاء ـ ص: ٨٥ ـ ١٠٧.

الطنطاوي: (سلسلة الذهب)! وهو الذي يستطيع الشيخ الزرقاء أن يزهو به ويقول: أولئك آبائي فجئني بمثلهم!

فإن كان من فضل أتوه فإنما تـوارثـه آباء آبائـهـم قبلُ!
وهل ينبت الخطي إلاَّ وشيجه وتنبت إلاَّ في مغارسها النخل؟

هذه النشأة الطيبة المتميزة الخصبة، كان لها أثرها في تكوين الشيخ فكراً وسلوكاً، ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨]، وقد آتاه الله البصيرة النيرة، والعقلية المتفتحة، والذهن اللماح، والذاكرة اللاقطة، والقدرة على الاستنباط والتعليل، والتحليل والموازنة والنقد، مع أناة عرف بها، وغاية في التدقيق، وبراعة في التمحيص والتحقيق، ونفس سمحة تميل إلى التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، والتسهيل لا التعقيد، كل هذه كانت مؤهلات لنبوغ الشيخ منذ صباه.

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيصير بدراً كاملا!

قرأ الشيخ على علماء بلده في حلب، وأولهم والده، وتلقى العلم عنهم على الطريقة القديمة ـ على الحصر والبسط ـ تلقى عنهم التفسير والحديث، والتوحيد والفقه، والأصول والنحو، والصرف والبلاغة، والأدب، وكان من أبرزهم تأثيراً في تكوينه العلمي: والده الشيخ أحمد، والعلاَّمة المؤرخ المحدث العلاَّمة الشيخ محمد راغب الطباخ (ت ١٣٧٠هـ)، والعلاَّمة المفسر المتكلم النظار الشيخ محمد الحنفي (ت ١٣٤٢هـ)، وكان من الذين تعلموا في الأزهر، وقرأ على الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي مصر: التوحيد والأصول، كما قرأ للإمام محمد عبده: رسالة التوحيد، وكثيراً من التفسير.

ثم أضاف إلى الدراسة التقليدية: الدراسة النظامية في المدرسة الخسروية الشرعية في حلب، كما درس اللغة الفرنسية في مدارس (الفرير) ليتخذ منها سلاحاً لمعرفة ثقافة العصر.

وقد وطَّن نفسه ـ بعد ذلك ـ على دراسة المقررات المطلوبة لامتحان

شهادة الثانوية هو وصديقه ورفيقه محمد معروف الدواليبي، ودخل الثانوية (شعبة العلوم والآداب) وحصل على الترتيب الأول فيها. كما قدم في دمشق للثانوية: (شعبة الفلسفة) وكان أول الناجحين فيها كذلك، فجمع بذلك بين الدراسة الشرعية والدراسة العصرية.

والتحق بعد ذلك بالجامعة السورية ـ جامعة دمشق بعد ذلك ـ في كليتين معاً: الحقوق والآداب، فكان يحضر الأولى في أول النهار، والثانية في المساء، حتى تخرج منهما بتفوق ملحوظ، فقد حصل على الترتيب الأول كذلك، وبهذا اجتمعت له الثقافات الثلاث: الشرعية، والقانونية، والأدبية.

❑ أعماله الوظيفية:

تولى الشيخ التدريس في المدرسة الخسروية التي تخرَّج منها، كان يدرس فيها: الفقه، والأصول، والآداب، كما شغل مكان والده في المدارس النظامية، وفي درس الجامع الأموي بدمشق.

واشتغل نحو عشر سنوات بالمحاماة ـ بعد تخرجه من الحقوق ـ أمام المحاكم الوطنية، والمحاكم المختلطة (بالفرنسية)، وأكسبه ذلك خبرة بالحياة ومشكلات الناس.

وفي سنة ١٩٤٤م عُيِّن مدرساً للحقوق المدنية والشريعة في كلية الحقوق بدمشق، وظلَّ أستاذاً بها إلى أن بلغ سن التقاعد ١٩٦٦م، وهو رئيس لقسم الشريعة.

وحين أنشئت كلية الشريعة سنة ١٩٥٤م، وكان عميدها الفقيه الداعية الكبير الدكتور مصطفى السباعي كلف بإلقاء عدد من المحاضرات فيها، كما ولِّي رئاسة لجنة (موسوعة الفقه الإسلامي) التي عزمت الكلية على تبني مشروعها.

وقد شارك في وضع خطة العمل، وتحديد الهدف، والبدء في الخطوات التمهيدية، واستقراء المصطلحات العنوانية المطلوبة في الموسوعة، وأشرف على إصدار (معجم فقه ابن حزم) وغيره.

وفي سنة ١٩٦٦م اختارته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت ليكون أول خبير لإنشاء الموسوعة الفقهية، وقد بقي خمس سنوات، وضع فيها اللمسات الأولى لعمل الموسوعة، وأصدرت بعض الأعمال التجريبية، عن (الأطعمة) و(الحوالة) وغيرها، وكان التخطيط الأولي: أن تجمع فقه المذاهب الثمانية، ثم رأت الوزارة بعد ذلك الاقتصار على المذاهب الأربعة.

وفي سنة ١٩٧١م، دعته الجامعة الأردنية ليدرس في كلية الشريعة، المدخل الفقهي العام، وغيره من المواد، وظلَّ يدرس ثمانية عشر عاماً.

لقد تخرجت أجيال على يديه، خلال ثلاثة أرباع قرن من الزمان، نهلت من معينه، واغترفت من بحره، وتعلمت من نهجه، وتأثرت بمشربه، واقتبست من روحه، وسارت في خطه، الذي ينقاد للنقل، ولا يعطل العقل، ويعمل النص، ولا يغفل الواقع، ويستفيد من التراث، ولا يهمل الحاضر، ويوازن بين النص الجزئي والمقصد الكلي.

❑ متى عرفت الشيخ الزرقاء:

عرفت العلاَّمة الشيخ مصطفى الزرقاء أول ما عرفته في صورة له في مجلة (الشهاب) المصرية، التي أصدرها في أواخر حياته الإمام حسن البنا رحمه الله، لينشيء بها ثقافة إسلامية معمقة تخلف مجلة (المنار) التي كان يصدرها العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله.

وكانت المجلة تصدر في آخر كل عدد صفحة أو أكثر، سمَّتْها: سجل التعارف الإسلامي، تشتمل على صور لعدة شخصيات إسلامية من بلاد شتى، ونبذة مركزة عن كل منها، وكان من صور هذا السجل في العدد الأول: صورة للأستاذ الزرقاء، وهو شاب وسيم وقور، يرتدي عمامة بيضاء، وكتبت المجلة عنه: الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقاء من كرام أبناء سورية، ولد سنة ١٣٢٣هـ، وطلب العلم في حلب، وتخرج من كليتها الشرعية، وحصل على الإجازة من كلية الحقوق بالجامعة السورية، وهو

الآن أستاذ الشريعة الإسلامية فيها، وهو باحث قانوني ممتاز، وقد صاغ الفقه الإسلامي بأسلوب عصري، ورتب نظرية الالتزامات في القانون الوضعي في مؤلفه: (الحقوق المدنية)، وله كذلك كتاب: «أحكام الأوقاف» ويدرس الآن في قسم الدكتوراه بجامعة فؤاد الأول، وقد حصل على دبلوم الشريعة الإسلامية بامتياز.

وفي هذا العدد من مجلة (الشهاب) كان للأستاذ الزرقاء مقال بعنوان: العقل العلمي والعقل العامي، كما كتب مقالاً في عدد آخر من أعداد المجلة الخمسة عن العصبية المذهبية.

وقد وجدت فيما كتبه الشيخ الزرقاء حينئذٍ ـ وأنا طالب في المرحلة الثانوية ـ أفكاراً علمية وروحاً تجديدية مع بلاغة وبيان مشرق.

وبعد ذلك قرأت للشيخ الزرقاء بعض مقالات في مجلة (المسلمون) التي كان يصدرها الداعية المعروف الأستاذ سعيد رمضان، مثل مقاله: (العبادة: جوهرها وآفاقها).

كما قرأت للفقيه الضليع، الشهيد عبدالقادر عودة، صاحب كتاب: «التشريع الجنائي الإسلامي» تعريفاً بكتاب الشيخ الزرقاء: «الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد» أثنى فيه ثناءً عاطراً على الكتاب مما شوقني إليه، وشدني للاطلاع عليه.

وعندما أتيح لي الاطلاع على عمل الشيخ الزرقاء، وجدته جديراً بما قال عنه الأستاذ عودة رحمة الله عليهما.

❑ لقاءاتي مع الشيخ الزرقاء:

وأذكر أنَّ أول لقاء لي مع الشيخ الزرقاء كان في مصر، في عهد الوحدة مع سورية، عرفني به الدكتور محمد البهي المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر حينئذٍ، وكنت أعمل معه في ذلك الوقت، وكان الشيخ الزرقاء يشارك مع رفقائه الثلاثة في وضع مناهج كلية الشريعة وكلية أصول الدين في الأزهر، وأعني بهم: شيخ الدعاة الدكتور مصطفى السباعي،

والمفكر المربي الأستاذ محمد المبارك، والمفكر السياسي الدكتور الدواليبي.

وكان كتابي: «الحلال والحرام في الإسلام» قد ظهر في طبعته الأولى سنة **١٩٥٩م**، وكنت أرسلت إليه نسخة هدية مني، فقرأه وسرَّ به، وأثنى عليه، وقال كلمته الشهيرة: إنَّ اقتناء هذا الكتاب واجب على كل أسرة مسلمة.

وفي ذلك الوقت ـ من أربعين سنة ـ والمودة بيني وبين شيخنا موصولة، وكلما ظهر لي شيء من الإنتاج العلمي هش له، ورحب به، وحث طلابه على قراءته، مثل: «فقه الزكاة» وغيره من الكتب.

ولقد التقينا بعْد ذلك في مناسبات مختلفة، وفي بلاد شتى: في الكويت، وفي لبنان، وفي تركية، وفي ليبيا، وفي الأردن، وفي المملكة العربية السعودية، وفي أميركا وأوروبا، وفي غيرها في ندوات ومؤتمرات، وكلما لقيته ازددت منه قرباً، وازددت له حباً، وهو يبادلني الشعور نفسه.

لقد كنا نلتقي في (المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي) في مكة المكرمة، وأنا أشترك معه في عضويته، وفي دورات (مجمع الفقه الإسلامي) في جدة، وهو عضو أساسي فيه، وأنا خبير فيه، وفي المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في عمان، وأنا عضو معه فيه، وفي غير ذلك من المناسبات في أقطار عدة، فكنت أحس أنَّه يفرح بلقائي، كما يفرح الظمآن بالماء العذب، يترقبه ثم يجده، وأشهد أني كنت كذلك إذا رأيته، والأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف.

وقد كان من أدبه وفضله يبعث إلي ببعض الأسئلة في بعض القضايا المهمة التي عرضت عليه، وأجاب فيها، ليعرف رأيي فيها، وهل أقره على إجابته أو لا؟ فهو يطمئن إلى رأيي ويثق به، وهذا تواضع كبير من مثله، وأنا لا أعدو أن أكون من تلاميذه.

وحين جمع أخونا مجد مكي فتاواه لتصدر في كتاب، طلب إليه أن يرسلها إليَّ لأكتب لها مقدمة، والحق أنَّه شرفني بذلك، فما كان مثلي

ليقدم فقيهاً كبيراً في حجم الزرقاء، الذي غدا في هذا العصر فقيه الأمة بحق.

وكان الأخ مجد حفظه الله هو همزة الوصل في المدة الأخيرة بيني وبينه، كما كان ابنه العالم الجليل، والاقتصادي الفقيه، صديقي الحبيب، الدكتور محمد أنس الزرقاء، واسطة بيننا ينقل إليَّ آخر إنجازاته، وآخر تعليقاته فيما يصدر لي.

وكان آخر ما وصلني من الشيخ نسخة من فتاواه أهداها إليَّ بخطه، وطوَّقني بعبارات لا أستحقها، تفضلاً منه، وكان ذلك في ذي الحجة ١٤١٩هـ/ آذار (مارس) ١٩٩٩م.

❑ آثار الأستاذ الزرقاء العلمية:

خلَّف الأستاذ الزرقاء ذكراً حسناً، يملأ الآفاق، وخلَّف تلاميذه في بلدان شتى يشيدون بذكره، ويدعون له، وخلَّف أصدقاء كلهم يكنُّ له أصدق الود، وأعمق الحب.

وخلَّف قبل ذلك كله: آثاراً علمية أصيلة ثمينة، لا تقدر بكنوز الأرض؛ جملة من الكتب النافعة، لا يقدرها قدرها إلاَّ العلماء الراسخون، كلها تنبىء عن فقه مكين، وعلم رصين، ودين متين، وأدب مبين.

من هذه الكتب:

- الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد - وهي سلسلة ذهبية حقاً - صدر منها: المدخل الفقهي العام، وهو دراسة فقهية لا نظير لها فيما صنف السابقون، أو ألف اللاحقون.

- المدخل للنظرية العامة للالتزامات في الفقه الإسلامي، وهو الذي رشح به لجائزة الملك فيصل العالمية، وحصل عليها في عام ١٤٠٤هـ.

- أحكام الأوقاف.

- العقود المسماة في الفقه الإسلامي: عقد البيع.

- عقد الاستصناع وأثره في نشاط البنوك الإسلامية.
- الفعل الضار والضمان فيه.
- صياغة شرعية لنظرية التعسف في استعمال الحق.
- عظمة محمد مجمع العظمات البشرية.
- نظـام التأمين.
- الاستصلاح والمصلحة المرسلة في الفقه الإسلامي.
- في الحديث النبوي.
- الفقه الإسلامي ومدارسه (بتكليف من اليونسكو).
- العقل والفهم في السنَّة النبوية.
- فتاوى مصطفى الزرقاء.

تلك هي الثروة النفيسة من الكتب النافعة المانعة، التي جمعت بين أصالة القديم، ونصاعة الجديد، والتي شرقت وغربت، واستفاد منها القاصي والداني في العالم الإسلامي على امتداده، استفاد منها رجال الفقه، ورجال القانون، ورجال الاقتصاد، ورجال السياسة، ورجال الدعوة.

وحسبي هنا أن أنقل سطوراً مما كتبه القاضي الفقيه الشهيد عبدالقادر عودة عن كتابه: «الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد».

قال: «كان هذا العنوان أمنية فأصبح حقيقة، كان أمنية تهوي إليها النفوس وتهفو إليها القلوب، فأصبح حقيقة ماثلة بين دفتي كتاب يستطيع كل قارىء أن ينالها وأن يستمتع بجمالها.

وقبل هذا الكتاب كان عشاق الفقه الإسلامي يحاولون أن ينالوه فلا يستطيع أن يناله منهم إلاَّ البعض وقليل ما هم، لأنَّ الفقه اعتصم من طالبيه في المتون، وتحصن في الشروح، واستعصى على طلابه في اللغة المغلقة والأسلوب العقيم.

ولقد وقع في يدي كتاب: «المدخل الفقهي العام» فوجدت شيئاً جديداً وعملاً جليلاً؛ فأمَّا أنَّه شيء جديد، فإنَّ الفقه الإسلامي لم يجر رجاله على هذه الطريقة الحديثة التي جرى عليها المؤلف، ولم يأخذوا بذلك التقسيم العصري الذي أخذ به، حيث تؤصل المسائل، وتعرض الكليات، وتبسط النظريات، وتشرح المصطلحات، ثم تستخرج الفروع من أصولها، أو ترد الجزئيات إلى كلياتها، أو تطبق النظريات على موضوعاتها، فيخرج الدارس من دراسته وقد ألمَّ بالكليات والنظريات، وتماسكت في ذهنه المسائل وارتبطت الفروع بالأصول، واستفاد القدرة على حل المشاكل، والتمييز بين المتشابه.

وأمَّا أنَّه عمل جليل فلأنَّه عمل غير مسبوق؛ ولأنَّه يقتضي من صاحبه فهماً وعقلاً وجهداً حتى يصل إلى ما وصل إليه المؤلف من مستوى رفيع، لا يصل إليه عادة إلاَّ النابهون، بعد أن تمهد لهم الطرق ويسبقهم الرواد، فإذا ما وصل المؤلف إلى ما وصل إليه بعد أن شقَّ طريقه في الصخر، وكان الرائد لنفسه ولغيره، فتلك هي العبقرية الفذة، أو هو: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة: ٤].

ولقد ساعد المؤلف على الوصول إلى ما وصل إليه، أنَّه رجل ذو هدف في الحياة، وأنَّه من أصحاب المثل العليا الذين يعملون ويقولون: لوجه الله، فأمده الله جلَّ شأنه بعونه، ورزقه الفهم لدينه وشريعته.

ويلوح أن المؤلف قد عانى من مرارة الاطلاع على كتب الفقه ما عانى، فأخذ على نفسه أن يوطىء الفقه لطلابه، ثم رأى الفقه الإسلامي في ترتيبه وتبويبه، وربط فروعه بأصوله، متأخراً قروناً عن الفقه الحديث، فأخذ على نفسه أن ينقل الفقه الإسلامي عبر هذه القرون الطويلة نقلة واحدة ليلحقه بالفقه الحديث، فوفقه الله إلى ما أراد فوطأ الفقه الإسلامي لكل طالب، ونقله بخطوة واحدة جبارة من العصر العباسي إلى عصرنا الحديث.

فإذا هذا الفقه الغني القوي الذي كان ملتفاً في ثوبه العتيق القديم يخرج على الناس في ثوبه الجديد فتياً مشرقاً، يزاحم الفقه كله بمنكبيه، ويعلن للناس هو الخير كل الخير للناس لو كانوا يعلمون.

والمؤلف الجليل يعلم وهو يقدم على هذا العمل الجليل: أنَّه يقدم على عمل أجل وأعظم من أن يقوم به فرد، وأنَّ هذا العمل يقضي أن تتعاون عليه جهود جماعة من الأساتذة العلماء المطلعين على الفقه الإسلامي، والحقوق الحديثة في مصادرها وأساليبها الأجنبية، ولكن الحاجة الملحة إلى السرعة ومسابقة الزمن قضت بأن يقدم على حمل هذا العبء الثقيل الذي ينوء بالعصبة أولي القوة مستمداً من الله العون.

ولقد أمده الله بعونه فوفقه إلى أن يخرج كتاباً جامعاً لأصول الفقه الإسلامي، والنظريات العامة التي تبنى عليها الأحكام، في لغة قوية تسيل عذوبة ورقة، وفي تنسيق دقيق وترتيب بديع، وربط للفروع بالأصول، وسلسلة منطقية للنظرْيات والأحكام، ولقد كان هذا الكتاب أو الكتب التي تنقص المكتبة الإسلامية، وهو يعد وجوده أول الكتب التي ستبنى عليه النهضة الفقهية الإسلامية، فدارس الفقه الإسلامي في حاجة شديدة إلى هذا الكتاب ليعرف الأسس التي يقوم عليها الفقه، ولترتبط في ذهنه بعض هذه الأسس بالبعض الآخر، ويتوجه بعد ذلك في دراسته توجهاً سليماً.

وأهم ما في الكتاب: أنَّ طلبة كلية الحقوق في العالم الإسلامي يستطيعون أن يقرؤوه، فلا يشعرون أنَّهم يقرؤون شيئاً غريباً عليهم، ولا بعيداً عنهم، بل لعلهم سيجدون في قراءته من اللذة العلمية، والتعمق الفقهي، ودقة التعبير اللغوي والاصطلاحي، ما يجعلهم يفضلونه على غيره من كتب القانون التي تترجم لهم ولا تؤلف، بل لعلهم يجدون فيه من الفن والروح ما لم يجدوه في كتاب آخر.

وقد استطاع المؤلف في سهولة ويسر - بما وهبه الله من قوة الفهم وعمق الفقه - أن يعرض النظريات الإسلامية العامة، كما تعرض النظريات القانونية، وأن يصل كل كلية بفروعها، وأن يستخرج من الفروع كلياتها معتمداً في عمله على المذهب الحنفي، وإن كان يوازن بين حكم الشريعة والقوانين السورية.

ولعلَّ هذا التوفيق الذي لازم المؤلف الجليل الشيخ الزرقاء في إخراج

كتابه يرجع أولاً إلى حسن صلة الشيخ بالله، فما يوفق هذا التوفيق إلاَّ رجل يسدِّد الله خطاه، ويرجع ثانياً إلى ما أفاء الله على الشيخ مصطفى الزرقاء من فضل الجمع بين دراسة الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، وكل ذلك ساعد الشيخ الزرقاء على أن يحلق في هذا الأفق العالي، وأن يقدم للإسلام والمسلمين أجلّ الخدمات بهذا الكتاب القيم.

جزى الله الشيخ عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ونفعنا بعلمه وأمده بالقوة وكتب له التوفيق إنَّه سميع مجيب.

وقال الدكتور يوسف القرضاوي في فصل:

❑ (عطاء إلى آخر لحظة):

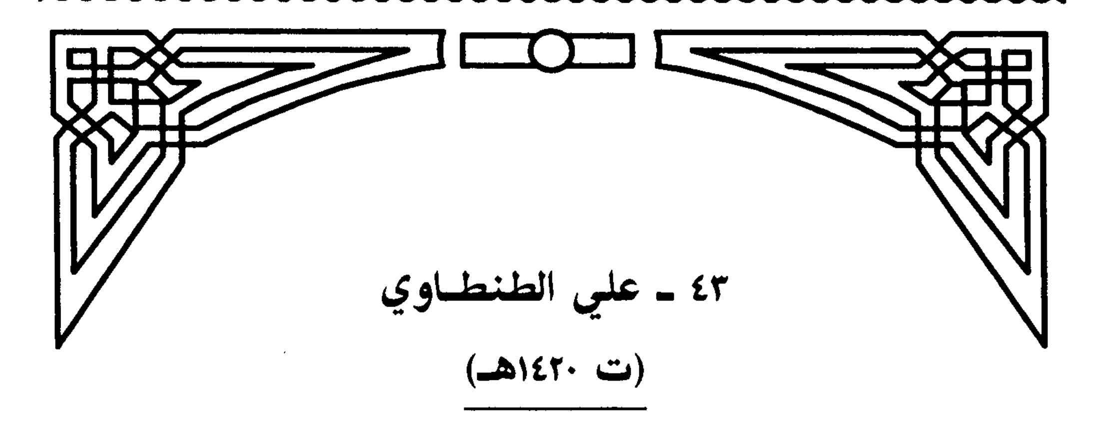
«ولقد ظلَّ الشيخ طوال عمره المديد الميمون معطاء، لم يتوقف عن العمل، ولم تخب شعلته أو تنطفىء شمعته، حتى توفاه الله، وما كان يشكو إلاَّ من وجع المفاصل، وضعف السمع، الذي استعان عليه بسماعة يضعها في أذنيه، أمَّا ذهنه فقد كان حاضراً لم يغب، وأمَّا ذاكرته فظلت قوية لم تضعف، وأمَّا عزيمته فلم تزل صلبة لم تهن.

أخبرني ابننا العزيز النجيب العالم النابه الشيخ مجد مكي: أنَّه قبيل وفاته بقليل، عرضت عليه فتوى من شركة الراجحي للاستثمار ـ وقد كان مستشاراً لها، ومشرفاً على بحوثها في سنواته الأخيرة ـ فنظر فيها ونقحها وراجعها وصاغها الصياغة التي يرضى عنها.

وبقي بعدها ينتظر صلاة العصر، ويسأل عن دخول الوقت، حتى وافاه الأجل، وانتقل إلى رحمة ربه عزَّ وجلَّ».







٤٣ ـ علي الطنطاوي

(ت ١٤٢٠هـ)

ربما اختلف في ضبط مفردة من مفردات اللغة فيقول: هي كذلك فنفتح القاموس المحيط فإذا هي كما قال بقي كذلك حتى آخر يوم

(ترجمته بقلم حفيده مجاهد مأمون ديرانية)[1].

١ ـ أصله وأسرته:

«حيث أنَّ لقب جدي هو: «الطنطاوي»، فإنَّ الذي يتبادر إلى الذهن أنَّ أصله من طنطا في مصر، والأمر ـ بالفعل ـ كذلك، فقد نزح جده منها إلى دمشق سنة **١٢٥٥**هـ، أي: منذ قرن وثلاثة أرباع القرن، برفقة عمه، وكان عمه هذا عالماً أزهرياً حمل علمه معه إلى ديار الشام حيث جدد فيها العناية بالعلوم العقلية ولا سيما الفلك والرياضيات. تحدث عنه جدي في ذكرياته فقال: «هذا الشاب الذي وصل دمشق سنة **١٢٥٥**هـ ولد في طنطا (التي كان اسمها طندتا) وأنا لم أدركه، وكيف؟ وقد مات سنة **١٣٠٦**هـ، أي: قبل أن أولد بإحدى وعشرين سنة؟! ما أدركته ولكن سمعت خبره من شيوخ أسرتي، وممن أدركت من تلاميذه، ومن ترجمته في الكتاب القيّم:

(١) انظر: كتاب «علي الطنطاوي أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء»، وهو كتاب حافل لمن أراد المزيد في معرفة حياة هذا العالم الكبير. وقد أبقيت في هذه الترجمة المختصرة على تعليقات حفيده مجاهد مأمون ديرانية. لأهميتها ونفاستها.

«روض البشر» للشيخ عبدالرزاق البيطار، وفي كتاب: «الحدائق» للشيخ عبدالمجيد الخاني ـ وهما تلميذاه ـ وقد جاء في ترجمته: «هو محمد بن مصطفى، الطنطاوي مولداً، الدمشقي موطناً، الشافعي مذهباً، وكان فقيهاً عالماً بالعربية والفلسفة والعلوم، ومن آثاره البسيط (وهو آلة فلكية) الموضوع في منارة العروس بالجامع الأموي». ومَن نظر في تراجم علماء الشام في القرن الماضي وجد الكثير منهم قد قرأ عليه وقعد بين يديه»[١].

هكذا كان ابتداء أمر أسرة الطنطاوي في الشام، أمَّا جد جدي (الذي جاء من مصر برفقة عمه الشيخ محمد) فهو أحمد بن علي بن مصطفى، وقد كان إمام طابور متقاعداً في الجيش العثماني، وقد وصفه جدي لنا[٢] فعلمنا من وصفه أنَّه كان نظامياً حريصاً على الترتيب، كل شيء في حياته بحساب؛ المنام والقيام والطعام، فكان طعامه ـ مثلاً ـ في الساعة الثامنة الغروبية، «لا يتقدم عنها ولا يتأخر إلاَّ إذا خرجت الأرض عن مدارها أو أسرعت في مسارها أو غابت الشمس قبل حين غيابها. . . وطالما كان يولم الولائم يدعو إليها كبار قادة الجيش أو وجهاء البلد، فإذا بلغت الساعة الثامنة باشر الأكل مع مَن حضر، وإن لم يحضر أحدٌ شرع يأكل وحده!»[٣]. قال علي الطنطاوي: «وقد سكن جدي أولاً مع عمه في داره الكبير وتزوج ابنته، لذلك كان أبي يعرِّف نفسه بأنَّه: «سبط الطنطاوي»؛ أي: ابن بنته»[٤].

هذا هو جد جدي، أمَّا أبوه، الشيخ مصطفى الطنطاوي، فقد كان من العلماء المعدودين في الشام، وانتهت إليه أمانة الفتوى في دمشق. وصفه جدي بأنَّه كان «من صدور الفقهاء ومن الطبقة الأولى من المعلمين والمربين»[٥]، وتحدث عنه فقال: «كنت منذ وعيت أجد ـ إذا أصبحت ـ مشايخ بعمائم ولحى يقرؤون على أبي، وكنت أدخل بالماء أو بالشاي،

(١) الذكريات: ١٣٣/١.
(٢) الحديث عنه في: الذكريات: ١٤٣/١.
(٣) الذكريات: ١٤٣/١.
(٤) الذكريات: ١٤٤/١.
(٥) الذكريات: ١١١/٢؛ وتعريف عام، ص:٥.

فألتقط كلمة لا أفهم معناها ولكن تبقى في نفسي ذكراها، ثم صار أبي يأمرني أن أناوله الجزء الأول من حاشية ابن عابدين، أو الثاني من الفتاوى الهندية، أو جزءاً من القاموس، أو تنقيح الحامدية، فعرفت بعض أسماء الكتب»[١].

وكان الشيخ مصطفى مديراً للمدرسة التجارية التي دَرَس فيها جدي ووصفها قائلاً: إنَّها «كانت مدرسة جامعة، فيها قسم للحضانة، وقسم للابتدائي، وقسم للإعدادي والثانوي، مجموع سنوات الدراسة فيها اثنتا عشرة سنة». وبعدما ترك مديرية المدرسة ولي منصب رئيس ديوان محكمة النقض عام ١٩١٨م إلى أن توفي في عام ١٩٢٥م، (وكان عمر جدي ـ حينذاك ـ ست عشرة سنة وثلاثة أشهر)، وهو «لم يكن معدوداً رسمياً في قضاء المحكمة، بل كان في رأس سلم المساعدين القضائيين ودون مرتبة المستشارين، ولكنهم كانوا يدعونه إلى كل جلسة تُدرس فيها دعوى مدنية لها صلة بالفقه، فكان يشارك في المناقشات، ويؤخَذ رأيه في الآراء، وكان الحكم يصدر حيث يكون رأيه، سمعت ذلك من كثير من أعضاء المحكمة فيما بعد، كما سمعته من رئيسها يومئذٍ وأنا صغير، وكنت تلميذاً في آخر المرحلة الابتدائية»[٢].

وأسرة أمه أيضاً من الأسر العلمية في الشام، كثير من أفرادها من العلماء المعدودين ولهم تراجم في كتب الرجال، (وقد تحدث جدي عن هذا القسم من أسرته بشيء من التفصيل في الجزء الأول من ذكرياته المنشورة، ص٢٠١ وما بعدها). وخاله، أخو أمه، هو محب الدين الخطيب الذي استوطن مصر وأنشأ فيها صحيفتي «الفتح» و«الزهراء» وكان له أثر في الدعوة فيها في مطلع هذا القرن.

٢ ـ نشأته ودراسته:

كان علي الطنطاوي من أوائل الذين جمعوا في الدراسة بين طريقي التلقي على المشايخ والدراسة في المدارس النظامية؛ فقد تعلم في هذه

---

(١) الذكريات: ٧١/١.

(٢) الذكريات: ٣٥/٨.

المدارس إلى أن تخرج في الجامعة، وكان يقرأ معها على المشايخ علوم العربية والعلوم الدينية على الأسلوب القديم، وقد عدَّ من مشايخه الذين قرأ عليهم - في حاشيةٍ طويلةٍ في أول كتابه: «تعريف عام بدين الإسلام» - طائفةً منهم يجاوزون الأربعين.

تلقى دراسته الابتدائية الأولى على العهد العثماني، فكان طالباً في المدرسة التجارية التي كان أبوه مديراً لها إلى سنة ١٩١٨م، ثم في المدرسة السلطانية الثانية، وبعدها في المدرسة الجمقمقية، ثم في مدرسة حكومية أخرى إلى سنة ١٩٢٣م، حين دخل «مكتب عنبر» الذي كان الثانوية الكاملة الوحيدة في دمشق حينذاك، ومنه نال البكالوريا سنة ١٩٢٨م. لقد عاش جدي في هذه المدرسة ستاً من أغنى سني حياته لم ينسَ أثرها ولم تغِبْ عنه ذكراها إلى آخر أيامه، وها هو ذا يقول عنها: «لقد عشت في هذا المكتب ست سنين كانت أحفل سني حياتي بالعواطف وأغناها بالذكريات، وكانت لنفسي كأيام البناء في تاريخ الدار؛ لو عاشت الدار بعدها ألف سنة لكانت كلها تبعاً لهذه الأيام التي يُرسم فيها المخطط وتُحدد الغرف ويُرسى الأساس»[1].

بعد ذلك ذهب إلى مصر ودخل دار العلوم العليا، وكان أولَ طالب من الشام يؤم مصر للدراسة العالية، ولكنه لم يتم السنة الأولى وعاد إلى دمشق في السنة التالية (١٩٢٩م) فدرس الحقوق في جامعتها حتى نال الليسانس سنة ١٩٣٣م. وقد رأى - لمَّا كان في مصر في زيارته تلك لها - لجاناً للطلبة لها مشاركة في العمل الشعبي والنضالي، فلما عاد إلى الشام دعا إلى تأليف لجان على تلك الصورة، فأُلفت لجنةٌ للطلبة سُميت: «اللجنة العليا لطلاب سوريا» وانتُخب رئيساً لها وقادها نحواً من ثلاث سنين، وكانت لجنة الطلبة هذه بمثابة اللجنة التنفيذية للكتلة الوطنية التي كانت تقود النضال ضد الاستعمار الفرنسي للشام، وهي (أي: اللجنة العليا للطلبة) التي كانت تنظم المظاهرات والإضرابات، وهي التي تولت إبطال الانتخابات المزورة سنة ١٩٣١م.

وقد علمتم أنَّ أباه توفي وعمره ست عشرة سنة، فكان عليه أن ينهض

---

(١) في الذكريات حديث طويل عن مكتب عنبر، انظر: ١٠٣/١ - ١٣٠، ١٤٩ - ١٧٤.

بأعباء أسرةٍ فيها أمٌّ وخمسة من الإخوة والأخوات هو أكبرهم، ومن أجل ذلك فكر في ترك الدراسة واتجه إلى التجارة، ولكنَّ الله صرفه عن هذا الطريق وعاد إلى الدراسة ليكمل طريقه فيها؛ «لقد فقدت أبي وأنا في مطلع الشباب، واضطررت إلى أن أكتسب قبل سن الاكتساب، وتعلمت ودرست على ضيق الحال وقلّة الأسباب، وأكرمني الله فعلمني وكفاني، فما أحوجني أن أمدَّ يدي يوماً إلى أحد ممّن خلق الله»[١].

ثم ماتت أمه وهو في الرابعة والعشرين، فكان تلك واحدة من أكبر الصدمات التي تلقاها في حياته، ولقد شهدتُه مراراً يذكرها ويذكر موتها ـ وقد مضى على موتها أكثر من ستين سنة ـ وأشهد ما كان ذلك إلاَّ وفاضت عيناه، وما أحسبه كتب الفصل الذي وصف فيه موتها في ذكرياته[٢] إلاَّ عاش ذلك اليوم بمرارته وآلامه من وراء حجابِ نصفِ قرنٍ من الزمان:

«وجاء اليوم الأسود، وكان يوم أربعاء أذكره تماماً، وكان في الثاني والعشرين من صفر سنة **١٣٥٠هـ**، مرَّ عليه ثلاث وخمسون سنة، ولا تزال ذكراه ماثلة أمام عيني، كأنّه قد كان أمس. . . وذهبنا، وكان أستاذ الجراحة الدكتور نظمي القباني حاضراً، فأدخلها إلى غرفة العمليات رأساً ووقفت أنتظر كما يقف المتهم أمام محكمة الجنايات ليسمع الحكم له بالبراءة أو عليه بالموت، وطال وقوفي، وثقلت الدقائق عليَّ حتى لأحسّ طقطقة الساعة الكبيرة على الجدار فوق رأسي كأنّها مطارق تنزل عليَّ، إلى أن فُتح الباب وخرج الدكتور صبري يقول: لا بدَّ من بتر الساق، فاكتب هنا أنّك موافق، ولم يدع لي وقتاً للتفكير لأنَّ الأمر ـ كما قال ـ: لا يحتمل التأخير، فكتبت، وأخذ الورقة ودخل، ولبثت مثل المشدوه أفكر كيف تدخل بساقين وتخرج بساق واحدة، وكبر عليَّ الأمر، ونسيت أنَّ بعض الشر أهون من بعض وأنَّ الإنسان يتمنى المصيبة إذا واجه ما هو أكبر منها، لقد تمنيت بتر الساق حين فُتح الباب وظهر الدكتور صبري، ينطق وجهه

(١) الذكريات: ٢٦/٨.
(٢) الذكريات: ١٢٤/٢.

قبل أن ينطق لسانه، يخبر أنَّ أمي لن تخرج بساق ولا بساقين، لن تخرج إلاَّ محمولة على الأعناق... لقد ماتت أمي!». هل أقرأ عليكم بقية المشهد؟ لا، بل اقرؤوه أنتم في الجزء الثاني من الذكريات المنشورة، في الصفحة ١٣١، ولكن لا تفعلوا بغير منديل تمسحون به دموعكم التي لن تملكوا لها حبساً ولا رداً.

٣ ـ في الصحافة:

نشر علي الطنطاوي أول مقالة له في جريدة عامة في عام ١٩٢٦م، وكان في السابعة عشرة من عمره؛ ولهذه المقالة قصة طريفة أترككم معها في السطور التالية: «كتبت مقالاً وقرأته على رفيقي أنور العطار، فأشار عليَّ أن أنشره، فاستكبرت ذلك، فما فتىء يزينه لي حتى لنت له، وغدوت على إدارة «المقتبس» فسلمت على الأستاذ أحمد كرد علي ـ رحمه الله ورحم جريدته ـ ودفعت إليه المقال، فنظر فيه فرأى كلاماً مكتهلاً، ونظر في وجهي فرأى فتًى فطيراً، فعجب أن يكون هذا من هذا، وكأنَّه لم يصدقه فاحتال عليَّ حتى امتحنني بشيء أكتبه له زعم أنَّ المطبعة تحتاج إليه فليس يصحُّ تأخيره، فأنشأته له إنشاء مَن يسابق قلمه فكره، فازداد عجبه مني ووعدني بنشرالمقال غداة الغد، فخرجت من حضرته وأنا أتلمس جانبيّ أنظر هل نبت لي أجنحة أطير بها لفرط ما استخفني السرور، ولو أني بويعت بإمارة المؤمنين ما فرحت أكثر من فرحي بهذا الوعد، وسرت بين النَّاس وكأنِّي أمشي فوق رؤوسهم تعالياً وزهواً، وما أحسبني نمت تلك الليلة ساعة، بل لبثت أتقلب على الفراش أتصور أي جنة من جنات عدن سوف أدخل في غداة الغد وأي كنز سأجد، حتى إذا انبثق الصبح وأضحى النهار أخذت الجريدة، فإذا فيها المقال وبين يديه كلمة ثناء لو قيلت للجاحظ لرآها كبيرة عليه...»[١].

بعد هذه المقالة لم ينقطع علي الطنطاوي عن الصحافة أبداً، فعمل بها في كل فترات حياته ونشر في كثير من الصحف؛ شارك في تحرير مجلتي خاله

(١) من حديث النفس، ص:١٤٩.

محب الدين الخطيب: «الفتح»، و«الزهراء»، حين زار مصر سنة **١٩٢٦**م، ولما عاد إلى الشام ـ في السنة التالية ـ عمل في جريدة «فتى العرب» مع الأديب الكبير معروف الأرناؤوط، ثم في «ألِف باء» مع شيخ الصحافة السورية يوسف العيسى، ثم كان مدير تحرير جريدة «الأيام» التي أصدرتها الكتلة الوطنية سنة **١٩٣١**م ورأس تحريرها الأستاذ الكبير عارف النكدي، وله فيها كتابات وطنية كثيرة، وخلال ذلك كان يكتب في: «الناقد» و«الشعب» وسواهما من الصحف. وفي سنة **١٩٣٣**م أنشأ الزيات المجلة الكبرى: «الرسالة»، فكان جدي واحداً من كتّابها واستمرَّ فيها عشرين سنة إلى أن احتجبت سنة **١٩٥٣**م. وكتب ـ بالإضافة إلى كل ذلك ـ سنوات في مجلة «المسلمون»، وفي «الأيام» و«النصر»، وحين جاءِ إلى المملكة نشر في مجلة «الحج» في مكة، وفي جريدة «المدينة»، وأخيراً نشر ذكرياته في «الشرق الأوسط» على مدى نحو من خمس سنين. وله مقالات متناثرة في عشرات من الصحف والمجلات التي كان يعجز ـ هو نفسه ـ عن حصرها وتذكر أسمائها.

وقد بقيت الصحافة أبداً العمل الأثير لديه، قال عنها: «أمَّا من حيث قرب هذه المهنة من نفسي فهي أحب إليَّ من كل مهنة مارستها، ولو خُيِّرت الآن لاخترتها دون سواها، بشرط أن أكون أنا وحدي المشرف على المجلة، وأن أكون حراً لا رأي فوق رأيي ولا مُكرِه لي على نشر ما لا أريده أو طي ما أريده...»[1]. وفي الذكريات المنشورة (الجزء الثاني، الحلقات **٣٥ـ ٣٧**) تفصيل ممتع وأخبار كثيرة طريفة مفيدة عن اشتغاله بالصحافة وعن الذين اشتغل معهم فيها، فمَن شاء فليرجع إليها هناك.

٤ ـ في التعليم:

إذا كانت الصحافة هي المهنة التي أحبها علي الطنطاوي، فإنَّ التعليم هو العمل الذي ملأ حياته كلها، لقد كان يقول عن نفسه: إنَّه أقدم المعلمين في الدنيا أو من أقدمهم، وكيف لا يكون كذلك وهو قد بدأ بالتعليم ولمَّا

---

(١) الذكريات: ٢/٥.

يَزَلْ طالباً في المرحلة الثانوية؟ لقد بدأ بالتدريس في المدارس الأهلية بالشام؛ في الأمينية والجوهرية والكاملية، وهو في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره (في عام **١٣٤٥** هجرية)، وقد طُبعت محاضراته التي ألقاها على طلبة الكلية العلمية الوطنية في دروس الأدب العربي عن «بشار بن برد» في كتاب عام **١٩٣٠**م (أي: حين كان في الحادية والعشرين من العمر).

بعد ذلك صار معلماً ابتدائياً في مدارس الحكومة سنة **١٩٣١**م حين أغلقت السلطات جريدة «الأيام» التي كان يعمل مديراً لتحريرها، وبقي في التعليم الابتدائي إلى سنة **١٩٣٥**، وكانت حياته في تلك الفترة سلسلة من المشكلات بسبب مواقفه الوطنية وجرأته في مقاومة الفرنسيين وأعوانهم في الحكومة، فما زال يُنقل من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية، حتى طوّف بأرجاء سوريا جميعاً؛ من أطراف جبل الشيخ جنوباً إلى دير الزور في أقصى الشمال، ولكنّ شيئاً من ذلك لم يصرفه عن التعليم أو يقعد به عن المضي فيه. اقرؤوا كيف وصف في ذكرياته[1] تنقّله بين المدارس في القرى، في الجبال وفي الحرّات، في أيام القرّ وفي أيام الحرّ، يخوض في الثلوج وينام مع العقارب... صور لو قرأها فتيان اليوم لعجبوا كيف يطيقها إنسان، ولكننا نجده ماضياً بعزيمة وهمّة لا يَني ولا يكِلّ. وهاكم واحدةً من هذه المشاهد العجيبة كما يرويها لنا حين نُقل معلماً إلى قرية رنكوس: «لما نُقلت هذه النقلة كنت في قلب الشتاء، وكنت أستطيع أن أطلب إجازة ولكني لم أقبل الهزيمة، وكانت همة الشباب تملأ جوانحي، فحزمت حقيبتي وركبت إلى صيدنايا، فلما بلغتها وقفت السيارة الكبيرة فيها ونزل منها ركابها، قلت: ولكني أريد الوصول إلى رنكوس، قالوا: مستحيل، قلت: ولِمَ؟ قالوا: الطريق مقطوع قد سدّته الثلوج، قلت لصاحب السيارة: أدفع لك ما تريد فأوصلني، قال: ما عندنا ركاب، فهل تدفع أجر المقاعد كلها؟ قلت: نعم، قالوا: وإن لم نستطع الاستمرار في السير؟ قلت: إن لم تستطيعوا فعودوا والأجرة لكم، وسرنا وسط الثلوج من طريق جبلي خطير،

(١) في آخر الجزء الثاني وأول الثالث.

فلما بلغنا نصفه أو أكثر قليلاً لم يعد بالإمكان أن تتقدم السيارة ذراعاً واحداً، فقلت: عودوا وأنا أمشي، قالوا: كيف تمشي؟ الطريق خطر ولا يخلو من الوحوش، والثلوج كما ترى؟ فأصررت ومشيت، مشيت نحو ساعتين ونصف الساعة، الله وحده يعلم ما قاسيت فيهما، وكان البرد يقص العظم، ووصلت، فسألت: أين المختار؟ فنظروا إليَّ مدهوشين كأنَّهم يرون فيَّ جنياً طلع عليهم، وقالوا: مَن أنت، وكيف جئت؟ قلت: أنا المعلم، وقد جئت ماشياً من نصف طريق صيدنايا، وكانوا رجالاً صلاب العود يقحمون الأهوال، فعجبوا من شاب شامي يبدو في أنظارهم رقيق العود قليل الصمود يفعل ما لا يقدمون على فعله...»[١].

❋ ❋ ❋

«...لقد بدأ جدي التعليم مدرّساً في المدارس الابتدائية في القرى، وقد انطلق إلى هذا العمل مشحوناً بحماسة ندر أن نجد لها مثيلاً لدى معلّم صبيان، ولكن طموحه كان أكبر من تعليم صبيان؛ كان ـ أبداً ـ يريد أن يصبّ ما في رأسه من علم أو في جعبته من إبداع حيث عمل ومع أي أناس اشتغل. ها هو ذا يقول عن عمله مع تلاميذ المدرسة الابتدائية بقرية سلَميَّة التي علَّم فيها سنة **١٩٣٢**م: «وكنت ـ من حماستي، ومما وجدت من ذكاء التلاميذ وحسن استجابتهم ورغبتهم في الاستفادة والتحصيل ـ أريد أن أجعل منهم كتّاباً وخطباء، وجعلت من دروس التاريخ محاضرات وطنية لا مجرد معرفة بأحداث الماضي...»[٢].

ولمَّا نُقل إلى قرية سقبا (من قرى الغوطة، قرب دمشق) في السنة التالية صار مسؤولاً عن مدرسة ابتدائية فيها أكثر من مئةٍ من التلاميذ، قال: «فأحببت أن أكون لهم كما كان أفاضل أساتذتي لي ولرفاقي؛ لا أجعل عملي كله أن آخذ ما في كتبهم المقررة فأحشو به أدمغتهم وأسجله في

(١) الذكريات: ٣/١٢.

(٢) الذكريات: ٢/٢٢١.

ذاكرتهم، حتى يؤدّوه يوم الامتحان كما تسلموه ساعة الدرس ثم يمحى منها فلا يكاد يبقى منه أثر فيها. هذا الذي تريده مني وزارة المعارف وتكافئني عليه وتقنع به مني، ولكن الله يريد أن أراقبه فيهم وأن أدلهم عليه وأرشدهم إلى ما يرضيه منهم وأجعل منهم أعضاء في جسم الأمة سليمة من العلل قائمة بالعمل، لا أعضاء معتلة ولا مشلولة ولا خاملة. حاولت أن أعودهم على أداء العبادات وعلى إقامة الصلاة، وعلى الصدق في القول والجرأة في الحق، أغرس في قلوبهم الخوف من الله وحده وأنزع منها الخوف من عبيده...»[1]؛ «لقد نصحت لهم ولم أدّخر وسعاً في تقويمهم وتربيتهم. لم أكن معلّماً كالمعلمين، بل كنت مرشداً وناصحاً؛ نبهت الإيمان في قلوبهم الصغيرة، وما قلت: إني غرسته لأنَّ الإيمان مغروس في أعماق كل قلب، وعلمتهم الصدق حتى إنَّ أحدهم يعترف بذنب ارتكبه لم يره عند ارتكابه أحد. وكانت وراء المدرسة قطعة أرض كبيرة تابعة لها مهملة فكلفت التلاميذ انتخاب نفر منهم ليفلحوها ويزرعوها وعلمتهم كيف يكون الانتخاب فانتخبوا بإشرافي. بدأت منهجاً علمياً في التربية وفي التعليم، ولكنهم لم يدعوني أتمه... فانهدّ البناء كله لمّا تركته»[2].

بعد ذلك انتقل إلى العراق ـ عام ١٩٣٦م ـ مدرّساً في الثانوية المركزية في بغداد، ثم في ثانويتها الغربية ودار العلوم الشرعية في الأعظمية (التي صارت كلية الشريعة)، ولكن روحه الوثّابة (التي لم يتركها وراء حين قدم العراق)، وجرأته في الحق (ذلك الطبع الذي لم يفارقه قط) فعلا به في العراق ما فعلاه به في الشام، فما لبث أن نُقل مرة بعد مرة، فعلّم في كركوك في أقصى الشمال وفي البصرة في أقصى الجنوب، وقد تركت تلك الفترة في نفسه ذكريات لم ينسَها، وأحب بغداد حتى ألّف فيها كتاباً مما جاء في مقدمة طبعته الثانية التي كتبها عام ١٩٩٠: «كان إخواننا في العراق يقولون لنا: غداً ستنسوننا وتنسون بغداد، وها أنذا ـ بعد

(١) الذكريات: ٢٦٧/٢.

(٢) الذكريات: ١٠/٣.

أكثر من خمسين سنة ـ أتعلل بذكرى العراق، وأثني على العراق؛ ما نسيته، ولا نسيه من إخواننا وأصحابنا الذين كانوا معنا أحد»[(١)]. وكانت تجربته بالتعليم الثانوي هناك مختلفة عن تجربته بالتعليم الابتدائي في الشام أيّما اختلاف، فقد انتقل من تلقين تلاميذ صغار محدودي الإدراك إلى تعليم طلاب كبار يتلهفون للتلقي والتعلّم، فتفجرت قريحته ونثر ذخائر علمه بدون حساب: «أرأيتم الذي يملأ مستودعاته بالبضائع النفيسة والتحف القيمة فلا يجد لها سوقاً إلاّ سوق القرية، ثم تنفتح له الأسواق الكبرى ويُقبل عليه الشّارون ويزدحم عليه الناس؟ كذلك كنت لما ذهبت إلى العراق؛ كل ما حصّلته من المطالعات، وما كدّسته في ذهني من المعلومات، وما اختزنته من أفكار ومشاعر، كان مسدوداً عليه الباب؛ لأنّه لم يكن أمامي في الشام إلاّ تلاميذ الابتدائية الذي لا يصلح هذا لهم ولا يصلحون ليُلقى عليهم؛ فلمّا جئت بغداد ووجدت طلاباً مدركين يحبون أن يتعلموا ويستطيعون أن يعوا ويفهموا انطلقت نفسي وأخرجت ما كان فيها، فجئت بأشياء لا يجوز لي أنا أن أتحدث عنها (لأنّ المرء لا يمدح نفسه) فاسألوا عنها مَن بقي من تلاميذي في تلك الأيام»[(٢)].

بقي علي الطنطاوي يدرّس في العراق حتى عام **١٩٣٩**م، لم ينقطع عنه غير سنة واحدة أمضاها في بيروت مدرّساً في الكلية الشرعية فيها عام **١٩٣٧**م.

ثم رجع إلى دمشق فعُيّن أستاذاً معاوناً في مكتب عنبر (الذي صار يُدعى مدرسة التجهيز، وهي الثانوية الرسمية حينئذٍ بالشام)، ولكنه لم يكفّ عنه «شغبه» ومواقفه التي تسبب له المتاعب، وكان واحدٌ من هذه المواقف في احتفالٍ أُقيم بذكرى المولد، فما لبث أن جاء الأمر بنقله إلى دير الزور! وهكذا صار معلماً في الدير سنة **١٩٤٠**م، وكان يمكن أن تمضي الأمور

---

(١) بغداد: مشاهدات وذكريات، ص: ١٥.

(٢) الذكريات: ٢٩٣/٣، وفي آخر هذا الجزء وأول الذي يليه تفصيل عن الدروس التي كان يلقيها على الطلاب هناك.

على ذلك لولا أنَّ الشيخ مضى في سنَّته ومنهجه في الجرأة والجهر بالحق: «وجاءت عطلة نصف السنة، فقلت: أقضيها في الشام (أي: في دمشق)؛ فأعددت عدة السفر ووضعنا أمتعتنا في السيارة وهممنا بالمسير، ثم رأينا بأنَّه لم يبقَ لموعد الصلاة إلاَّ قليل ـ وكان اليوم يوم جمعة ـ فاقترحنا أن تقف السيارة بباب المسجد فنصلي ثم نمتطيها ونتوكل على الله، فلما دخلت المسجد جاءني الشيخ حسين السراج ـ رحمه الله ـ فقال: إنَّ القوم يطلبون أن تلقي فيهم خطبة قبل أن تسافر. وكانت باريس قد سقطت في أيدي الألمان والاضطرابات قد عادت إلى الشام، فقلت له: أنت تعلم يا شيخ حسين أنني كالقنبلة التي لا يمسكها أن تنطلق إلاَّ مسمار صغير، وأخاف أن تطغى بي الحماسة فأقولِ ما لا يناسب المقام، فإلى أي مدى يسمح لي الموقف بالكلام؟ فضحك وقال: قل ما تشاء؛ فالمجال أمامك فسيح، فألقيت خطبة من تلك الخطب النارية التي كان لها الأثر الكبير في نفوس الناس، لا أذكر منها إلاَّ جملة واحدة قلت فيها: «لا تخافوا الفرنسيين فإنَّ أفئدتهم هواء، وبطولتهم ادعاء؛ إنَّ نارهم لا تحرق ورصاصهم لا يقتل، ولو كان فيهم خير ما وطئت عاصمتَهم نعالُ الألمان»، وكنت أحسب أنَّ النَّاس في الدير مثل إخوانهم في دمشق يخرجون بالمظاهرات يصيحون فيها ويهتفون، ولم أكن أعلم أنَّهم مثل أهل بغداد؛ مظاهراتهم إعصار فيه نار، وزلازل تدمر، وبراكين تنفجر. خرج النَّاس من المسجد يريدون أن يصلوا إلى الفرنسيين فيحطموهم، وجاءت الشرطة والجند ليمسكوا بي لأنَّ المستشار (الكولونيل العسكري) أمر بالقبض عليَّ، ولكن هذه الأمواج من النَّاس الثائرين حالوا بيني وبينهم فقنعوا من الغنيمة بالإياب...

وبعد أيام من وصولي دمشق استدعاني وزير المعارف، ودخلت عليه فاستقبلني مرحّباً وآنسني بالكلام، ثم قال لي: كأنَّ هواء دير الزور لم يوافقك، فهل تحب أن تستريح أياماً؟ فقلت في نفسي: أتجاهل لأعرف ما الذي يريده، فقلت: لا، إنَّ هواء دير الزور وافقني جداً وصحتي بحمد الله صحة حسنة، قال: أرى أن تستريح أياماً بعد هذا السفر الطويل، قلت: لا يا سيدي؛ لا أحتاج إلى راحة وسأرجع في نهاية العطلة النصفية، فقال وقد

نزع عن وجهه القناع: بلا كلام فارغ... ما بدهم إياك (أي: أنَّ المستشار الفرنسي[١] يرفض عودتي إلى الدير، فكان ذلك خيراً أراده الله لي)، قلت: كيف أبقى هنا بلا عمل؟ قال: نمنحك إجازة مرضية، قلت: ولكني لست مريضاً، فضحك وقال: سنختار لك مرضاً ترضاه!»[٢].

في عام ١٩٦٣م قدم جدي إلى الرياض مدرّساً في «الكليات والمعاهد»، (وكان هذا هو الاسم الذي يُطلَق على كلِّيَتي الشريعة واللغة العربية، وقد صارت ـ من بعد ـ جامعة الإمام محمد بن سعود)، وفي نهاية السنة عاد إلى دمشق (لإجراء عملية جراحية بسبب حصوة في الكلية) عازماً ألاَّ يعود إلى المملكة في السنة التالية، إلاَّ أنَّ عرضاً بالانتقال إلى مكة للتدريس فيها حمله عَلى التراجع عن هذا القرار.

وهكذا انتقل علي الطنطاوي إلى مكة ليمضي فيها (وفي جدة) خمساً وثلاثين سنة، فأقام في أجياد مجاوراً للحرم إحدى وعشرين سنة (من عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٨٥م)، ثم انتقل إلى العزيزية (في طرف مكة من جهة منى) فسكنها سبع سنوات، ثم إلى جدة فأقام فيها حتى وفاته ـ يرحمه الله ـ في عام ١٩٩٩م.

بدأ جدي هذه المرحلة الجديدة من حياته بالتدريس في كلية التربية بمكة، ثم لم يلبث أن كُلِّف بتنفيذ برنامج للتوعية الإسلامية، فترك الكلية وراح يطوف على الجامعات والمعاهد والمدارس في أنحاء المملكة لإلقاء الدروس والمحاضرات، وتفرَّغَ للفتوى يجيب عن أسئلة وفتاوى النَّاس في الحرم ـ في مجلسٍ له هناك ـ أو في بيته ساعات كل يوم، ثم بدأ برنامجيه: «مسائل مشكلات» (في الإذاعة)، و«نور وهداية» (في الرائي)[٣]،

(١) وكان هو الوزير الفعلي كما نقرأ في مواضع أخرى من الذكريات، أمّا الوزير الرسمي فصورة بلا فعل ومنصب بلا سلطان.

(٢) الذكريات: ١٥٩/٤.

(٣) بدأ هذا البرنامج نحو عام ١٩٦٧، وكان له ـ قبله ـ برنامجٌ عنوانه: «صور من أمجادنا».

اللذين قُدر لهما أن يكونا أطول البرامج عمراً في تاريخ إذاعة المملكة ورائيها.

هذه السنوات الخمس والثلاثون كانت حافلة بالعطاء الفكري للشيخ، ولا سيما في برنامجيه اللذين استقطبا ـ على مرّ السنين ـ ملايين المستمعين والمشاهدين وتعلّقَ بهما النَّاس على اختلاف ميولهم وأعمارهم وأجناسهم وجنسياتهم، ولم يكن ذلك بالأمر الغريب؛ فلقد كان علي الطنطاوي من أقدم مذيعي العالم العربي، بل لعله من أقدم مذيعي العالم كله؛ فقد بدأ يذيع من إذاعة الشرق الأدنى من يافا من أوائل الثلاثينيات، وأذاع من إذاعة بغداد سنة **١٩٣٧**م، ومن إذاعة دمشق من سنة **١٩٤٢**م لأكثر من عقدين متصلين، وأخيراً من إذاعة المملكة ورائيها نحواً من ربع قرن متصل من الزمان.

هذا العمل ملأ عليه وقته كله خلال تلك السنوات، وقد عشت معه ـ عليه رحمة الله ـ بعضاً من تلك الأيام ما زلت أسترجع ذكراها إلى اليوم. لقد جئت إلى المملكة في مطلع عام **١٩٧٧**م لدراسة الهندسة في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، وكنت أمضي في نهاية كل أسبوع يومين أو ثلاثة أيام في بيته بمكة فأراه كيف يصنع، كان يُمضي كلَّ يوم ساعاتٍ عاكفاً على أسئلة المستمعين والمشاهدين قراءةً وفرزاً ليختار منها ما يصلح للإجابة؛ وما كان يسعه أن يجيب عن كل سؤال يأتيه لأنَّه كان يستلم من الأسئلة في كل أسبوع مئاتٍ (حقيقة لا مجازاً) ووقتُ البرنامجين لا يكاد يتّسع لغير عشرٍ منها أو عشرين، ثم كان يراجع المسائل في أمهات الكتب ويضع تعليقاتٍ على الأسئلة بخطه في بعض الأحيان، وكان ـ فوق ذلك ـ يتفرغ للإجابة عن أسئلة المستفتين بالهاتف بين العصر والمغرب كل يوم. ولطالما أعلن في الإذاعة والرائي أنَّ ذلك هو الوقت الذي يتلقى فيه الأسئلة ولكنَّ الهاتف كان يرنّ في كل ساعة من ليل أو نهار! فإذا جاء المغرب كان ينطلق إلى الحرم فيجلس في موضعٍ له هناك لا يفارقه بين العشاءين فيأتيه من النَّاس مَن شاء ويسأله مَن شاء، فكان ذلك مجلساً مفتوحاً للعلم والفتوى، فإذا عاد من الحرم بعد العشاء فلا يستقبل أحداً (كما أنَّه لا يستقبل أحداً قبل العصر) ويعود إلى قراءته ومراجعاته وشؤون أهل بيته.

هكذا أمضى جدي تلك السنوات، حتى إذا جاوز الثمانين بدأ جسمه (الذي حمله في مسيرة حياته الطويلة الحافلة) بالتعب، وما عاد يقوى على العمل، فآثر ترك الإذاعة والرائي.

وكان ـ قبل ذلك ـ قد لبث نحو خمس سنين ينشر ذكرياته في الصحف؛ حلقةً كل يوم خميس، فلما صار كذلك وقَفَ نشرَها (وكان قد قاربت مئتين وخمسين حلقة) وودّع القرّاء فقال: «لقد عزمت على أن أطوي أوراقي، وأمسح قلمي، وآوي إلى عزلة فكريَّة كالعزلة الماديَّة التي أعيشها من سنين، فلا أكاد أخرج من بيتي، ولا أكاد ألقى أحداً من رفاقي وصحبي»[1].

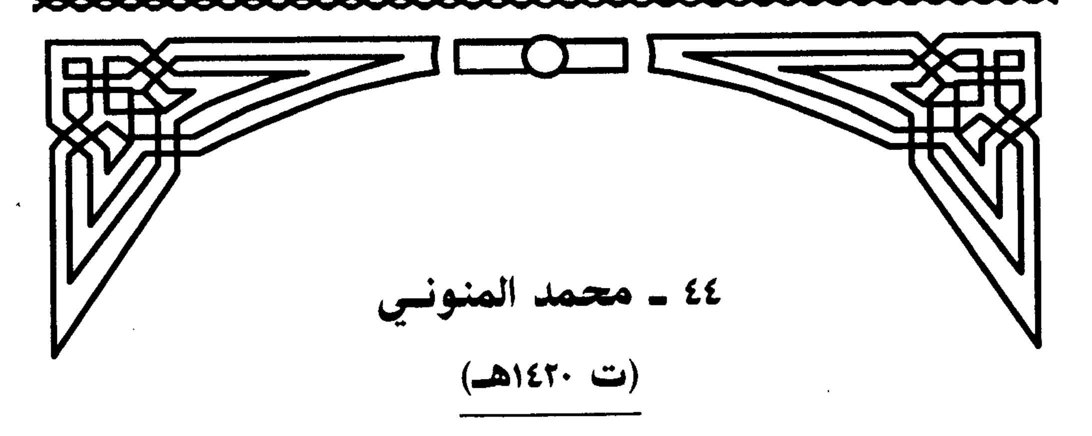
ثم أغلق عليه باب بيته واعتزل النَّاس إلاَّ قليلاً من المقربين يأتونه في معظم الليالي زائرين، فصار ذلك له مجلساً يطل من خلاله على الدنيا، وصار منتدًى أدبياً وعلمياً تُبحث فيه مسائل العلم والفقه واللغة والأدب والتاريخ. وبات الشيخ ـ في آخر أيامه ـ ينسى بعضاً من شؤون يومه؛ فربما صلَّى الفريضة مرتين يخشى أن يكون نسيها، وربما نسي ما كان في اليوم الذي مضى، ولكنَّ الله أكرمه فحفظ عليه توقد ذهنه ووعاء ذاكرته حتى آخر يوم في حياته، لقد صار أخيراً يتورع عن الفتوى مخافة الزلل والنسيان...».

وكان قبيل وفاته تفتح بين يديه القصيدة لم يرها من عشر سنين أو عشرين فيُتم أبياتَها ويُبين غامضَها، ويُذكَر العلَم فيُترجم له، وربما اختلف في ضبط مفردة من مفردات اللغة أو في معناها فيقول: هي كذلك، فنفتح القاموس المحيط (وهو إلى جواره بقي كذلك حتى آخر يوم) فإذا هي كما قال.

رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) الذكريات: ٣٤٠/٨



٤٤ ـ محمد المنوني

(ت ١٤٢٠هـ)

مات وهو يدون رحلته الحجازية

ترجم العلاَّمة محمد المنوني لنفسه فقال[١]:

«اسمي: محمد بن عبدالهادي بن محمد المنوني.

ووالدتي: السيدة مليكة بنت محمد بن محمد بن محمد النسب.

وبلدتي: هي مدينة مكناس؛ مقر عائلتي مدة تزيد على ستة قرون.

وبها كانت ولادتي في الدار رقم: ٤ بالزنقة التي تحمل اسم: «الدرب الضيق» من حي حمام الجديد، ووجدت بخط والدي ـ تغمَّده الله برحمته ـ أنَّ ازديادي كان عند الساعة الرابعة ـ بالتوقيت المحلي ـ بعد فجر يوم السبت ٢٤ شوال عام ١٣٣٣هـ (٤ شتنبرِ ١٩١٥م).

وفي يوم عاشر محرم ١٣٣٨هـ/٥ أكتوبر ١٩١٩م، أدخلني والدي ـ طيَّب الله ثراه ـ إلى الكتّاب الذي كان مقره نفس جامع الحجاج قبالة باب الجنائز من الجامع الكبير بحي حمام الجديد، وأستاذه من المبرزين في حفظ القرآن العزيز، ويتقن قراءة البصري، وهو السيد عبدالسلام بن

---

(١) انظر: ترجمته بتوسع في كتاب: «العلاَّمة محمد بن عبد الهادي المنوني» جمع الشيخ محمد بن عبدالله آل رشيد.

الهاشمي الفيلالي، المتوفَّى - بنفس البلدة - ليلة الثلاثاء ١٨ شعبان ١٣٨٢هـ/١٥ يناير ١٩٦٣م، ودفن - من غده - بصحن ضريح أبي حفص عمرو الحصيني في حي «سيدي عمرو» تغمَّده الله برحمته.

تعلمت على هذا الأستاذ مبادىء الكتابة والقراءة، بدءاً من سورة الفاتحة إلى سورة القيامة أو نحوها، على طريقة الترقي من الفاتحة إلى سورة النَّاس إلى الفلق... حسب الاصطلاح الذي كان جارياً في التعليم القرآني بالكتاتيب.

ثم نقلني والدي - رحمة الله تعالى عليه - إلى الكتّاب الواقع في زنقة «تيبربارين» في نفس مسجد هذه الجهة قبل إصلاحه، وأستاذه هو المتقن لحفظ القرآن الكريم مع جودة الخط: السيد أحمد بن محمد بن مسعود الملقب بالعظمي، المتوفَّى في شهر ذي الحجة، عام ١٣٤٦هـ/ جوان ١٩٢٨م، رحمه الله رحمةً واسعةً.

وعلى هذا الأستاذ أتممت تعلم القراءة والكتابة، وقرأت عليه من السورة التي انتهيت إليها بالكتاب حتى سورة «طه»، فاستقام خطي، وأخذت أكتب في لوحي - يومياً - قرابة ثمن الحزب.

إلى أن نقلني والدي - رحمه الله - إلى كتّاب مسجد «درب صدارته» من حي عقبة الزيادي، وأستاذه هو البارع في حفظ القرآن الكريم وتحفيظه، المتقن لقراءة «أبي عامر» الخطاط المجيد السيد محمد بن سمية بن الطيب القباب الأندلسي الأصل، والمتوفَّى ليلة يوم الثلاثاء ٢٥ محرم عام ١٣٦٥هـ/ ٣٠ دجنبر ١٩٤٥م، طيَّب الله ثراه.

وقد أخذني هذا الأستاذ بكتابة ثمن الحزب في لوحي يومياً، وبعد ما مررت بالقرآن كله صرت - في الدورة الثانية - أكتب ربع الحزب ثم نصفه في الدورة الثالثة.

وكان له اهتمام زائد بالتحفيظ، وشدة بالغة على مَن لم يستظهر الحصة اللازمة، إلى احتياط مع المتعلمين في حالة الاستظهار فيستملي كل تلميذ محفوظه على حدة: تارةً في العشي، وحيناً في الصباح، وقد يكرر

العملية في الوقتين معاً ويُشدِّد العقوبة على مَن تلعثم أو تعثر، وبالأحرى إذا لم يحفظ بالمرة، وكان هذا من أسباب تفوق هذا الأستاذ، ووفرة حفاظ القرآن الكريم المتخرجين على يده.

وممَّا أعانه على ذلك انقطاعه للكتّاب الانقطاع التام، فيأتيه من الصباح الباكر وبه يتناول غذاءه، ولا يخرج منه إلاَّ مقدار ما يصلي إماماً ـ نائباً ـ في «جامع الزيتونة» القريب من الكتّاب، ثم يعود ويستمر إلى الغروب، وقليلاً ما كان يتغيب بعد الظهر، إذا ذهب للمشاركة في حفلة «حذقة قرآنية» عند أحد الأساتذة الآخرين، وفي هذه الحالة يستخلف من كبار التلاميذ مَن قد يفوقه في الحرص على أخذ الآخرين بالقراءة والحفظ دون هوادة.

قرأت على هذا الأستاذ القرآن الكريم من سورة «طه»، إلى أن حفظته عليه، وأتقنت قراءته ورسمه برواية «ورش» في ثلاثة دورات، أتممت آخرتها صدر عام ١٣٤٧هـ /١٩٢٨م.

ولمَّا شذوت في الكتّاب، صار والدي ـ تغمَّده الله برحمته ـ يأخذني بحفظ المتون العلمية أيام الأربعاء والخميس وعطل الأعياد، فبدأت ـ بالمنزل ـ في كتابة: «المرشد المعين» لابن عاشر ـ في اللوح ـ إلى أن حفظته، وسرت على هذه الخطة في «الألفية» لابن مالك إلى أن حفظتها، ثم قفيت عليها بجملة متون صغرى ومتوسطة وكبرى، وفيها «الجمل» للمجرادي، و«السلم» للأخضري، و«الاستعارة» للشيخ الطيب ابن كيران، و«المقدمة الصغرى» للسنوسي، وبعض «الأرجوزة العاصمية» و«اللامية الزقاقية»، وأخيراً «المختصر الخليلي» حيث استظهرت منه خمسة أحزاب.

وكان والدي ـ تغمَّده الله برحمته ـ يهتم بتحفيظي تلك المتون اهتماماً زائداً ويحملني على ذلك بالترهيب والترغيب.

وفي أخريات أيامي بالكتّاب بدأت أحضر بعض الدروس في أوقات فراغي، واقتصرت ـ في هذه المرحلة ـ على درسين في الأسبوع كانا بواكر دراستي . . .

ثم قال: «ولا أنسى هنا أن أذكر مجهود والدي عبدالهادي محمد بن

الحسين ـ أسبغ الله عليه رحمته ورضوانه ـ في تربيتي وتثقيفي، فطالما أفادني إفادات علمية في مجالس خاصة وفي شتى المناسبات، حتى عند معاشرته في الطريق، وعند مرافقته في الأسفار.

وكان له اهتمام خاص بتقويم لساني حين القراءة، وبتعديل يدي في الكتابة ونطقها وشكلها وتجويدها، فضلاً عن عمله لتمريني في الدروس التي أتلقاها من الأساتذة.

وأكثر من هذا إلزامي بحفظ المتون الدراسية لما شذوت في الكتّاب. وكانت العطلة الأسبوعية للكتاتيب تبتدئ من النصف الثاني من أربعاء كل أسبوع، وتستمر يوم الخميس مع النصف الأول من يوم الجمعة، فكان في هذه الأيام وفي عطل الأعياد يأخذني بكتابة حصة أسبوعية في اللوح واستظهارها، بدءاً من «أرجوزة المرشد المعين» لابن عاشر إلى أن حفظتها، ثم سرت على هذه الخطة في «ألفية ابن مالك»، ومتون دراسية صغرى حتى ينتهي بي المطاف إلى «المختصر الخليلي»، فحفظت منه خمسة أحزاب، فضلاً عن استظهار «اللامية الزقاقية» وبعض من «تحفة ابن عاصم». . .

وقد كان المترجم مستحضراً لسير الذين عايشهم، مطلعاً على أخبار الماضين التي قرأها في الكتب، فيطرز مجالسه بالطرائف والنوادر في أسلوب تربوي مرح، ونفس طويل يستغرق ـ أحياناً ـ في عروضه على الأسرة، حيث أكون بين يديه أعي ما يقول، مما عاد عليَّ بالفائدة الجلى في مستقبلي.

وفي الليالي الطوال كان يقرأ علينا كتباً منوعة في الأحاديث والأخبار، فكان لمجموعها أثر في غرس الأخلاق الفاضلة في نفسي، كما كان لها أثر في تطلعي لأخبار الماضين من صغري.

ومن عمله في تربيتي: مصاحبتي معه للمجالس العلمية التي كان يحضرها بالجامع الكبير بين العشاءين، فيذهب بي وأنا ابن نحو سبع سنين

إلى مجلس قاضي مكناس المولى أحمد بن المأمون البلغيثي: بين بابي العدول قبالة الصحن من نفس الجامع.

ثم أحضر معه إلى مجلس القاضي الذي خلف سلفه الشيخ محمد بن محمد بن أحمد البركة زويتن المتوفَّى عام **١٣٧٠**هـ، وكان يدرِّس «الرسالة القيروانية» في الصف الأول يسرة الداخل من باب الجنائز أسفل النافذة الكبرى هناك.

وبعد ذلك أرافقه إلى مجلس القاضي بعد سلفه في ولايته الأولى: الشيخ محمد بن أحمد بن الشريف العلوي الإسماعيلي، المتوفَّى عام **١٣٦٧**هـ /**١٩٤٧**م، وكان يجلس في نفس الصف يسرة المستقبل للمحراب، مستنداً إلى خزانة المصاحف، ويقرأ «صحيح البخاري».

وإلى الزاوية الكتانية أذهب معه عشية كل جمعة، حيث تجتمع زمرة من المريدين على مقدمتهم الفقيه الهين اللين أحد تلاميذ الفقيه گنون الكبير: الحاج محمد ابن الحاج قاسم الصائغ، المتوفَّى أوائل عام **١٣٥٣**هـ/ **١٩٣٤**م، وكان يحلل للحاضرين بعضاً من الكتب العلمية والأخلاقية، ومنها: «مختصر صحيح مسلم» لابن جزي، ثم «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» لجمال الدين القاسمي، ويتدخل في التحليل ـ أحياناً ـ الفقيه الزنطار: مولاي محمد بن عمر العلوي الأمراني، المتوفَّى في ربيع النبوي عام **١٣٥٥**هـ /**١٩٣٦**م.

ومرة في منزلنا ـ أواخر حياة الوالد ـ كانت مناسبة حضر إليها جمع كبير من الفضلاء، وكان بينهم العالم المجاهد: مولاي عبدالسلام بن الفضيل العلوي الإسماعيلي المتوفَّى عام **١٣٦٨**هـ، فأخذ في سرد باب من كتاب: «العهود المحمدية» للشعراني ثم يملي عليها إملاءات رأيت فيها ما لم أعهده في محافل الوعظ والتذكير: طلاقة لسان، ووضوح بيان، وقوة حال، ينتزع الاستشهادات تلو الاستشهادات من القرآن والحديث مرات ومرات، كأنَّها على طرف لسانه.

وللزاوية الكتانية أيضاً أذهب معه ـ أحياناً ـ لسماع قراءة «صحيح

البخاري»، وكان ميعاد سرده رجب وتالييه، ويتولى قراءته والمذاكرة حول ثلاثة شيوخ: بدءاً من العلامة الجليل طيب النغمة أبي علي الحسن بن اليزيد العلوي المحمدي، المتوفَّى بتاريخ ١٢ رجب عام ١٣٧١هـ /١٩٥٢م.

ويقفي إثره الأستاذ العشري الذي كان صوته مزماراً من مزامير آل داود: محمد بن أحمد الحميدي، المتوفَّى في ذي القعدة عام ١٣٦٤هـ ١٩٤٥م، وأقبر بضريح سيدي زگّار، وبعد يسرد - في نوبته - مقدم الزاوية الفقيه الحاج محمد ابن الحاج قاسم الصائغ آنف الذكر.

ومن الرحلات - معه - التي أفدت منها: رحلتي الأولى لفاس عام ١٣٤٥هـ /١٩٢٦م، وكان ممن لقيته خلالها السيد الصالح مولاي عبدالرحمٰن الدرقاوي فقدمني له، ودعا لي بخير.

وفي عام ١٣٤٨هـ /١٩٢٩م كانت رحلتي الأولى برفقته إلى الرباط، وفيها رأيت مفتي مراكش مولاي علي العدلوني ودعا لي - بدوره - بكل خير.

ومن تتمة أخبار المترجم أنَّه كان يشارك في الفقه وأصوله، والعقائد والتصوف والنحو والتصريف، ومبادىء الحساب التي لقنني إياها، كما كان يقرض الشعر، ويخالط التاريخ.

وقرأ على أعلام بلده، المفضلين ابن عزوز والسوسي، ومحمد القصري، ومحمد بن العربي حمود، ومولاي لحسن بن الشريف بن المهدي العلوي الإسماعيلي، والقاضي محمد بن عبدالسلام الطاهري ومحمد بن الحسين العرائشي، والقاضي محمد بن أحمد السوسي، وخاله موقت مكناس محمد السعيد المنوني، وقاضي أحواز مكناس أحمد ابن الحاج يوسف بن أبي بكر بن يوسف الناصري.

وأخذ التصوف عن الشيخ عبدالكبير الكتاني، وولده الشيخ أبي الفيض الذي انتسب لطريقته، وصار آخر عمره مقدمها.

وكان مولده بمكناس عام ١٢٩٤هـ، وبها كانت وفاته عند الساعة

السابعة وخمس وأربعين دقيقة بالتوقيت المحلي، ضحوة يوم الإثنين ٢١ جمادى الآخرة **١٣٥٣**هـ/١ أكتوبر **١٩٣٤**م.

استمرت دراستي بمكناس إلى أواسط عام **١٣٥٧**هـ /١٩٣٨م، وفي نفس العام كانت رحلتي لمتابعة الدراسة بفاس عند أواخر شهري جمادى الآخرة ـ غشت، وهي الفترة التي تستأنف فيها القراءة بكلية القرويين بعد انتهاء العطلة السنوية، وكانت ـ آنذاك ـ لا تتجاوز أربعين يوماً توازي أيام السمائم، مع إضافة استراحة كامل شهر رمضان، ولم تتقرر عطلة ثلاثة أشهر إلاَّ عند عام **١٣٦١**هـ /١٩٤٢م. وعند دخولي للقرويين كان الطلبة الراحلون لا يزالون أحراراً في الانخراط بالدراسة النظامية، أو يحضرون بالدروس التي يتخيرونها؛ مع استفادتهم من السكنى والجراية بالمدارس الأربع المخصصة لهم؛ وهي: مدرسة الشراطين، والمدرسة المصباحية، ومدرسة الأندلس، والمدرسة العنانية، ثم أثيرت مسألة تعميم الانخراط في الدراسة النظامية، فعارضها الطلبة الأحرار بشدة، وتطورت الحالة إلى أن أخرجوا من مدارس سكناهم بالقوة؛ ونقلوا إلى محكمة الباشا بالبطحاء، ومنها أخذوا إلى سيارات كبرى أرجعت كل فريق إلى جهته الأصلية، وذلك أواخر صفر **١٣٥٩**هـ /١٩٤٠م، وكان عدد هؤلاء المنفيين كثيراً جداً، وبينهم أعداد بارعون في فقه الأحوال الشخصية، وقد أثار هذا التصرف استياءً في داخل المغرب، وفي الخارج نددت به إذاعة برلين.

وفي تاريخ دخولي للقرويين كان مجلسها التحسيني: (إدارة الكلية) يتركب من خمسة مشايخ، رئيس: هو شيخ الجماعة مولاي عبدالله الفضيلي، ومعه عضوان: محمد بن الطيب البدراوي، ومولاي الشريف الموماني التكناوتي، ثم مراقب الدروس العربي بن أحمد الحريشي، وخامساً كاتب المجلس: محمد الزمزمي ابن الشيخ محمد بن جعفر الكتاني.

وفي أواخر ذي القعدة ١٣٥٨هـ/ يناير **١٩٤٠**م، أعفي كل من الرئيس والمراقب، وخلفهما الشيخ مولاي مبارك عبدالله العلوي الأمراني رئيساً،

والفقيه أحمد بوستة مراقباً للدروس، والاثنان ـ معاً ـ من كلية ابن يوسف بمراكش، حيث كان الأول: رئيساً، والثاني: مراقباً بها، وكان حلولهما بالقرويين يوم الأحد ٤ ذي الحجة ١٣٥٨هـ /١٥ يناير ١٩٤٠م.

وفي شوال ١٣٦١هـ/ نونبر ١٩٤٢م، أعفي المجلس التحسيني بكامله، ولم يبقَ قاراً به سوى كاتبه الشيخ محمد الزمزمي الكتاني، وألف ـ من جديد ـ هكذا: الشيخ مولاي عبدالله الفضيلي رئيساً، والأستاذ ابن عبدالواحد الفاسي خليفة له وعضو يحمل لقب مدير كلية القرويين، والشيخان: أحمد بن عبدالله الشبيهي، والعربي بن أحمد الحريشي عضوان، والشيخان: محمد بن عبدالسلام الطاهري مراقب فني على الأساتذة، والحبيب بن أحمد بن محمد المهاجي مراقب الدروس.

هؤلاء وسابقوهم هم الذين تعاقبوا على إدارة القرويين مدة الخمس سنوات التي قضيتها بهذه الكلية، فكان استعراضهم واقعاً ملحاً لمعرفة الأرضية التي عايشتها أيام مجاورتي بهذه المؤسسة، ومرة أخرى، كان هذا هو الحافز للإشارة إلى واقع الطلبة وبعض أنظمة الكلية.

أول ما حللت بفاس صارت سكناي في مدرسة الصفارين بالحجرة رقم: ٢٩ من الطابق الثاني، وكانت لا تزال في وضع بنايتها المرينية، غير أنَّها كانت على وشك هدمها وإعادة بنائها في شكلها الحالي، فلذلك، لم أستمر بها سوى مدة يسيرة، ونقلت منها إلى مدرسة السبعيين جوار جامع الأندلس، وذلك أول ما فتحت للطلاب بعد إعادة إصلاحها، وكان الذي اختار موضع سكناي بها هو رئيس الكلية المرحوم مولاي عبدالله الفضيلي، وهو حاضر ـ إذ ذاك ـ بالمدرسة، فناولني مفتاح الحجرة رقم: ٢٣ بالطابق الثاني، وقال لي: اكتب للنقيب مولاي عبدالرحمن بن زيدان، وقل له: إنني مكنتك من بيت سكناك، بالمدرسة.

وبعد عامين وزيادة انتقلت ـ ضمن طلبة الأقسام العالية ـ إلى المدرسة المحمدية من تأسيس جلالة الملك، المرحوم محمد الخامس، وكانت تمتاز عن بقية المدارس بجدتها، وتجهيز بيوتها بالدورة المائية، غير أنّه كدر

رونقها وقوعها جوار ضجيج مطارق الصفارين صغراها وكبراها، وكان مسكني بها في الطابق الثاني عند الحجرة رقم: **١٣**.

يعلم ممَّا سبق: أنَّ إحرازي على الشهادة النهائية (العالية) من كلية القرويين: كان بتاريخ **٢٤** جمادى الآخرة **١٣٦٢**هـ /**٢٨** يونيو **١٩٣٤**م، وبعد ذلك بخمسة شهور تقريباً عُينت مدرساً في القسم الابتدائي بالمعهد المكناسي أول افتتاحه الذي كان عند الساعة الثامنة ـ بالتوقيت المحلي ـ صباح الإثنين **٢٣** ذو القعدة **١٣٦٢**هـ/**٢٢** نونبر **١٩٤٣**م.

وكان تعييني صحبة الأساتذة المرحومين: السيد محمد ـ فتحا ـ بن العربي الطاهري، والسيد عبدالله بن (عسيلة) الشبيهي، مع الأساتذة السيد العربي ابن المفتي محمد ـ فتحا ـ السملالي، والسيد الطيب بن عبدالقادر الحريق، والسيد أحمد بن الصديق الديغوسي.

يضاف لهؤلاء ثلاثة في إدارة المعهد، وهم العلماء المرحومين: السيد الحاج المختار ابن الحاج محمد السنتيسي: رئيس.

السيد محمد العربي بن محمد المنوني: مراقب الدروس.

السيد الحاج أحمد بن عبدالسلام بن شقرون: كاتب.

وكانت الدروس التي أقرأتها هي: السيرة والأدب وتاريخ المغرب، مع درس أسبوعي في الإنشاء أحدث بعد ذلك.

وبعد نجاح الفوج الأول في الشهادة الابتدائية بدأ إحداث القسم الثانوي تدريجياً إلى السنة الرابعة، فأحدثت السنة الأولى من الثانوي، وأسند لي تدريس الثمن الأول من «المختصر الخليلي» بشرح الدردير، مضافاً للدروس الابتدائية.

وبعد اكتمال السلك الأول قصرت على الثانوي ابتداءً من عام **٦٥** ـ **١٣٦٦**هـ ودرست به: «أدبيات اللغة العربية» في السنة الأولى، و«الوسيط في تاريخ الأدب العربي» بالسنة الثانية، ومعه «الكافي في العروض»، وفي السنة الرابعة «محاضرات» الخضري: قسم «الدولة العباسيَّة».

وقد كانت حصص الدروس الثانوية ١٥ درساً للأستاذ، وابتداءً من عام ٦٨ ـ ١٣٦٩هـ ارتفعت الحصص إلى ١٨ درساً، ولهذا أضيف لدروسي الثانوية القسم الثاني من «الموضح» لابن هشام على «ألفية ابن مالك» ابتداءً من باب «أعلم وأرى» إلى نهاية باب «نونا التوكيد» وقوفاً على ما لا ينصرف، مع «جغرافية إفريقيا» والدرسان ـ معاً ـ في ثانية الثانوي، وعلى هذا استمرت دروسي إلى نهاية السنة الدراسية ٧٢ ـ ١٣٧٣هـ /٥٣ ـ ١٩٥٤م.

وخلال العطلة الصيفية لهذه السنة نابني حظي من نكبات الأزمة المغربية، فاعتقلت ابتداء من ٨ غشت ١٩٥٤م وحكم عليَّ بالسجن والذعيرة والنفي من مكناس، وفصلت عن التدريس بالمعهد من آخر عام ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م إلى أن عدت له بعد الاستقلال ابتداءً من جمادى الأولى عام ١٣٧٥هـ/ يناير ١٩٥٦م.

وفي هذه الفترة أحدِّث بالمعهد السنة الخامسة، فصارت دروسي لسنة ٥٦ ـ ١٩٥٧م كالتالي:

«الموضح» لابن هشام على «ألفية ابن مالك»، مع «الوسيط في تاريخ الأدب العربي» وهما بالسنة الثانية من الثانوي، وفي الرابعة محاضرات» الخضري: قسم «الدولة العباسية».

وفي السنة الخامسة: «بلوغ المرام» لابن حجر العسقلاني، مع شرح «سبل السلام».

وفي نفس السنة: «تاريخ المغرب القديم»: «محاضرات».

وفي سنة ٥٧ ـ ١٩٥٨م، بدأت التجارب الفاشلة لتطوير العلم الأصلي، فصارت حصتي ملخصات في التاريخ القديم والوسيط والمعاصر حسب الطبقات، مع ملخصات في الأدب.

ثم سار الحال هكذا مع السنة التالية إلى نهاية دجنبر ١٩٥٨م، ومن يناير ١٩٥٩م اشتغلت بتفتيش مادة التاريخ في ثانويات التعليم الأصيل،

مضافاً لذلك مراقبة الدروس وتفتيشها بمعهد مكناس إلى ٤ دجنبر ١٩٦١م.

ومن ٥ دجنبر ١٩٦١م التحقت بالعمل في الخزانة العامة، ومن مارس ١٩٦٢م بدأت أشتغل في الخزانة الحسنية.

وفي ٢٥ يونيو ١٩٧٠م عينت رئيساً لمصلحة المخطوطات داخل وزارة الثقافة والتعليم الأصلي إلى ٢٠ رمضان ١٣٩٤هـ /١٩٧٤م، حيث اقتضى نظر الجلالة الشريفة عودتي إلى الخزانة الحسنية.

والآن: أستاذ السلك العالي في كلية الآداب بالرباط، ابتداء من السنة الجامعية ٨٨ ـ ١٩٨٩م».

وقد أثنى عليه عدد كبير من العلماء والأساتذة والباحثين المنتمين إلى دول مختلفة، والذين يشتغلون في مجالات علمية ومعرفية متنوعة؛ فهذا العلاَّمة عبدالله كَنون يقول عنه سنة ١٩٤٨م في تقديمه لكتاب: «العلوم والآداب والفنون في عهد الموحدين»: «صاحب هذا الكتاب عالم من علماء الشباب المثاليين، جمع إلى العلم والاطلاع النفس الزكية والأخلاق الفاضلة، وقامت به صفة الباحث الصبور والعامل الدؤوب فلا جرم أن يجني أطيب الثمرات ويحصل على أحسن النتائج، فإنَّما هي همة وإدراك، واجتهاد ونجاح، وكأنَّ الأقدار لما تطاولت فاغتالت عالم مكناس ومؤرخها وكعبة القصاد فيها: المرحوم مولاي عبدالرحمٰن بن زيدان؛ أرادت أن تعوض منه خلفاً صالحاً، وتبقي هناك على وارث جدير بسره هو الأستاذ محمد المنوني الذي يعد بحق مفخرة من مفاخر العاصمة الإسماعيلية في هذا الصدد».

وهذا الأستاذ عبدالله العروي[1] يقول: «إنَّ الأستاذ المنوني قد أدرك منذ بداية حياته العلمية أنَّ التاريخ لا يكتب بالأفكار والأحكام المسبقة، وإنَّما يبنى لبنة لبنة اعتماداً على الوثائق المحققة، فشمر على ساعده وأوقف حياته على جمع وترتيب كل ما يحفظ لنا صورة ولو باهتة عن حياة آبائنا

---

(١) تحية ضمن كتاب: «في النهضة والتراكم» ص:٢١ ـ ٢٤.

وأجدادنا؛ وهو لعمري عمل شاق مضني لا يسبر غور مشقته إلاَّ مَن ذاق مرارته إنَّ أكبر عمل قام به الأستاذ المنوني هو ذلك المتعلق بإصلاحات المخزن في القرن الماضي، كنا نعتمد قبله أساساً على شهادات وأقوال الأجانب، وفي هذا الاعتماد ما فيه من تناقض، فبكشفه عن فتاوى ومذكرات وظهائر ورسائل تثبت بوضوح الإرادة الإصلاحية لدى السلاطين وبعض رجال الدولة، فإنَّ الأستاذ المنوني أنقذنا من التناقض وفتح لنا آفاقاً لم نكن نحلم بها، فأرغمنا على طرح إشكاليات جديدة بعيداً عن التخمينات والتصورات المجانية إنَّه وسَّع نطاق البحث من المخزن إلى الحياة العامة، فكشف النقاب عن مظاهر مجهولة من حياة الشعب المغربي، تعليميَّة واجتماعيَّة وثقافيَّة، مقدماً بذلك الأدلة الكثيرة على أنَّ المغرب كان أمة واعية بوحدتها وخصوصيتها لا كما يحلو لبعض المؤلفين أن يوهموا القارىء أنَّ كل ما يوجد في كتاباتهم وليد جهودهم الفردية وأن يسحبوا غطاءً سميكاً على هذه الحقيقة العامة، وهي أنَّ كل واحد منَّا يستثمر بكيفية أو بأخرى كد وجهد غيره، فيليق بالمؤلف الأمين أن يحيل كلما أتاحت له الفرصة على جميع مَن أفادوه أو سبقوه إلى ميدان البحث والتأليف؛ لذلك رأيت من واجبي أن أسجل اسم الأستاذ المنوني في صدر كل مؤلف، بأي لغة كان، حول مغرب القرن التاسع عشر».

ويقول الباحث والمؤرخ التونسي أبو القاسم محمد كرو: «ورغم علمه الغزير وكتبه الوفيرة والمفيدة ورغم مرجعيته الواسعة فإنَّه لم ينل عضوية الأكاديمية المغربية، ورغم أنَّه لم يكن يحمل أي شهادة جامعية فهو أستاذ كبير في أول جامعة مغربية حديثة هي جامعة محمد الخامس التي يجلس إليه ـ كمرجع كبير ومهم ـ أساتذتها قبل تلاميذها وكتبه ليست فقط مرجعاً عن المغرب وحده بل هي مرجع أيضاً عن شمال إفريقيا وعن معظم رجالاته من الفتح الإسلامي إلى اليوم، وكان ملك المغرب الراحل يرجع إليه بالواسطة، فيما يخص تاريخ المغرب وعلاقاته الإفريقية قديماً وحديثاً، ومهما يكن فالكل يعترف صراحةً وعلناً أنَّ الأستاذ محمد المنوني كان ـ لوحده ـ أكاديمية كاملة تمشي على الأرض ولها من العلم، والعلم الغزير، ما يزيد ويفوق ما

لدى معظم أعضائها، وهو اليوم يواجه بعلمه الغزير وماضيه المجيد وكتبه الكثيرة، وجه التاريخ الذي لا يجامل ولا يهمل أحداً من معاصريه».

ويقول عنه العلاَّمة المحدِّث محمد بوخبزة الحسني[1]:

«ومن المعاصرين كوكبة من الأبرار أبلوا البلاء الحسن في العلم والتعليم والتحرير والتهذيب، وخلفوا آثاراً ناطقة بفضلهم، معربة عن علو كعبهم، من روادهم الأفذاذ: العلاَّمة نادرة العصر، مؤرخ حضارة المغرب ومحيي رسوم أعلامه، الشيخ القدوة، الثقة الثبت: أبو عبدالله محمد بن عبدالهادي المنّوني المكناسي رحمه الله وطيَّب ثراه، عرفته قديماً يوم كان حفل عيد الكتاب بتطوان أيام الحماية الإسبانية، فكان أخونا يشارك فيه بأعلاق نفيسة، ووثائق تاريخيَّة غَمِيسة، من خزانته التي أسماها: (مكتبة ابن غازي) اعترافاً منه بفضل ابن غازي على بلده مكناسة الزيتون، فتكون تلك الأوضاع موضع دهشة الباحثين واستغرابهم، وهكذا كان دَيْدن الرجل وهمُّه: أن لا يسطو ويكرِّر ويجترّ، وإنَّما يُجدِّد ويخترع بما أوتي من عارضة قوية واستبحار فى أطوار التاريخ، وتعمق في دراسة أبحاثه وخفاياه وفلسفته، فكان يأتي في أبحاثه وخصوصاً ما يتعلق بدولتي الموحدين والمرينيين بالأندلس والمغرب ما لا يتأتى لغيره، كل هذا بسبب الحس التاريخي، ووفرة الذكاء في استنطاق النصوص واستخراج خباياها.

هذا إلى جانب نفس رضية، وقلب كبير، وتواضع جم، وحرص بالغ على العلم وزهادة حميدة في الدنيا إلاَّ ما أتاه منها عفواً أو بإجمال طلب وسخاوة نفس، فقد عاش رضي الله عنه عيشة كفاف لا يمد عينيه إلى ما متع به مَن لا يستحق أن يكونوا تلامذة له؛ من الأدعياء المتوخمين، الذين لا تخلو منهم مؤسسة ولا جامعة، وقد استفظعنا إبعاده عن الأكاديمية المغربية التي جمعت تحت قُبَّتها مَن لا في العير ولا في النفير.

كما علمنا تسلُّط بعض أصحاب القرار في دنيا العلم والثقافة عليه، واستغلالهم لطيبوبته، فكانوا يسألونه مسترشدين فيما يدَّعون حتى إذا حصلوا

---

(١) كلمة تقديم كتاب (العلامة محمد بن عبدالهادي المنوني) ص: ٥ ـ ٧.

على ما يريدون، ترى أسماءهم تتصدَّر الصحف والمجلات محفوفة بألقاب الكذب والنفاق.

ومن تواضعه الفريد: أنَّه حرص على طلب الإجازة مني للرواية عن الشيخ أحمد ابن الصديق الغماري الطنجي التي فاتته لأسباب سياسية، فانتهزت فرصة طلبه، واستجزته بدوري فتدبجنا، ولما سألتُه عن سبب حرصه، قال: إنَّ الشيخ أحمد لا نظير له في المغرب، وقدَّمه على سائر مشايخه بما فيهم عبدالحي الكتاني الذي أخبرني أنَّه أمره بالأخذ عنه والرواية وهدَّده إن لم يفعل، والشيخ كان متهماً من الإدارة الفرنسية بالميل إلى الوطنيين، قال لي: انظر إلى هذا وكيف يبارك الله هذا الطلب.

ومن تواضعه رحمه الله وفرط اعتقاده ـ وقد كان كتاني الطريقة ـ: أنَّه كان يجلس معي في بيته على البساط، وأنا جالس على المرتبة فوق ويسارع إلى تقديم حذائي فأقوم وأنا أتعثَّر من الخجل، وسألني مرة بإلحاح عن عافية مرضه ـ وكان يعاني من ضعف قويٍّ في بصره ـ؛ فأخبرته بقرب العافية والسلامة ـ على سبيل التفاؤل والتخفيف عنه ـ فتهلَّل وجه الرجل وسُرِّي عنه، وقال: بارك الله فيكم يا آل البيت، أنتم مصدر البركة والمكاشفة!

وقال عنه الدكتور عبدالسلام الهراس[١]:

«. . . إنَّ للأخ الحبيب الشيخ محمد بن عبدالهادي جوانب مضيئة من حياته أعرف بعضها ويعرف إخوان آخرون أكثر مما أعرف وسأذكر له ثلاث مناقب جديرة بالتسجيل:

المنقبة الأولى: أنَّه حاول متابعة دراسته العليا بكلية الآداب بالرباط سنة ١٩٦٠م لكنه صادف سداً منيعاً وعراقيل ظالمة صرفته عن ذلك. وحكى لي الأخ الدكتور أحمد مختار العبادي في بيته بمدريد جانباً من تلك العراقيل التي لم يجد هو والدكتور حسن إبراهيم حسن حيلة في تجاوزها، وقال:

«أعجب أن يفعل ذلك مع شيخ عالم، بل مصدر من أهم مصادر المعرفة في العالم العربي الذي يأخذ عنه القاصي والداني». وبعد نحو عقد

(١) كلمة تقديم لكتاب (العلامة محمد بن عبدالهادي المنوني) ص: ٩ ـ ١٩.

صار يُدرِّس في كليات جامعية ودار الحديث الحسنية وبعد عقدين يصدر مرسوم بأمر من الملك الحسن الثاني رحمه الله رحمة واسعة بتسميته: أستاذاً للتعليم العالي مدى الحياة بجامعة محمد الخامس ـ كلية الآداب ـ، وقد توفي وهو بهذه الصفة في حين توفي صاحب العرقلة رحمه الله وغفر له بصفة متقاعد.

أمَّا المنقبة الثانية: فإنَّ الشيخ المنوني اضطلع بأشق الأعمال منذ بدأت الأشغال إلى نهايتها في تأسيس الخزانة الملكية التي أصبح اسمها ـ بعْدُ ـ: الخزانة الحسنية، والحديث عن تأسيس هذه الخزانة والمراحل التي مرت بها إلى أن استوت على ما هي عليه الآن حديث شائق وموضوع رائق... وقد صاحبت أخي الشيخ المنونّي في المراحل المغبرة والبداية الشاقة مستفيداً من علمه، وملتقطاً لفرائد فوائده، إذ كنت أهيىء الدكتوراه ومقدماتها في جامعة مدريد، ولا يكافئه حقَّ المكافأة على ما قام به في هذه الخزانة وغيرها إلاَّ الله...

وذات يوم دخل الملك الحسن الثاني عليه، وكان بجانبه الشيخ عبدالسلام بن سودة رحمه الله، وهما محاصران بركام من المخطوطات التي يكسوها غبار القرون، وتعبث بالكثير منها الأرضة التي أنهكت بعض المخطوطات متعاونة مع الرطوبة التي ما قصَّرت في المسح والمحو؛ دخل الملك المعروف بالكرم الحاتمي وبعد أن حَيَّا الباحثَيْن الصَّالحيْن، وتحدَّث معهما في سَيْر الأعمال وفيما اكتشفاه من النوادر، وعندما همَّ بالانصراف التفت إلى الشيخ المنوني، وقال له: «يا فقيه، هل من طلب نلبيه»! فأجابه الشيخ المنوني: «شكر الله جلالتكم، فالكفاية حاصلة والحمد لله»، قال لي: «خشيت على نفسي أن يعاقبني الله الذي كفاني؛ فإن طلبت شيئاً كأنني أشكو ربي الذي ما تخلى عني قط، بل يضاعف عليَّ نعمته».

وبعد سنوات من هذه المناسبة أكرمه الله بأن وسَّع عليه في رزقه من لدنه سبحانه، ونتاج ذلك عندما باع بيته بثمن مناسب لتغيير أحوال الحي الذي فيه بيته.

المنقبة الثالثة: الثبات على المبدأ والتشبُّث بما يراه حقّاً...

عُرف عن هذا الرجل صموده في وجه الاستعمار، وقد امتحن مع إخوانه في السجون، وكان يرى ذلك واجباً لا يستدعي الافتخار ولا يستوجب التطاول على الآخرين، ويستبيح الاستبزاز والامتيازات المادية أو المعنويَّة كما يفعل الآخرون «صدقاً أو كذباً وادعاءً».

وعندما استقلَّ المغرب اعتزل العمل السياسي الذي كان مبنياً في أول أمره على الوطنية الناشئة عن التشبُّث بالدين والقيم الأخلاقية المحمديَّة، وآثر خدمة المغرب والإسلام من موقعه في الخزانات الكتبية العلمية، يشير على الباحثين ولا يبخل على الطلبة، ويسارع إلى نشر أبحاث تخدم الأهداف التي آمن بها من الاعتزاز بالإسلام وعلوم الشرع ومظاهر الحضارة الإسلامية، ويستجيبُ للاستدعاءات الكثيرة من أنحاء المغرب لإلقاء المحاضرات والمشاركة في الندوات، ولا نعلم أنَّه كتب ما يندم عليه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاَّ مَن أتى الله بقلب سليم.

وبالرُّغم من حياته التي التزم فيها بالانزواء عن السياسة ومعاركها الباردة والساخنة فإنَّه لا يتردَّد في المشاركة فيما يراه واجباً نحو دينه ووطنه، من ذلك حرصه على المشاركة في مؤتمرات رابطة العلماء ولا سيما في رحلتها الأولى التي كان للرابطة مكانتها الرائدة ولكلماتها التأثير والنفوذ. كما كان يوَقِّع على العرائض التي تتصل بأمور الدين والعربية والأخلاق، وقضايا الأمة الإسلامية دون مداهنة أو مساومة.

ومما يسطر له بمداد المجد ما قَصَّه غير واحد: أنَّ الشيخ المنوني وقَّع على عريضة مع ثلة من العلماء تتضمَّن المطالبة بإصدار قوانين وتطبيق القائم منها لحماية احترام القيم الدينية والجناب النبوي الشريف ومقام الإلٰهيَّة والربوبيَّة في مواجهة ما بدأ يتسرَّب إلى المغرب من مظاهر مؤسفة من التعريض بالدين والهجوم على علمائه ورجالاته... وكانت العريضة مرفوعة إلى الوزير الأول... وقد وقع الضغط على بعض الموقعين الذين تراجع جلّهم معتذراً بحجة أنَّ العريضة التي وقَّع عليها هي غير التي يراها الآن!!

أمَّا الشيخ المنوني، فقد قال: إنَّ العريضة التي وقَّعت عليها هي هذه

التي أقرؤها الآن بعينها ونفسها، ونحن لسنا «عيالاً» نوقِّع أمس ونتراجع اليوم، وأبى أن ينقض موقفه بالأمس... قال الراوي الذي حضر المعمعة رحمه الله:

«لقد أكبرت الرجل أيما إكبار، وأخْزَيت نفسي إذ ضعفتُ فتراجعتُ، ومن ثَمَّ أصبح عندي الشيخ المنوني أحد كبار علماء الإسلام الذين ثبتهم الله بالقول الثابت الجالب لرضاه، وقد ذكَّرنا بالأئمة العظام الذين كانوا قدوة في الثبات على الحق حتى أتاهم اليقين».

وقد سمعت هذه القصة من الشيخ المنوني نفسه في تواضع وهدوء وحياء ودون تبجُّح أو رياء، وقال لي: «إني أفرِّق بين العمل الجاد القاصد، والحق الذي يراد به باطل فهذا لا أؤيده ولا أوقع عليه».

إنَّ للشيخ المنوني جوانبَ كثيرة نابعة من ربانيته، ولست مبالغاً إن قلت: «ما من باحث في الخزانات المغربية من الداخل أو الخارج وإلاَّ وللمنوني عليه فضل». وقد كان يفيد حتى مَن يراه غير أهل لذلك لأسباب معقولة لا مجال لذكرها، فإذا سُئل: لماذا لم تعامل مَن يسيء معاملتك فيبخل عليك بما لديه من فوائد بالمثل؟ يجيب: «فراراً من لجام من النار...».

أمَّا فضائله ومكارمه الأخلاقية والعلمية ونوادره وطرفه وحِكَمِه وتعليقاته ومواقفه الوطنية والسياسية فتحتاج إلى مجلد خاص يُشارك في تأليفه مَن كان له به اتصال».

ويقول عنه الأستاذ عمر أفا[(١)]:

«معاشرتي للعلاَّمة الفقيه محمد المنوني لفترة تقترب من أربعين سنة كفيلة بأن تبسط أمامي صوراً من مواقف الرجل وكيف كان شاهداً على عصره وما طرأ عليه من تطورات، وفي ما يلي أسجل بعضها بأمانة:

---

(١) دعوة الحق ـ العدد: ٣٧٢ـ السنة: ٢٠٠٣ (قيم ومواقف في حياة العلاَّمة محمد المنوني) ص:٥٦.

سنحت لي فرصة زيارة جامع القرويين صحبة أستاذنا العلاّمة محمد المنوني، رحمه الله، فوقفنا معاً عند أساطين المسجد التي كانت تعقد إلى جانبها حلقات الدرس فوق الحصير، في الأصباح والليالي الطوال، فانطلقت الذاكرة ـ وهي عائدة إلى ريعان الشباب ـ تسرد بشوق ملف الدراسة. وبقدر ما كان الراحل يحرص على ذكر أسماء الفنون التي كانت تدرس في تلك الحلقات، ويذكر معها أساتذته ويثني عليهم وينوّه بخصالهم أمثال: عبدالعزيز بلخياط، ومحمد الجواد الصقلي، ومحمد بن العربي العلوي وغيرهم، فجسَّد بذلك قيمة البرور بالأشياخ والأساتذة، فإنَّه كان حريصاً أيضاً على أن يتحدث عن إحدى القيم الحضارية، وهي حب العلم، فالعلم كان مطلوباً لذاته، وليس تهافتاً على الشهادات والمال، كان العلم مطلوباً، رغم ما كان محفوفاً به يومئذٍ من معاناة في الوسائل والإمكانات.

عندما يشاهد المرء حلقات الطلبة الباحثين وهم يحيطون بالأستاذ المنوني، في ردهات الكلية وأمام القاعات، وفي كل مكان، لا بدَّ أن يتساءل عن سر هذا التعلق المستمر الملحاح.

فإن تجاوزنا موسوعية الرجل العلمية وعمقه في إدراك أسئلة الباحثين وإجاباته الكافية الفائضة، فإنَّ هناك عمقاً آخر يكمن في القيم الإنسانية التي تشبعت بها طائفة من علمائنا وأساتذتنا أمثال أستاذنا الراحل، أختزلها في أربع قيم:

١ ـ في حب العلم وليس في حب المال.

٢ ـ في التواضع وليس في الهرمية والتعالي.

٣ ـ في الشفافية والوضوح، وليس في التعتيم والادعاء.

٤ ـ وآخراً في الكرم: كرم في الأخلاق وكرم في العلم، وكرم في المائدة والمخطوط والوثيقة.

بهذه القيم والخصال أسهم الأستاذ محمد المنوني ويسهم أمثاله في تكوين أمواج هائلة من الباحثين المرموقين. تشهد بذلك آثاره في كثير من

الكتب والرسائل والأطروحات الجامعية التي أشرف عليها فعلاً، والتي اعتمدت استشاراته وإفاداته سواء داخل المغرب أو خارجه.

وهكذا، ففي سياق رغبته في استمرارية البحث، تحدث لي رحمه الله يوماً، فقال: «ترى هل توجد ضمن نِعم الله في الجنة نعمة ممارسة البحث العلمي؟» ـ انتهت شهادة الأستاذ عمر أفا في حق العلامة محمد المنوني ـ.

وقال عنه العلاَّمة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة ـ رحمه الله تعالى ـ: **«هو أنفع أهل المغرب»**(١).

وهناك شهادات كثيرة لا يمكن عدَّها وحصرها قيلت في حق العلاَّمة المرحوم محمد المنوني، صدرت عن طلبته وأصدقائه ومحبيه.

وقد كان رحمه الله يزوِّد الباحثين والطلبة والدارسين بالمخطوطات القيمة أو يدلهم على مكان وجودها. وإليه يرجع الفضل في اكتشاف عدد كبير من الوثائق والمخطوطات النفيسة التي تمَّ تحقيقها ونشرها.

فهذا الأستاذ محمد بنشريفة يتحدث عن تحقيقه لكتاب ابن مغاور الشاطبي ويقول: «كنت كغيري من الدارسين أعرف ما هو وارد في ترجمة ابن مغاور في تكملة ابن الأبار وغيره. وكنت أمر بما يذكر في هذه الترجمة من أنَّ له تأليفاً اسمه: «نور الكمائم وسجع الحمائم»، دون أن يخطر ببالي أني سأقع عليه في يوم من الأيام، وعندما أخرج السيد الفقيه محمد المنوني فهرس خزانة الزاوية الناصرية بتمكروت تصفحته فوقعت عيني على اسم الكتاب ضمن مجموع من مجاميع هذه الخزانة، وقد شددت الرحال إلى هذه الخزانة القصية، ووقفت على المخطوط في عين المكان، وتأكدت من قيمته الأدبية والتاريخيَّة، فحصلت على صورة منه وعكفت على قراءتها ودراستها، فكانت النتيجة إخراج هذا العمل».

وهذا الدكتور محمود محمد الطناحي، رحمه الله، يذكر في كتابه الشيق: **«مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي»** مبلغ المعاناة التي احتملها

(١) ذكر ذلك الشيخ محمد بن عبدالله آل رشيد في كتابه: (إمداد الفتاح).

أعضاء بعثة معهد المخطوطات، وما كابدوه من مشقة ونصب في تصويرها، ثم يقول: «والإنصاف يقتضيني أن أشير وأشيد بما لقيته بعثة المعهد من ترحيب وعون بعض أصحاب المكتبات الخاصة بالمغرب من مثل: العلاَّمة الأستاذ محمد المنوني بالرباط، والسيد عبدالله الصبيحي من مدينة سلا».

ثم يقول في حديثه عن نشر التراث في المغرب: «وقد وقف خلف نشر التراث في المغرب علماء مغاربة فحول، تواصلت أجيالهم العلمية؛ منهم محمد المنوني، هذا العالِم الجليل الذي جمع الفضائل والمفاخر كلها، وهو بقية السلف الصالح، إن شاء الله». ثم يقول: «سعدت بمعرفته أيام زيارتي للمغرب، وهو صاحب دراسات عميقة في التاريخ المغربي والحضارة المغربية، وبيته مفتوح، ونصحه مبذول لكل طالب علم، ومن مآثره العظيمة أن أباح مكتبته الخاصة لبعثة معهد المخطوطات عام **١٣٩٢هـ**، تصور منها ما تشاء، وهو ما لا يفعله كثير من أصحاب المكتبات الخاصة».

هذا الجانب ـ أعود فأقول ـ: شجَّع الباحثين على طرق بابه، دون تردد، بعد أن علموا أنَّ لا أحد من قاصديه يخيب؛ على أنَّ الأستاذ المنوني لم يكن يقتصر على إمداد الباحث بمختلف المصادر، بل يمده بالتوجيهات والتنبيهات التي قد يغفل عنها أستاذ البحث.

ويقول الدكتور عياد التأبيتي، الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة، في مقدمة رسالته لنيل الدكتوراه، وهي تحقيق ودراسة كتاب: **«البسيط في شرح جمل الزجاجي»** لابن أبي الربيع السبتي، في معرض شكره للذين أمدوه وأعانوه: «والأستاذ الفاضل الشيخ محمد المنوني الذي أمدني بالعديد من نفيس المصادر، ونبهني إلى بعض الأمور التي ما كانت تخطر على بال».

يقول عبدالعزيز تيلاني في كتابه: «الفقيه المنوني» ـ شهادات وفاء[1] ـ:

«. . . وقد ظلَّ عاشقاً للتدوين والكتابة حتى آخر يوم من حياته.

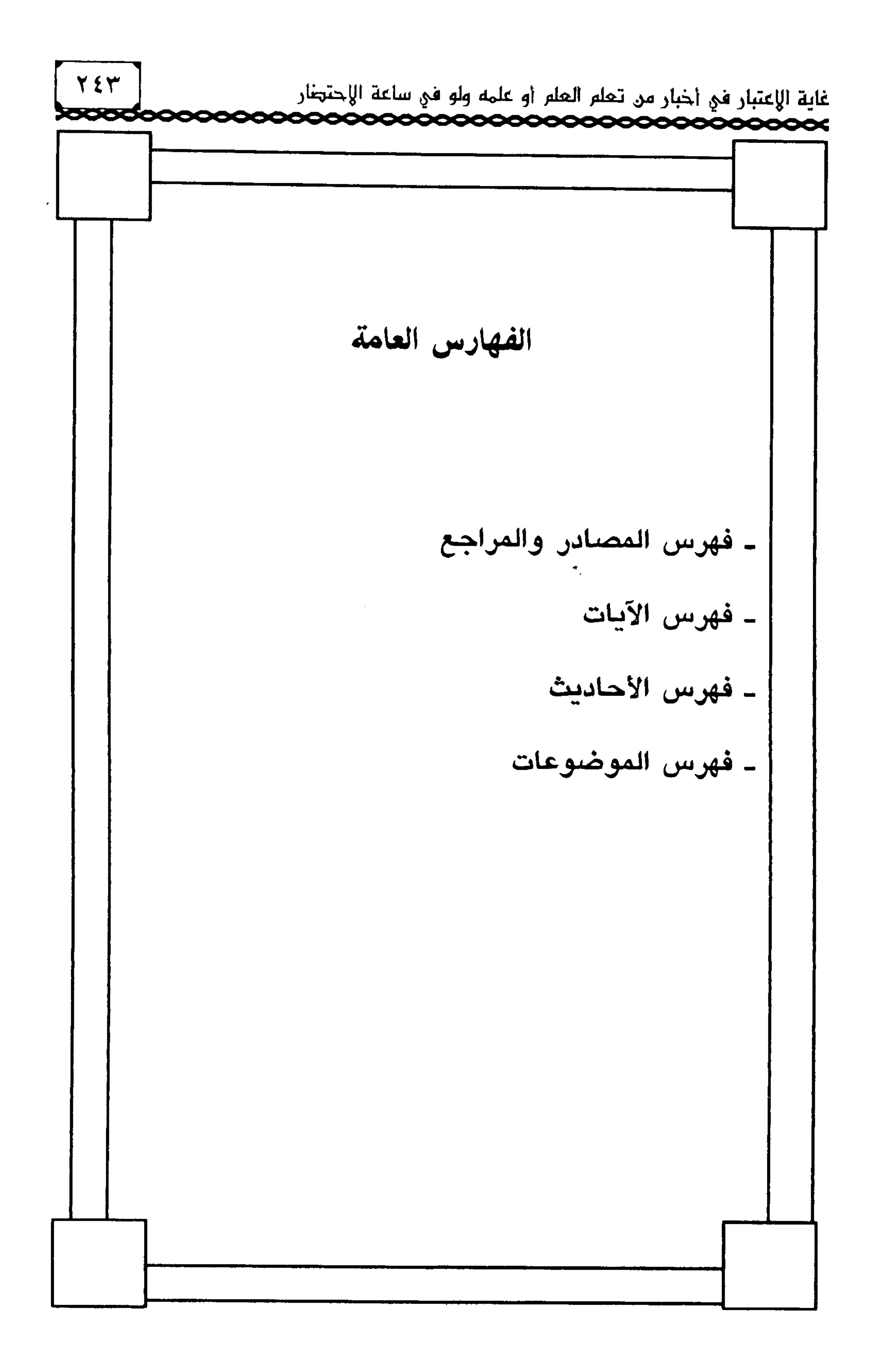
وممَّا يؤكد هذا القول: أنني عندما كنت أتردد عليه بالزيارة بمصحة

(١) ص: ٥.

أكدال بالرباط في شهر غشت من سنة ١٩٩٩م؛ حدثني رحمة الله عليه والموت ينازعه في أسبوعه الأخير، الذي فارق خلاله دار الفناء إلى دار الخلد والبقاء قائلاً: «اطلب معي من الله أن ييسر لي أمر إتمام عمل أشتغل به الآن وهو تدوين رحلتي الحجازية».

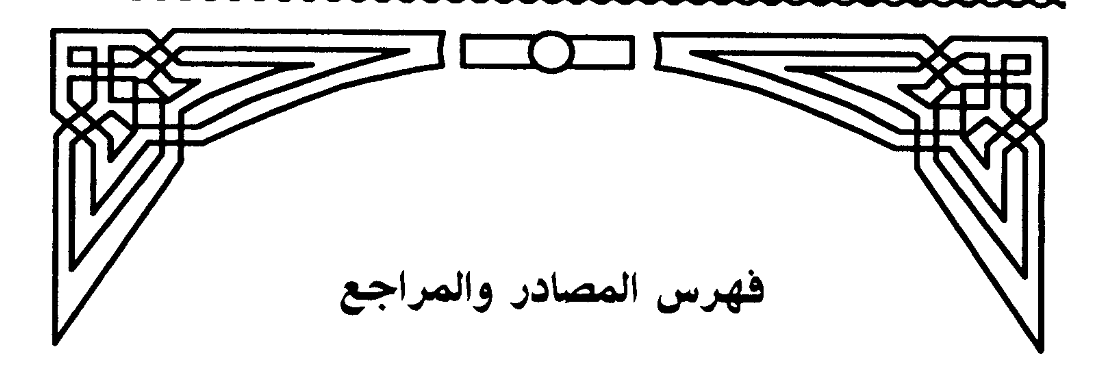
مع العلم أنَّ الفقيد العلاَّمة محمد المنوني عندما عجزت يده اليمنى عن الكتابة بسبب مرض ألمَّ به في أواخر الثمانينات، لم يتوقف عن الكتابة، بل استطاع أن يدرب يده اليسرى على الكتابة حتى لا ينقطع عن التدوين والكتابة».

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الفهارس العامة

- فهرس المصادر والمراجع
- فهرس الآيات
- فهرس الأحاديث
- فهرس الموضوعات



فهرس المصادر والمراجع

- أ -

١ - **القرآن الكريم**.
٢ - **أبو زرعة الرازي وجهوده في السنة النبوية**: للدكتور سعدي الهاشمي، ط. دار الوفاء ومكتبة ابن القيم، ١٤٠٩هـ.
٣ - **أدب الدنيا والدين**: للماوردي، تحقيق شريف سكر ورفيقه، ط. دار إحياء العلوم.
٤ - **الأدب المفرد**: للبخاري، ط. دار البشائر الإسلامية، بيروت.
٥ - **إرشاد الأريب في معرفة الأديب**: لياقوت الحموي، تحقيق مرجليوث، ط. دار إحياء التراث العربي.
٦ - **الإرشاد في معرفة علماء الحديث**: للخليلي، ضبطه عامر أحمد حيدر، ط. دار الفكر.
٧ - **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**: للمقري، ط. وزارة الأوقاف، المغرب.
٨ - **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: لابن عبدالبر، ط. بيروت.
٩ - **أسد الغابة في معرفة الصحابة**: علي بن محمد بن الأثير، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٠ - **الإصابة في معرفة الصحابة**: لابن حجر، ط. بيروت.
١١ - **أعيان العصر وأعوان النصر**: للصفدي، تحقيق علي أبو زيد ورفاقه، دار الفكر.
١٢ - **إنباه الرواة على أنباء النحاة**: للوزير القفطي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ط. دار الفكر العربي، ومؤسسة الكتب الثقافية.
١٣ - **الأنساب**: للسمعاني، دار الجنان.



- ب -

١٤ ـ **البداية والنهاية**: لابن كثير، دار الفكر، بيروت.

١٥ ـ **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**: للشوكاني، مكتبة ابن تيمية.

١٦ ـ **بيوتات الحديث بدمشق**: الدكتور محمد بن عزوز، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٥هـ.



- ت -

١٧ ـ **تاج العروس من جواهر القاموس**: للزبيدي، مصورة عن طبعة بولاق.

١٨ ـ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**: للذهبي، تحقيق الدكتور عمر عبدالسلام تدمري، ط. دار الكتاب العربي.

١٩ ـ **تاريخ بغداد**: للخطيب البغدادي، ط. دار الكتب العلمية.

٢٠ ـ **تاريخ مدينة دمشق**: لأبي القاسم بن عساكر، ط. دار الفكر.

٢١ ـ **تذكرة الحفاظ**: للذهبي، تحقيق المعلمي، ط. دار إحياء التراث العربي.

٢٢ ـ **ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب مالك**: للقاضي عياض، ط. وزارة الأوقاف، المغرب.

٢٣ ـ **التقييد لرواة السنن والمسانيد**: لابن نقطة، ط. مصورة عن الهندية.

٢٤ ـ **التكملة لكتاب الصلة**: لابن الأبار، ط. دار المعرفة، المغرب.

٢٥ ـ **تهذيب الأسماء واللغات**: للنووي، ط. المنيرية.

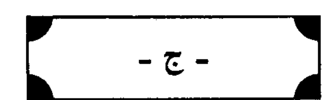
٢٦ ـ **تهذيب التهذيب**: لابن حجر، ط. دائرة المعارف العثمانية.

٢٧ ـ **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**: للمزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت.



- ث -

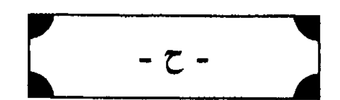
٢٨ ـ **الثبات عند الممات**: أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: خالد علي محمد، ط. دار الأندلس.



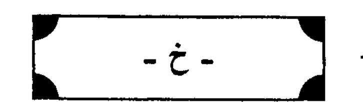
- ج -

٢٩ ـ **جامع بيان العلم وفضله**: لابن عبدالبر، تحقيق: الزهيري، ط. دار ابن الجوزي.

٣٠ ـ **الجرح والتعديل**: لابن أبي حاتم الرازي، ط. دائرة المعارف العثمانية.
٣١ ـ **جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث الشريف**: الدكتور محمد بن عزوز، ط. دار الفكر، دمشق، ١٤٢٥هـ.



٣٢ ـ **الحافظ الذهبي**: مؤرخ الإسلام، ناقد المحدثين، إمام المعدلين والمجرحين لعبدالستار الشيخ، ط. دار القلم، دمشق.
٣٣ ـ **الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه**: للعسكري، المكتب الإسلامي.
٣٤ ـ **حلية الأولياء**: لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتب العلمية.



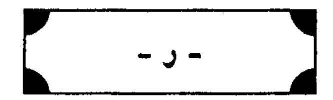
٣٥ ـ **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**: للمحبي، ط. دار الكتاب الإسلامي.



٣٦ ـ **درة الحجال في غرة أسماء الرجال**: للمكناسي، تحقيق: د. محمد الأحمدي أبو النور.
٣٧ ـ **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**: لابن حجر، ط. دار الجيل، بيروت.



٣٨ ـ **ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة**: لعبدالله كنون الحسني، ط. دار الكتاب اللبناني، بيروت.
٣٩ ـ **ذكريات علي الطنطاوي**: (٨) مجلدات، ط. دار ابن حزم.
٤٠ ـ **ذيل التقييد لرواة السنن والمسانيد**: للفاسي، تحقيق: محمد صالح مراد. ط. جامعة أم القرى.



٤١ ـ **رجال من التاريخ**: لعلي الطنطاوي، ط. دار المنارة، ودار ابن حزم.
٤٢ ـ **رسالة المسترشدين**: للمحاسبي، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، ط٨، بيروت

- ز -

٤٣ - **الزهد**: للإمام أحمد، دار الكتب العلمية.

٤٤ - **الزهد والرقائق**: لعبدالله بن المبارك، حققه وعلق عليه حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- س -

٤٥ - **سرعة القراءة والصبر على السماع**: الدكتور محمد بن عزوز، ط.دار ابن حزم.

٤٦ - **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.

٤٧ - **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**: لمحمد بن جعفر الكتاني، تحقيق: عبدالله الكامل الكتاني، وحمزة بن محمد الطيب الكتاني، ومحمد حمزة بن علي الكتاني، ط.دار الثقافة، الدار البيضاء.

٤٨ - **سنن ابن ماجه**: حقق نصوصه، ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث، القاهرة.

٤٩ - **سنن أبي داود**: تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، صيدا، المكتبة العصرية.

٥٠ - **سنن الترمذي (الجامع الكبير)**: تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، ط.دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٥١ - **السنن الكبرى**: للبيهقي، دار المعرفة، بيروت.

٥٢ - **سنن النسائي**: بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، وحاشية الإمام السندي، اعتنى به ورقّمه ووضع فهارسه الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.

٥٣ - **سير أعلام النبلاء**: للإمام الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- ش -

٥٤ - **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**: لابن العماد الحنبلي، ط.دار الفكر.

٥٥ - **شرح صحيح مسلم**: للنووي، المطبعة المصرية.

- ص -

٥٦ ـ **صفة الصفوة**: لعبدالرحمن ابن الجوزي، حققه وعلق عليه: محمود فاخوري، دار الوعي، حلب.

٥٧ ـ **صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل**: للشيخ عبدالفتاح أبي غدة، ط(٣)، سنة ١٤١٣هـ، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.

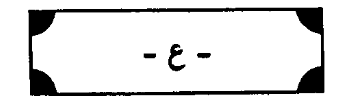
٥٨ ـ **صلة التكملة**: للحسيني، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، ط. دار الغرب الإسلامي.

- ط -

٥٩ ـ **طبقات الشافعية الكبرى**: للسبكي، تحقيق: الطناحي والحلو، ط. البابي الحلبي.

٦٠ ـ **طبقات علماء إفريقية وتونس**: لأبي العرب التميمي، تحقيق: علي الشابي، ونعيم الجافي، الدار التونسية.

٦١ ـ **الطبقات الكبرى**: لابن سعد، دار صادر، بيروت.



- ع -

٦٢ ـ **العلامة محمد بن عبدالهادي المنوني**: ترجمته لنفسه، ونصوص إجازاته، وتوثيق مقالاته، جمع وتعليق محمد بن عبدالله آل رشيد، ط. دار البشائر الإسلامية، ١٤٢٦هـ.

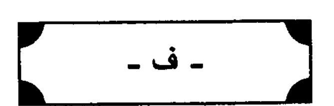
٦٣ ـ **العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج**: للشيخ عبدالفتاح أبي غدة، ط(٤)، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.

٦٤ ـ **علماء ومفكرون عرفتهم**: لمحمد المجذوب.

٦٥ ـ **علي الطنطاوي**: أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء، لمجاهد مأمون ديرانية، ط. دار القلم، دمشق، ١٤٢١هـ.

٦٦ ـ **عنوان الدراية**: للغبريني، تحقيق: عادل نويهض، ط. دار الآفاق الجديدة.

٦٧ ـ **عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران**: للبقاعي، مخطوط.



- ف -

٦٨ ـ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**: لابن حجر، ط. بولاق، ١٣٠٠هـ، وطبعة السلفية ١٣٨٠هـ.

٦٩ ـ **الفقيه المنوني ـ شهادات وفاء**: جمع وتنسيق عبدالعزيز تيلاني، ط.جذور للنشر، طبع بدعم من وزارة الثقافة، الرباط.

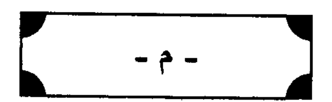
٧٠ ـ **فهرس الفهارس والأثبات، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**: لعبد الحي الكتاني، ط.دار الغرب الإسلامي.

٧١ ـ **في وداع الأعلام**: للدكتور يوسف القرضاوي، ط.دار الفكر، دمشق.



- ق -

٧٢ ـ **القاموس المحيط**: للفيروزآبادي، مكتبة النوري، دمشق.



- م -

٧٣ ـ **المجتمع المسلم كما يبنيه الكتاب والسنة**: لمحمد علي الهاشمي، ط.دار البشائر الإسلامية، بيروت.

٧٤ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: للهيثمي، مؤسسة المعارف.

٧٥ ـ **المحتضرين**: لابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط.دار ابن حزم.

٧٦ ـ **محمد أبو زهرة**: إمام الفقهاء المعاصرين والمدافع الجريء عن حقائق الدين، الدكتور محمد عثمان شبير، ط.دار القلم، دمشق.

٧٧ ـ **محمد ناصر الدين الألباني**: محدث العصر وناصر السنة، للدكتور إبراهيم محمد العلي، ط.دار القلم، دمشق.

٧٨ ـ **المسارعة إلى قيد أوابد المطالعة**: لجميل بن مصطفى بك العظم، تحقيق رمزي سعد الدين دمشقية، ط.دار البشائر الإسلامية.

٧٩ ـ **المشوق إلى القراءة وطلب العلم**: لعلي بن محمد العمران، ط(٤)، دار ابن حزم.

٨٠ ـ **معجم البلدان**: لياقوت الحموي، ط.دار إحياء التراث.

٨١ ـ **معجم السفر**: لأبي طاهر السلفي، تحقيق: عبدالله عمر البارودي، ط.دار الفكر، بيروت.

٨٢ ـ **معجم شيوخ الذهبي**: تحقيق: د.روحية عبدالرحمن سيوفي، ط.دار الكتب العلمية.

٨٣ ـ **المعجم المختص**: للذهبي، تحقيق: د.روحية عبدالرحمن سيوفي، ط.دار الكتب العلمية.

٨٤ - **المعرفة والتاريخ**: للفسوي، تحقيق: أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٨٥ - **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة**: لابن رشيد السبتي، تحقيق: الدكتور محمد بالخوجة، ط.دار الغرب الإسلامي.

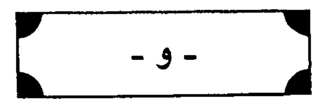
٨٦ - **من أعلام المغرب العربي في القرن الرابع عشر**: لعبدالرحمن الكتاني، جمع نور الهدى الكتاني. وتحقيق: محمد حمزة بن علي الكتاني، ط.دار البيارق، عمان، ١٤٢١هـ.

٨٧ - **المنتظم في أخبار الملوك والأمم**: لابن الجوزي، دار الكتب العلمية.



٨٨ - **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**: لمحمد بن الطيب القادري، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، ط.مكتبة الطالب، الرباط، ١٤٠٧هـ.

٨٩ - **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**: للمقري، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، ط.دار صادر، بيروت.



٩٠ - **الوافي بالوفيات**: للصفدي، نشر جمعية المستشرقين.

٩١ - **وصايا العلماء عند حضور الموت**: لمحمد بن عبدالله بن زبر الربعي، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، ط.دار ابن كثير.





فهرس الآيات

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

فهرس الأحاديث

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑